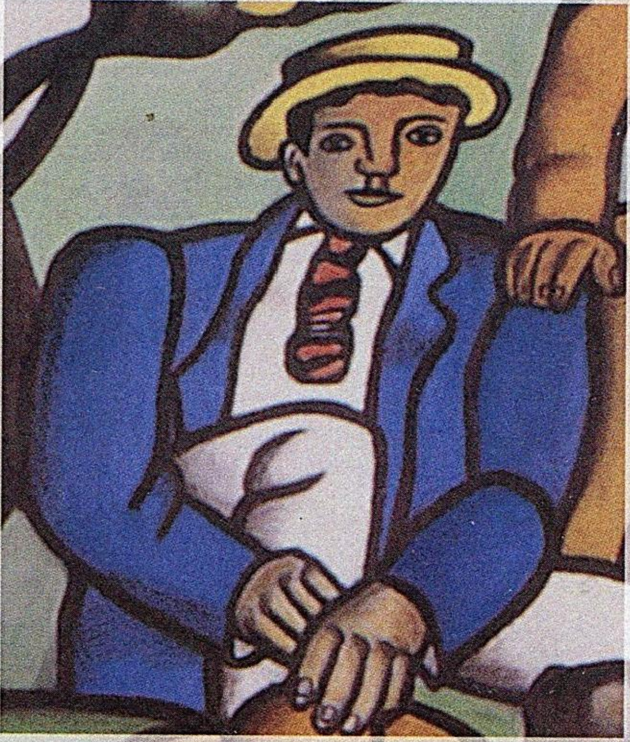
رواية

ميلان كونديرا



كائن لا تُحتمل خفّته

ترجمة: ماري طوق

المركز الثقافي العربي

كائن لا تحتمل خفته

* كائنٌ لا تُحتمل خِفّته.
* تأليف: ميلان كونديرا.
* ترجمة: ماري طوق.
* **الطبعة الثانية، 1998**

* الناشر: **المركز الثقافي العربي**
* **العنوان**:

العنوان:
□ **الدار البيضاء/** ● 42 الشارع الملكي (الأحباس) * فاكس /305726/ * **هاتف/** 303339 - 307651/.
● 28 شارع 2 مارس * هاتف /271753 - 276838/ * ص.ب./ 4006/ درب سيدنا.

□ **بيروت/** الحمراء ـ شارع جان دارك ـ بناية المقدسي ـ الطابق الثالث.
* ص.ب/ 113-5158/ * هاتف/ 352826 - 343701/ * فاكس/00961-1-343701/.

رواية

كائن لا تحتمل خفته

تأليف

ميلان كونديرا

ترجمة

ماري طوق

المركز الثقافي العربي

القسم الأول

الخفة والثقل

1

العَـوْدُ الأبدي فكـرة يكتنفها الغمـوض وبها أربـك نيتشه الكثيـرين من الفلاسفة: أن نتصور أن كل شيء سيتكرر ذات يوم كمـا عشناه في السـابق، وأنَّ هذا التكرار بالذات سيتكرر بلا نهاية! ماذا تعني هذه الخرافة المجنونة؟

تؤكد خرافة العَوْدِ الأبدي، سلباً، أن الحياة التي تختفي نهائيـاً، والتي لا ترجع إنما هي أشبه بـظل ودون وزنٍ وميتة سلفـاً. ومهما تكن هـذه الحياة فظيعة أو جميلة أو رائعة فإن هذه الفظاعة وهذا الجمال وهذه الـروعة لا تعني شيئاً. هي غير ذات أهمية مثل حرب وقعت في القرن الـرابع عشر بـين مملكتين أفريقيتين فما غيّرت شيئاً في وجه التاريخ، مع أن ثـلاثمائـة ألف زنجي لاقوا فيها حتفهم وفي عذابـات تفوق الـوصف. فهل كـان سيتغير شيء لـو أن هذه الحرب بين المملكتين الأفريقيتين في القرن الرابع عشر قد تكررت مـراتٍ لا حصر لها في سياق العود الأبدي؟

بلى: كانت ستؤول إلى كتلة متراصفة من الجماجم، وتفاهتها ستكـون متصلة دون توقف.

ولو قُدّر للثورة الفرنسية أن تتكرر باستمرار، لكان المؤرخون الفرنسيون أقل فخـراً بروبسبيير. ولكن، بما أنهم يتحدثـون عن شيء لن يرجـع ثانيـة، فإن السنوات الـدامية تصيـر مجرّد كلمـات ونظريـات ومجادلات؛ تصيـر أكثر خفة من الوبر ولا تعود مخيفـة. هنالـك فرق شـاسع بين روبسـبيير الذي لم يظهر سوى مرة في التاريخ وروبـسبيير الذي يعـود بشكل دائم ليقـطع رؤوس الفرنسيين.

لنقل إذاً أن فكرة العود الأبدي تحدد أفقاً لا تبدو فيه الأشياء كما نعرفها: تظهر لنا من دون الظروف التخفيفية لعرضيتها. هذه الظروف التخفيفية تمنعنا في الحقيقة من إصدار حكم معيّن. هل بالإمكان إدانة ما هو زائل؟ إن غيوم المغيب البرتقالة تضفي على كل شيء ألق الحنين، حتى على المقصلة.

منذ زمن ليس ببعيد فاجأني شعور غير معقول: كنت أتصفح كتاباً عن هتلر فوجدت نفسي مأخوذاً أمام بعض من صوره. ذكرتني بزمن طفولتي التي عشتها خلال الحرب. كثيرون من أفراد عائلتي لاقوا حتفهم في معسكرات اعتقال نازية. ولكن ما أهمية موتهم أمام صورة هتلر التي ذكرتني بزمن غابر من حياتي، بزمن لن يعود؟

إن هذه المصالحة مع هتلر تفضح عمق الشذوذ الأخلاقي الملازم لعالم مبني أساساً على انعدام العَوْد. ذلك أن كل شيء في هذا العالم مغتفر سلفاً وكل شيء مسموح به بوقاحة.

2

لو قُدّر لكل ثانية من حياتنا أن تتكرر مراتٍ لا حصر لها، لكنّا معلّقين على الأبدية مثلما علّق يسوع المسيح على صليبه. هذه الفكرة فظيعة. ففي عالم العَوْد الأبدي، كل حركة تحمل ثقل مسؤولية لا تطاق.. وهذا ما جعل نيتشه يقول: إن فكرة العود الأبدي هي الحمل الأكثر ثقلاً.

إذا كان العَوْد الأبدي هو الحمل الأثقل، يمكن لحيواتنا عندئذ أن تظهر على هذه القماشة الخلفية بكلّ خفّتها الرائعة.

ولكن هل الثقل هو حقاً فظيع؟ وجميلة هي الخفة؟

إن أكثر الأحمال ثقلاً يسحقنا، يلوينا تحت وطأته ويشدنا نحو الأرض. ولكن لو ألقينا مثلاً نظرة على شعر الحب خلال العصور كلّها لرأينا أن المرأة ترغب في أن تتلقى حمل جسد الذَكَر. إذاً، فالحمل الأكثر ثقلاً هو في الوقت ذاته صورة للاكتمال الحيوي في ذروته. فكلما كان الحمل ثقيلاً،

كانت حياتنا أقرب إلى الأرض، وكانت واقعية أكثر وحقيقية أكثر.

وبالمقابل، فإن الكائن الإنساني عند الغياب التام للحمل يصير أكثر خفة من الهواء، محلّقاً بعيداً عن الأرض وعن الكائن الأرضي. يصير شبه واقعي وتصبح حركاته حرّة قدر ما هي تافهة.

إذاً، ماذا علينا أن نختار، الخفة أم الثقل؟

ذاك هو السؤال الذي طرحه بارمينيد على نفسه في القرن السادس ما قبل المسيح. حسب رأيه، العالم منقسم إلى أزواج من أضداد: النور ـ الظلمة؛ السميك ـ الرقيق؛ الحار ـ البارد؛ الكائن ـ اللاكائن. كان يعتبر أن أحد قطبي التناقض إيجابي (المضيء، الحار، الرقيق، الكائن) والقطب الآخر سلبي. قد يبدو لنا هذا الانقسام إلى إيجابي وسلبي في نطاق سهولة صبيانية باستثناء حالة واحدة: أيُّهما هو الإيجابي، الثقل أم الخفة؟

كان بارمينيد يجيب: الخفيف هو الإيجابي والثقيل هو السلبي. هل كان على حق أم لا؟ هذا هو السؤال. وشيء واحد أكيد: النقيضان الثقيل ـ الخفيف هما الأكثر غموضاً والتباساً بين كل المتناقضات.

3

منذ سنوات عديدة وأنا أفكر بتوماس. غير أني رأيته بوضوح للمرة الأولى في ضوء هذه الأفكار. رأيته واقفاً أمام نافذة شقته وعيناه تحدقان بثبات عبر الجهة الأخرى من الفناء، إلى حائط المبنى المقابل. ولم يكن يدري ماذا عليه أن يفعل.

كان قد تعرّف إلى تيريزا منذ ثلاثة أسابيع تقريباً في مدينة صغيرة من بوهيميا، حيث أمضيا ساعة معاً على الأكثر. اصطحبَتْه إلى المحطة وانتظرت معه حتى استقلَّ القطار. بعد عشرة أيام جاءت تزوره في براغ حيث مارسا الحب في اليوم نفسه. وفي الليل أصابتها نوبة من الحمى فأمضت عنده أسبوعاً كاملاً يلازمها الزكام.

عندئذ أحسّ بحب لا يفسّر نحو هذه الفتاة التي كان يجهلها في

الواقع. بدت له مثل طفلة وضعت في سلة مطلية بالقطران وتُركت في النهر ليلتقطها عند ضفة سريره.

مكثت عنده أسبوعاً، تم بعد أن شفيت رجعت إلى المدينة التي تسكن فيها على بعد مئتي كيلومتر من براغ. . هنا تتموضع اللحظة الحاسمة في حياة توماس والتي كنت أحدثكم عنها لتوّي: إنه واقف أمام النافذة وعيناه محدقتان عبر الجهة الأخرى من الفناء، إلى حائط المبنى المقابل ويفكر:

أَفَعَلَيه دعوتها للإقامة في براغ؟ هذه مسؤولية ترعبه. لماذا لا يدعوها الآن إليه فتجيئه في الحال لتقدم له حياتها كلها.

أَوَ هل يجب التخلي عن هذه الفكرة؟ وفي هذه الحالة تبقى تيريزا خادمة في مشرب جعة في حيّ صغير من الريف، وهكذا لا يعود يراها.

هل يريدها أن توافيه أم لا؟

ينظر عبر الفناء، عيناه محدقتان إلى الحائط المقابل ويبحث عن حل.

يرجع أيضاً وأيضاً إلى صورة المرأة المستلقية على سريره، لم تكن تذكره بأحد من حياته السابقة. لم تكن لا عشيقة ولا زوجة. بل كانت طفلاً أخرجه من سلة مطلية بالقطران ووضعه على ضفة سريره. كانت قد غفت. جثا أمامها. كان لهاثها المحموم متسارعاً وسمع تأوهاً خافتاً. ألصق وجهه بوجهها وهمس لها كلمات مؤاسية أثناء نومها. في غضون لحظة بدا له أنها تتنفس بهدوء أكثر وأن وجهها يستدير تلقائياً نحو وجهه. كان يشم رائحة الحمى الحامزة من شفتيها وكان يتنشقها وكأنه يريد أن يمتلىء بحميم جسدها. عندها تصوّر أنها كانت تقيم عنده من سنوات وأنها الآن تحتضر. أحسّ فجأة أنه لا يمكن له أن يعيش بعد موتها. بل سيتمدد قربها ويموت معها. وإذ هزّت كيانه هذه الرؤية، دفن وجهه في الوسادة قرب وجهها وبقي طويلاً على هذه الحال.

الآن، ها هو واقف أمام النافذة يتذكر هذه اللحظة. أكان ذلك غير الحب وقد أراد أن يعلن عن نفسه بهذه الطريقة؟

ولكن هل كان ذلك الحب فعلاً؟ كان متيقناً من أنه كان يرغب في

الموت إلى جوارها، وهذا الشعور كان مغالىً فيه إلى حد بعيد، فهو يراها للمرة الثانية في حياته. أم كان بالأحرى ردة فعل هستيرية لرجل أدرك في أعماقه عدم قدرته على الحب فَراحِ يلعب، لكنْ لنفسه، ملهاة العشق؟ في الوقت ذاته، كان وعيه الباطن مرتخياً إلى درجة أنه اختار لتمثيليته هذه خادمة مقهى ريفية مسكينة لم يكن لها عملياً أي حظ في الدخول إلى حياته!

كان ينظر إلى حيطان الفناء المتسخة من دون أن يفهم إذا كان ما يعانيه جنوناً أم حباً.

كان بإمكان رجل حقيقي في هذه الحالة أن يتصرف على الفور. لذلك كان يأخذ على نفسه هذا التردد وحرمان أجمل لحظة في حياته من كل معنى، (كان جاثياً أمام سرير المرأة الشابة وهو مقتنع بأنه لن يقوى على العيش من بعدها).

كان يوسع نفسه توبيخاً، ولكنه اقتنع في النهاية بأن عدم معرفته لما يريده أمر طبيعي جداً.

لا يمكن للإنسان أبداً أن يدرك ماذا عليه أن يفعل، لأنه لا يملك إلا حياة واحدة، لا يسعه مقارنتها بِحَيوات سابقة ولا إصلاحها في حيوات لاحقة.

أيهما هو الأفضل، العيش مع تيريزا أم البقاء وحيداً؟

لا توجد أية وسيلة لنتحقق أي قرار هو الصحيح، لأنه لا سبيل لأية مقارنة. كل شيء نعيشه دفعة واحدة، مرةً أولى ودون تحضير. مثل ممثل يظهر على الخشبة دون أي تمرين سابق. ولكن ما الذي يمكن أن تساويه الحياة إذا كان التمرين الأول الحياة نفسها؟ هذا ما يجعل الحياة شبيهة دائماً بالخطوط الأولى لعمل فني، ولكن حتى كلمة «خطوط أولى» لا تفي بالغرض. فهي تبقى دائماً مسودة لشيء ما، رسماً أولياً للوحة ما. أما الخطوط الأولى التي هي حياتنا فهي خطوطٌ للاشيء ورسم دون لوحة.

ردّد توماس المثل الألماني القائل: مرة ليست في الحسبان، مرة هي أبداً. ألّا تستطيع العيش إلا حياة واحدة كأنك لم تعش البتة.

4

لكن، في ذات يوم وأثناء استراحة بين جراحتين، أبلغَتْه ممرضة أنه مطلوب على الهاتف. سمع صوت تيريزا عبر السماعة. كانت تخابره من المحطة. سرّ لذلك. لسوء الحظ كان مشغولاً هذا المساء فلم يدعها لزيارته إلا في الغد. ما إن أقفل السماعة حتى ندم لأنه لم يطلب منها أن تأتي في الحال. كان الوقت لا يزال يسمح له بإلغاء موعده. تساءل عمّا ستفعله تيريزا في براغ طول الساعات الست والثلاثين التي تفصلهما عن لقائهما، فرغب في ركوب سيارته والانطلاق بها بحثاً عنها في شوارع المدينة.

وصلت مساء ذلك الغد. كانت تحمل حقيبة ذات حزام طويل. وجدها أكثر أناقة من المرة السابقة. كانت تتأبط كتاباً ضخماً: «آنّا كارينين» لتولستوي. كانت تصرفاتها مرحة وربما صاخبة. وكانت تجهد لتبرهن أن مرورها لم يكن إلا من باب الصدفة وحسب، وبسبب ظروف خاصة: فوجودها في براغ كان لدواعٍ مهنية وربما (كانت مزاعمها غامضة جداً) للبحث عن وظيفة جديدة.

بعدها، وجدا نفسيْهما ممدّدين على السرير جنباً إلى جنب عاريين ومنهكين. كان المساء قد حلّ. سألها عن مكان إقامتها وأراد اصطحابها في السيارة. أجابت بانزعاج بأنها ستفتّش عن فندق وأنها وَدَعَتْ حقيبتها في المحطة.

عشية البارحة ليس إلا، كان يخشى أن تأتي لتمنحه حياتها فيما لو دعاها للمكوث عنده في براغ. الآن عندما سمعها تقول له بأن حقيبتها كانت في المحطة، فكّر أنها وضعت حياتها في هذه الحقيبة وودعَتها في المحطة قبل أن تمنحه إياها.

صعد إلى جانبها في سيارته المتوقفة أمام البناية، ذهب إلى المحطة فأمسك بالحقيبة (كانت ضخمة وثقيلة للغاية) وأتى بها وتيريزا إلى بيته.

كيف حدث أنه قرر بهذه السرعة في حين أنه كان يتردد ما يقارب الخمسة عشر يوماً ولم يرسل لها حتى بطاقة بريدية؟

كان هو نفسه مدهوشاً: كان يتصرف بخلاف مبادئه. ها قد مرت عشر سنوات على طلاقه من زوجته الأولى، وهو يعيش طلاقه في جو من الابتهاج مثلما يحتفل أناس آخرون بزواجهم. كان قد فهم إذ ذاك أنه لم يُخلق ليعيش في كنف امرأة واحدة أياً تكن هذه المرأة، وأنه غير قادر على أن يكون هو نفسه حقاً إلا عازباً. كان يحرص إذاً كل الحرص على تنسيق نظام حياته بشكل لا يمكن معه لأية امرأة أن تأتي لتقيم عنده مع حقيبتها. وفوق ذلك، فهو لا يملك إلا سريراً واحداً. ومع أنه سرير واسع بما فيه الكفاية، فإنه كان يؤكد لشريكاته أنه لا يقَدر على النوم مع أحد على فراش مشترك. كان يُعيدهن جميعهن إلى منازلهن بعد حلول منتصف الليل. من جهة أخرى، حين بقيت تيريزا عنده في المرة الأولى بسبب الزكام، لم ينم إلى جوارها، بل أمضى ليلته الأولى على كنبة كبيرة، ولياليه المتتالية في عيادته في المستشفى على كرسي طويل كان يستعمله أثناء الخدمة الليلية.

لكنه في هذه المرة نام قربها. عندما استيقظ في الصباح وجد أن تيريزا لا تزال نائمة وهي تمسك بيده. هل بقيا ممسكَيْن بأيديهما هكذا طوال الليل؟ كان يصعب عليه تصديق هذا الأمر.

كانت تتنفس بعمق أثناء نومها وتمسك بيده (بقوة، لم يكن قادراً على الإفلات من قبضتها)، وكانت الحقيبة الثقيلة للغاية ملقاة قرب السرير.

لم يكن يجرؤ على سحب يده من قبضتها لئلا يوقظها، فاستدار بحذر على جنبه ليتمكن من مراقبتها بشكل أفضل.

مرة أُخرى قال في نفسه: إن تيريزا طفل وضع في سلة مطلية بالقطران ورُميت في مجرى النهر. هل في إمكان المرء أن يترك سلة في داخلها طفل تنجرف مع مياه النهر الهادرة؟ لو لم تخرج ابنة فرعون سلة موسى الطفل من الماء لَمَا كان العهد القديم ولا كانت معه حضارتنا! في بداية أساطير كثيرة هناك أحد ما ينقذ طفلاً لقيطاً. لو لم يلتقط بوليب أوديب الطفل لما استطاع سوفوكل أن يكتب أجمل مسرحياته التراجيدية.

لم يكن توماس يدرك من قبل أن الاستعارات شيء خطير. لا يمكننا أن نمزح مع الإستعارات. فالحب قد يولد من استعارة واحدة.

5

كان قد عاش سنتين تقريباً مع زوجته وأنجب منها طفلاً. عهد القاضي في حكم الطلاق بالطفل للأم وأجبر توماس على أن يقدم لهما ثلث معاشه. إلى جانب ذلك، كفل له بأنه يستطيع رؤية ابنه مرتين في الشهر.

ولكن كلّما كان يريد رؤية ابنه كانت الأم تُرجيء الموعد. لو أغدق عليهما بهدايا فخمة لكان في وسعه طبعاً أن يراه بطريقة أسهل. أدرك إذاً أنه يُفترض به أن يدفع للأم ثمن حب ابنه وأن يدفع سلفاً. كان يتصور نفسه ملقّناً ابنه أفكاراً متنافية على الأصعدة كافة مع أفكار أمه، وكانت هذه الفكرة بالذات تنهكه. منعته الأم ذات يوم أَحَد من أن يخرج مع ابنه في آخر لحظة، فقرر ألا يعود لرؤيته أبداً.

على كل حال، فما الذي يجبره على التعلق بهذا الطفل دون غيره؟ ولا شيء يربطه به غير ليلة طائشة. كان على استعداد لأن يدفع ما عليه من مال بأمانة ولكن لا يذهب بأحد الأمر لأن يطلب منه، باسم مشاعر أبوية غير محددة، أن يناضل لاكتساب حقه كأب!

من البديهي ألاّ يكون أحد على استعداد للقبول بهذا المنطق. فوالداه بالذات أداناه وأوضحا له بأنه هو توماس، لو رفض الاهتمام بابنه فسيتوقفان هما أيضاً عن الاهتمام بابنهما. لذلك، كانا يستمران في التعاطي مع كنتهما بمودة تفاخرية، متبجحين أمام الأقارب بموقفهما النموذجي وبصواب أحكامهما.

نجح إذاً خلال فترة قصيرة في التخلص من زوجة وابن وأم وأب. ولم يتبقَ له مما مضى إلا الخوف من النساء. كان يرغب فيهن إنما كان يخاف منهن. بين الخوف والحب وجب عليه أن يجد تسوية ما، تسوية سماها «الصداقة الجنسية». كان يؤكد أمام عشيقاته: وحدها العلاقة المجردة من العواطف، حيث لا يمكن لأحد من الشريكين أن يدّعي أن له حقوقاً على حياة الآخر وحريته، يمكنها أن تجلب السعادة للإثنين معاً.

وحتى يتم له اليقين بأن الصداقة الجنسية لا تُخلي المكان أبداً لعدائية

الحب، فإنه لم يكن يرى عشيقاته الدائمات إلا في فترات متباعدة جداً. كان يعتبر أن هذه الطريق هي المثلى، ويفتخر بها أمام أصدقائه: «علينا اعتماد القاعدة الثلاثية. يمكننا أن نرى المرأة نفسها في فترات متقاربة جداً شريطة ألا تزيد على ثلاث مرات. أو يمكننا أن نعاشرها لسنوات طويلة لكن شريطة أن نترك على الأقل مهلة ثلاثة أسابيع بين اللقاء والآخر»،

كان هذا النظام يمنح توماس إمكانية ألا يقطع علاقاته بعشيقاته الدائمات وأن يكون له في الوقت نفسه عشيقات عابرات. لم يكن أحد يفهمه. كانت سابينا وحدها من بين جميع صديقاته هي التي تفهمه. كانت رسامة. كانت تقول: أحبك كثيراً لأنك بخلاف «الكيتش» تماماً. لا يمكنك أن تكون في أي سيناريو لفيلم أميركي أو لفيلم روسي غير حالة مثيرة للقرف.

والحالة هذه طلب من سابينا أن تساعده في إيجاد عملٍ لتيريزا. وحسَبَ ما تُلزم القواعد غير المكتوبة للصداقة الجنسية، وعدته بأن تبذل جهدها. وفعلاً لم تتأخر في إيجاد وظيفة لها في مختبر للصور في إحدى المجلات الأسبوعية. لم تكن هذه الوظيفة تتطلب كفاءة معينة، ولكنها تمكنت من رفع تيريزا من منزلة الساقية في حانة إلى منزلة موظفة في الصحافة. قدّمتها سابينا بنفسها إلى مكتب التحرير، ففكر توماس حينئذ أنه لم يجد في حياته صديقة أفضل منها.

6

كانت شرعة الصداقة الجنسية، غير المكتوبة، تستدعي إلغاء الحب من حياة توماس. فلو أنه خرق هذا الشرط لوجدت عشيقاته الأخريات أنفسهن في وضع دوني ولَثُرْن لذلك.

فقد دبّر إذن لتيريزا شقةً صغيرة مستأجرة استئجاراً تباعياً حيث نقلت إلى هناك حقيبتها الثقيلة. كان راغباً في السهر عليها وفي حمايتها وفي الاغتباط بحضورها. لكنه لم يكن يشعر بحاجة تستدعيه لتغيير نمط حياته، ولم يكن يريد، إلى ذلك، أن يعرف أحد أنها تنام عنده. فالنوم المشترك هو جسم الجريمة للحب.

لم يكن ينام قط مع النساء الأخريات. كان الأمر سهلاً حين يذهب لرؤيتهن في بيوتهن فباستطاعته الذهاب والحالة هذه ساعة يشاء. ولكن الأمر كان أكثر مشقة حين يأتين إلى عنده فيجد نفسه مضطراً لأن يشرح لهن بأنه سيرجعهن إلى بيوتهن بعد حلول منتصف الليل. والسبب أنه يعاني من الأرق ولا يمكنه أن يغفو وأحد ما في جواره. لم تكن هذه الحجة منافية للحقيقة، ولكن السبب الجوهري كان أسوأ من ذلك، ولم يكن يجرؤ على الاعتراف به لشريكاته: في اللحظة التي تلي الجنس، كان يشعر برغبة جامحة في البقاء وحيداً. كانت تنفره فكرة أن يستيقظ في وقت متأخر من الليل ويجد نفسه بالقرب من كائن غريب. كان يمقت النهوض الزوجي عند الصباح ولا يرغب في أن يسمعه أحد وهو يغسل أسنانه في الحمام، ثمّ وأن إلفة الإفطار المزدوج لم تكن تستهويه.

من أجل ذلك فوجىء للغاية عندما استيقظ ووجد أن تيريزا تشد على يده بقوة! كان ينظر إليها غير مستوعب تماماً ما الذي حدث. فاستعاد الساعات التي مرّت وأحس أنه يتنشق منها عطر سعادة غريبة.

منذ ذلك الحين وكلاهما يغتبط مسبقاً بالنوم سوية. وأميل تقريباً للقول بأن الهدف من الجماع بالنسبة لهما لم يكن النشوة بل النعاس الذي يعقبها. وهي، خاصة، لم تكن تستطيع أن تنام من دونه. لو صدف وبقيت وحيدة في شقتها الصغيرة (التي لم تعد إلا مجرد خدعة) كانت غير قادرة على إغماض جفن طيلة الليل. أما بين ذراعيه فكانت تغفو دائماً مهما تكن درجة اضطرابها. كان يروي من أجلها بصوت خافت قصصاً يبتدعها أو ترّهاتٍ وكلمات مضحكة يعيدها بلهجة رتيبة. كانت هذه الكلمات تتحول في مخيّلتها إلى رؤى مشوّشة تأخذ بيدها إلى الحلم الأول. كان يملك تأثيراً خارقاً على إغفائها وكانت تغفو في الدقيقة التي يقرر هو أن ينتقيها.

كانت تمسكه أثناء النوم كما فعلت في أول ليلة: تشد بقوة على معصمه أو على إصبع من أصابعه أو على عرقوبه، وكان عليه أن يستعين بحيلة ما كي يفلت منها دون أن يوقظها. فيسحب إصبعه (معصمه أو عرقوبه) من قبضتها، مما كان يجعلها تستيقظ قليلاً، ذلك أنها كانت تراقبه بانتباه حتى

أثناء نومه. كان يدس في يدها مكان معصمه شيئاً ما ليهدّىء من روعها (بيجاما ملفوفة أو خفّاً أو كتاباً) فتضغط عليه في الحال وبقوّة كأنه قطعة من جسده.

ذات يوم كان يحاول إغفاءها وكانت هي لا تزال في المدخل الأول للنوم وتقدر على أن تردّ على أسئلته. قال لها: ـ «حسناً، إنّي ذاهب الآن. ـ سألته: «إلى أين؟». فقال لها بلهجة حازمة ـ: «إنّي خارج». ـ قالت: «سأذهب معك» فانتصبت في سريرها. ـ قال: «لا، لا أريد. إني ذاهب للأبد». ثم خرج من الغرفة إلى المدخل. فنهضت وتبعته إلى المدخل وهي ترفرف بعينيها. كانت عارية تحت قميص قصيرة، وكان وجهها جامداً من دون تعابير ولكن حركاتها نشيطة. خرج من المدخل إلى الرواق (الرواق المشترك للمستأجرين) وأغلق الباب في وجهها. ففتحت الباب بحركة عنيفة وتبعته مقتنعة وهي عند حدود النوم أنه ينوي الذهاب إلى الأبد وأن عليها أن تستبقيه. نزل طابقاً ثم توقّف عند قرص الدرج وانتظرها. فلحقت به وأمسكته من يده وأعادته قربها إلى السرير.

فكّر توماس: إن مضاجعة امرأة والنوم معها رغبتان ليستا مختلفتين فحسب بل متناقضتان أيضاً. فالحب لا يتجلى بالرغبة في ممارسة الجنس (وهذه الرغبة تنطبق على جملة لا تحصى من النساء) ولكن بالرغبة في النوم المشترك (وهذه الرغبة لا تخصّ إلا امرأة واحدة).

7

عند منتصف الليل، أخذت تيريزا تنتحب أثناء نومها. فأيقظها توماس ولكنها حين رأت وجهه قالت بحقد: «أغرب من وجهي! أغرب من وجهي!». ثم روت له ما رأته في المنام: كانا في مكان ما وبرفقتهما سابينا، في غرفة شاسعة. كان هناك سرير في وسط الغرفة وكأنما وسط حلبة مسرح. أمرها توماس بالبقاء في الزاوية وضاجع سابينا على مرأى منها. كانت تنظر إلى هذا المشهد فيسبب لها عذاباً هائلاً. ثم أخذت تغرز إبراً تحت أظافرها مطفئة ألم

النفس بألم الجسد. «كان هذا يؤلمني بشكل فظيع»، قالت وشدت على قبضتيها كما لو أن يديها كانتا فعلاً مثخنتين بالجراح.

ضمّها بين ذراعيه (كانت ترتجف دون توقف) فغفت شيئاً فشيئاً وهي تعانقه.

وإذ فكر صباح الغد في هذا الحلم تذكر شيئاً. فتح درج مكتبه وأخرج حزمة رسائل من سابينا. عثر على المقطع التالي بلحظة: «أرغب في أن أضاجعك داخل مُحترفي وكأننا على حلبة مسرح. سيكون هناك أناس حوالينا ولن يكون لهم الحق في الاقتراب. ولكن لن يتمكنوا من إشاحة بصرهم عنا...».

والأسوأ في الأمر أن هذه الرسالة كانت مرفقة بالتاريخ. كانت رسالة حديثة العهد مكتوبة بعد انقضاء وقت طويل على وجود تيريزا عند توماس.

استشاط غضباً: «فتشْتِ في رسائلي!».

قالت من دون أن تحاول الإنكار: «حسناً، بإمكانك طردي!».

لكنه لم يطردها. كان يراها هناك، تلتصق بحائط محترف سابينا وهي تغرز إبراً تحت أظافرها. فضمّ أصابعها في يديه وداعبها ثم حملها إلى شفتيه وقبّلها وكأن آثاراً من دم فضُلَتْ هناك.

ولكن ابتداء من هذه اللحظة بدا وكأن كل شيء يتآمر ضده. فلم يكن يوم ليمر إلا وتعرف فيه شيئاً جديداً عن مغامراته السرية.

في بادىء الأمر كان ينفي كل شيء، ولكن حين تكون الأدلة صارخة، كان يحاول أن يثبت أن لا تناقض بين حياته كرجل مرتبط بعدة نساء وبين حبه لتيريزا! لم يكن منطقياً في ما يقول. فتارة كان ينفي خياناته، ويبررها تارة أخرى.

كان يتصل ذات يوم بصديقة له ليتّفق معها على موعد. حين أقفل الخط سمع ضجة غريبة في الغرفة المجاورة، ضجة تشبه اصطكاك الأسنان.

كانت قد جاءت إليه صدفة على غير علم منه. وكانت تمسك في يدها

زجاجة مهدّىء وتشرب من عنقها فترتجف يدها ويرتطم زجاج القنينة بأسنانها.

هبَّ لنجدتها كمن يريد تخليصها من الغرق. سقطت قنينة الناردين وأحدثت بقعة كبيرة على السجادة. كانت تتخبط بين ذراعيه محاولة الإفلات منه فظلَّ ممسكاً بها هكذا لمدة ربع ساعة، إلى أن هدأت.

كان يدرك أن حالته متعذر تبريرها لأنها مبنية أصلاً على لا مساواة تامة:

كانا قد ذهبا معاً، قبلَ اكتشافها لمراسلاته مع سابينا بوقت طويل، إلى ملهى برفقة بعض الأصحاب احتفالاً بتسلم تيريزا وظيفتها الجديدة. كانت قد تركت مختبر الصور لتصبح مصوِّرة في المجلة. وكما أنه لا يهوى الرقص، تولّى إذاً أحد زملائه الجدد في المستشفى أمر تيريزا، كانا ينزلقان بخفة رائعة على حلبة الرقص، وبدت له تيريزا أجمل من أي وقت مضى. كان مذهولاً عندما رآها تستبق رغبة مراقصها بدقة وانصياع وبأقلّ من ثانية بدت له هذه الرقصة وكأنها تؤكد أن إخلاص تيريزا ورغبتها الجارفة في أن تنفذ ما يجول في خاطر توماس ليسا مرتبطين بالضرورة بشخص توماس، إنما هما على أهبة للتجاوب مع نداء أي رجل تصادفه. لم يكن أسهل عليه من تصور تيريزا وهذا الزميل الشاب في وضع عاشقين. كانت هذه السهولة بالذات التي كان يستطيع معها أن يتصورهما في مثل هذا الوضع، تجرحه! كان جسد تيريزا قابلاً تماماً لأن يتصوره مستغرقاً في عناق عاطفي مع أي جسد ذكر كان، هذه الفكرة عكّرت مزاجه. عندما رجعا في وقت متأخر من الليل، اعترف لها بأنه كان غَيران.

كانت هذه الغيرة غير المبررة والمنبثقة من تصور نظري بحْت، برهاناً على أنه يعتبر وفاءها له شرطاً واجباً. ولكن، والحالة هذه، كيف بإمكانه إذاً أن يستاء منها حين تغار من عشيقاته الموجودات فعلاً؟

8

أثناء النهار، كانت تيريزا تحاول جاهدة (لكن دون أن تتمكن فعلاً) لأن تصدق ما يقوله توماس وأن تكون سعيدة كما فعلت حتى الآن. غير أن الغيرة المكبوتة في النهار كانت تظهر بشكل أكثر عنفاً في أحلامها التي تنتهي دائماً بنحيب لا ينقطع إلا حين يوقظها توماس.

كانت أحلامها تتكرر على شكل حلقات متنوعة أو مسلسلٍ تلفزيوني. ثمة حلم كان يتكرر باستمرار على سبيل المثال، وهو حلم الهررة التي تقفز إلى وجهها مُنشبة مخالبها في جلدها. في الحقيقة يمكن تفسير هذا الحلم بسهولة: الهرة في اللغة التشيكية كلمة عامية تعني فتاةً جميلة. كانت تيريزا إذاً تشعر أنها مهددة من النساء، كل النساء. فالنساء كلُّهن عشيقات محتملات لتوماس ولهذا فهي تخاف منهن.

كان يتم إرسالها، ضمن إطار سلسلة أخرى من الأحلام إلى الموت. أيقظها ذات ليلة وهي تزعق من الذعر فروت له هذا الحلم: كانت هناك بركة سباحة كبيرة مسقوفة. كنا نحو العشرين من النساء فقط. كنا جميعاً عاريات وكان علينا أن نسير الواحدة تلو الأخرى حول البركة. كانت هناك سلة كبيرة تتدلى من السقف وفي داخلها رجل يرتدي قبعة كبيرة الأطراف تخفي وجهه، لكني كنت عارفة أنه أنت. كنتَ تعطينا الأوامر وتصرخ، وكان علينا أن نغني، ونحن نسير، ونثني ركابنا، وحين تنسى امرأة أن تثني ركبتيها، كنتَ تطلق عليها الرصاص من مسدس فتسقط قتيلة داخل البركة، فتأخذ الأخريات في الضحك ثم في الغناء بقوة أكبر. أما أنت فلم تكن تفارقنا لحظة واحدة، ما إن تخطىء واحدة حتى تُرديها قتيلة. كانت البركة ملآنة بالجثث العائمة على وجه الماء. وأنا كنت أعرف أنني لن أقدر على تنفيذ انثناءتي المقبلة وأنك ستقتلني.

أما السلسلة الثالثة من أحلامها فكانت تروي ما الذي يحدث لها بعد موتها.

كانت ترقد في عربة كبيرة للموتى شبيهة بشاحنة نقل انتشرت حولها

جثث نساء لا عدّ لها بحيث أن الباب الخلفي بقي مفتوحاً وتدلّت منه السيقان.

كانت تيريزا تزعق: «أنظروا! لست ميتة، ما زلت أحتفظ بحواسي كافةً!

ـ نحن أيضاً لا نزال نحتفظ بحواسنا كلّها ، قالت الجثث هازئة.

كانت ضحكتهن تشبه تماماً ضحكة أولئك النساء اللواتي لا يزلن على قيد الحياة، اللواتي كن يقلن لها فيما مضى وبمتعة إن أسنانها ستفسد وإن مبيضَيْها سيُصيبهما المرض وإن التجاعيد ستغزوها. وهذا طبيعي جداً، لأن أسنانهن، هن، قد فسدت ومبيضهن أصابه المرض وقد غزتهن التجاعيد. وها هن يشرحن لها الآن، وهن يضحكن الضحكة ذاتها، أنها ميتة وأن كل شيء منتظم.

فجأة شعرت برغبة في التبويل فصرخت: «لكن بما أني أشعر برغبة في التبويل فهاكن الدليل على أنني لسْتُ ميّتة!».

ومن جديد ضحكن ملء أشداقهن: «هذا أيضاً طبيعي أن تشعري برغبة في التبويل، فحواسك ستبقى كما عهدْتها لوقت طويل، كمثل الأشخاص الذين بترت لهم أيديهم فيما ينتابهم الشعور بوجودها لوقت طويل. نحن أيضاً لم يعد لدينا بول ونشعر مع ذلك برغبة دائمة في التبويل.

التصقت تيريزا بتوماس بقوة في السرير وهي تقول: «كن جميعهن يخاطبنني دون رفع الكلفة وكأنهن يعرفنني منذ الأزل، كأنهن كن صديقاتي. أما أنا فكنت خائفة من أن أُجبر على البقاء معهن إلى الأبد».

9

جميع اللغات المتحدرة من أصل لاتيني تصوغ كلمة «كومباسيون» أي الشفقة انطلاقاً من أداة التصدير «كوم» مع إضافة الجذر «باسيو» الذي يعني في الأصل «عذاب». تترجم هذه الكلمة في اللغات الأخرى، في التشيكية مثلاً أو البولونية أو الألمانية أو السويدية، إلى كلمة مؤلفة من أداة تصدير

مماثلة ومتبوعة بكلمة «شعور». (إلى سو ـ سيت في التشيكية؛ Wspolczucie في البولونية، ميت ـ غفول، في الألمانية؛ ميد ـ كانسَلاَ في السويدية).

كلمة شفقة تعني في اللغات المتحدرة من أصل لاتيني أننا لا نستطيع أن نشاهد عذاب الآخر بقلب بارد. وبكلمة أخرى: نشعر بالتعاطف مع من يتعذب. هناك كلمة أخرى لها المعنى نفسه تقريباً وهي الرأفة (في الإنكليزية «بيتي» وفي الإيطالية «بيتيا»، إلخ). وهي توحي أيضاً بنوع من التسامح مع الكائن الذي يتألم. أن نشعر بالرأفة تجاه امرأة فهذا يعني أن نكون أوفر حظاً منها، وأن ننحني نزولاً حتى مستواها.

من هنا فإن كلمة شفقة توحي عموماً بالارتياب، وهي تُعنى بشعور يُعتبر أقل منزلة ولا علاقة له بالحب إطلاقاً. أن نحب أحداً شفقة به فهذا يعني أننا لا نحبّه حقاً.

في إطار اللغات التي تصوغ كلمة شفقة، ليس عن طريق إضافة الجذر «عذاب، ولكن بإضافة كلمة «سنتيمان» أي شعور، تستعمل الكلمة في المعنى نفسه تقريباً. لكن يصعب القول إن كانت تحدد شعوراً سيئاً أو وضيعاً. فالقوة الخفية الكامنة في اشتقاق هذه الكلمة تضفي عليها ضوءاً آخر وتضمنها معنى أغنى: أن نشعر بالشفقة («كو ـ سنتيهان») فمعنى ذلك أن نتمكن من مشاطرة الآخر تعاسته. إنما معنى ذلك أيضاً أن نشاطره مطلق شعور آخر: الفرح أو القلق أو السعادة أو الألم. هذه الشفقة بالذات (بمعنى سوسيت و Wspolczucie وميت ـ غفول وميد ـ كانسَلا) تعني إذاً القدرة القصوى على التخيل العاطفي وفن التخاطر بين الانفعالات. وهذا الشعور هو الأسمى في سلم المشاعر.

عندما حلمت تيريزا في نومها بأنها تغرز إبراً تحت أصابعها فضحت نفسها وكشفت بذلك لتوماس أنها كانت تفتش في أدراجه سراً. لو أن امرأة أخرى تصرفت كذلك لكان توماس امتنع نهائياً عن التعاطي معها. وبما أن تيريزا كانت واعية لهذا الأمر، قالت له: «اطردني». ولكن توماس لم يمتنع عن طردها فحسب، بل أمسك يدها وقبّل رؤوس أصابعها. لأنه في هذه اللحظة كان يعاني هو أيضاً من الألم الذي ينتابها تحت أظافرها، كأن

أعصاب أصابع تيريزا متصلة مباشرة بدماغه هو.

من لا يملك الأعطية الشيطانية للشفقة (أي مشاطرة الشعور) سيُدين تصرف تيريزا ببرودة، لأن حياة الآخر الخاصة شيء مقدس، ولأنه يجب ألا نفتح الأدراج حيث يحتفظ برسائله الشخصية. ولكن، وبما أن الرأفة أمست قدر توماس (أو لعنة حياته)، خُيّل إليه إذاً أنه هو نفسه جثا أمام درج مكتبه المفتوح، غير قادر على إشاحة بصره عن الجمل المكتوبة بيد سابينا. كان يفهم شعور سابينا وهو غير قادر على الحقد عليها فحسب، بل كان حبه لها يزداد أكثر فأكثر.

10

كانت تصرفات تيريزا تزداد فظاظة وتشوشاً. ها سنتان قد مرّتا على اكتشافها خياناته، وكل شيء يسير من سي، إلى أسوأ. كأن ذلك دون خلاص.

كيف ذلك! ألا يمكنه أن يحسم أمره مع صداقاته الجنسية؟ لا فهذا الأمر قد يفتته. . لم تكن لديه القدرة ليتحكم بشهيته للنساء الأخريات. وحتى لو حصل هذا الأمر فماذا سينفع. لا أحد مثله يعرف أن مغامراته لا تشكل أي خطر على تيريزا. فلماذا الإقلاع عنها إذاً؟ كان هذا الافتراض يبدو له سخيفاً قدر ما هو سخيف الإقلاع عن الذهاب لحضور مباراة في كرة القدم.

ولكن هل لا يزال في المستطاع الحديثُ عن المتعة؟ كان ما أن يذهب لموافاة إحدى عشيقاته حتى يشعر بالعدائية حيالها مقسماً على أنها المرة الأخيرة التي سيراها فيها. كان يرى صورة تيريزا ماثلة أمام عينيه، وكان عليه أن يسكر على عجلة كي لا يعود للتفكير فيها. فمنذ أن عرفها وهو غير قادر على مضاجعة النساء الأخريات من دون اللجوء إلى الكحول! ولكن لهاثه الذي تفوح منه رائحة الكحول كان بمثابة دليل بسيط يفسح المجال أمام تيريزا لتكتشف خياناته بسهولة أكبر.

ها قد انغلق الفخ عليه: ما أن يذهب لموافاتهن حتى لا يعود يشعر بالرغبة فيهن. ولكن ما أن يمر عليه يوم واحد دونهن، حتى يختلق رقم هاتف ليحدّد موعداً مع إحداهن.

كان يشعر أنه أحسن ما يكون عند سابينا. فهو يعرف أنها كتومة، وعندما يكون معها عليه ألا يخشى من افتضاح أمره. كانت ذكرى حياته النموذجية كرجل عازب تطفو أمامه في المحترف مثل ذكرى غابرة من حياته.

ربما لم يكن يدرك هو نفسه إلى أي حد قد تغير: كان يخاف أن يرجع متأخراً إلى البيت لأن تيريزا في انتظاره. لاحظت سابينا ذات مرة أنه كان ينظر إلى ساعته خلال المضاجعة، وأنه كان يسعى إلى تسريع النهاية.

ثم أخذت تجول المحترف عارية وبمشية متكسرة. ثم توقفت أمام لوحة غير مكتملة موضوعة على الحمالة، وأخذت تسترق النظر إلى توماس الذي كان يرتدي ثيابه على عجل.

ارتدى ثيابه وظلّت إحدى قدميه عارية. فنظر حواليه ثم زحف وأخذ يفتّش عن شيء ما تحت الطاولة.

قالت: «حين أنظر إليك، أشعر أنك موشك على التماثل مع موضوع لوحاتي الأبدي: التقاء عالمين في عرض مزدوج. فمن خلف هيئة توماس الإباحي وجه لا يصدق للعاشق الرومانسي. أو على العكس: من خلال صورة تريستان الذي لا يفكر إلا بتيريزا يلوح العالم الجميل المعذور للإباحي».

انتصب توماس وسمع بأذن شاردة كلمات سابينا:

«سألته: عمَّ تفتّش؟

ــ عن جوربي.

فتشتْ معه في الغرفة ثم زحفتْ وأخذت تبحث تحت الطاولة:

ــ قالت سابينا: لا يوجد جورب هنا.. من المؤكد أنك نسيت أن ترتديه قبل مجيئك.

ـ كيف لم أرتدِه! زعق توماس وهو ينظر إلى ساعته. فلم آتِ بجورب واحدٍ طبعاً.

ـ ليس هذا بأمر مستبعد. أنت ساهم للغاية منذ فترة. مستعجل دائماً وتنظر إلى ساعتك. ليس بالمستغرب إذاً أن تكون قد نسيت ارتداء جوربك».

عندها قرر أن يرتدي حذاءه حتى بقدمٍ عارية.

«الجوّ بارد في الخارج، قالت سابينا. سأعيرك جورباً».

وناولَتْه جورباً أبيض طويلاً مشبّكاً على آخر الموضة.

كان يعرف جيداً أن هذه طريقة للانتقام. لقد قامت بإخفاء جوربه لتعاقبه على أنه نظر إلى ساعته خلال الجماع. ولكن مع هذا البرد في الخارج لم يتبقّ له إلا الخضوع. رجع إلى البيت وهو يرتدي جوربه في قدم، وفي القدم الأخرى جورباً نسائياً أبيض ملفوفاً عند عرقوبه.

كان واقعاً في ورطة لا خلاص منها: ذلك أنه كان موسوماً في نظر عشيقاته بالوصمة الشائنة لحبه لتيريزا، وموسوماً في نظر تيريزا بالوصمة الشائنة لمغامراته مع عشيقاته.

11

تزوجها ليخفف من عذابها، (صار في إمكانهما أخيراً أن يلغيا عقد الإيجار التبعي، فهي لم تسكن في الشقة الصغيرة منذ فترة بعيدة) واقتنى لها جرو كلب صغيراً.

كانت الأم سنبرنارا تخص زميلاً لتوماس، والأب عسبور أحد الجيران. لم يعد أحد منهما راغباً في تربية هجناء صغار، وكان زميله تعذبه فكرة قتلها.

توجب على توماس إذاً اقتناء أحد الجراء عارفاً أن الجراء التي لا يقتنيها ستموت. كان يشعر بأنه مثل رئيس جمهورية يقف أمامه أربعة

محكومين بالإعدام، وهو لا يمكنه أن يعفو إلا عن واحد. وفي النهاية اختار أحد الجراء وكان أنثى يشبه جسدها جسد أبيها العسبور ورأسها يذكّر بأمها السنبرنار. أخذها إلى تيريزا فحملت التوتو وضمته إلى صدرها فبال الحيوان فوراً على قميصها.

وجب عليهما بعد ذلك إيجاد اسم للكلبة. كان توماس يرغب في اسم يعرف الآخرون من خلاله بأن هذه الكلبة تخص تيريزا دون غيرها. فتذكر عندئذ الكتاب الذي كانت تتأبطه حين جاءت إلى براغ دون أن تعلمه. واقترح بأن تسمى الكلبة «تولستوي».

لكن تيريزا احتجت:

ـ «لا يمكنك أن تدعوها تولستوي فهي أُنثى. فَلْنَدعُهَا بالأحرى آنا كارينين».

ـ ليس في الإمكان تسميتها آنا كارينين، لأن لا وجود لامرأة تملك مثل هذا الفم الضحوك، قال توماس. فلنسمِّها كارينين بالأحرى، أجل كارينين، هذا ما كنت أتصوره تماماً.

ـ لكن ألا تخلُّ تسميتها كارينين بحياتها الجنسية؟

ـ محتمل، قال توماس. أن تصير الكلبة ذات ميول سحاقية إذا ناداها أصحابها باسم كلب.

والأغرب في الأمر أن تكهن توماس كان في محله. تتعلق الكلبات عادة بصاحبها أكثر مما تتعلق بسيدتها. ولكن حالة كارينين كانت بخلاف ذلك. قررت أن تتعلق بتيريزا وكان توماس ممتناً لها. . كان يداعب رأسها وهو يقول: «أنتِ على حق يا كارينين. هذا بالضبط ما كنت أنتظره منك. بما أنني لن أتوصل إلى ذلك بمفردي وجب عليك أن تساعديني».

ولكنه لم يكن يتوصل إلى إسعاد تيريزا حتى بمعونة كارينين. أدرك ذلك بعد مرور عشرة أيام على احتلال الدبابات الروسية لبلاده. كان ذلك في آب أغسطس ١٩٦٨ وكان يتصل بتوماس يومياً مدير مستوصف خاص في

زوريخ كان تعرّف إليه خلال مؤتمر عالمي. كان خائفاً على مصير توماس فعرض عليه الذهاب لتولّي منصب هناك.

12

إذا كان توماس قد رفض من غير تردد عرض الطبيب السويسري فهذا بسبب تيريزا.. كان يعتقد أنها لا ترغب في الذهاب إلى هناك. من جهة أخرى، أمضت تيريزا الأيامَ السبعة الأولى من الاحتلال في حالة من الرعدة أشبه بالسعادة. كانت تجول الشوارع وفي يدها آلة التصوير. كانت توزع أفلامها على الصحافيين الأجانب الذين يتقاتلون للحصول عليها.. وذات يوم أظهرت جسارة فائقة والتقطت عن قرب صورة لضابط روسي وهو يشهر مسدسه في وجه المتظاهرين. فأُلقي القبض عليها وأمضت ليلة في الحيّ الروسي العام. ومع أنهم هددوها بالقتل عادت لتلتقط الصور في الشوارع ما إن أطلقوا سراحها.

لكن كم كانت دهشة توماس كبيرة عندما قالت له إبّان اليوم العاشر للاحتلال:

ــ «أحقاً لا تريد الذهاب إلى سويسرا؟

ــ ولماذا أذهب؟

ــ هنا يريدون محاسبتك».

فاستدرك توماس بلهجة مستسلمة:

ــ «ومن لا يريدون محاسبته. ولكن قولي لي: هل أنت قادرة على العيش في الخارج؟

ــ وما الذي يمنع؟

ــ بعدما رأيتك مستعدة للتضحية بحياتك من أجل بلادك، أتساءل الآن كيف بإمكانك أن تغادريها؟

ــ «مذ رجع دوبتشك وكل شيء تغيّر». قالت تيريزا.

كان هذا صحيحاً: المرح العـام لم يدم إلا فتـرة الأيام السبعـة الأولى للاحتلال. . ذلـك أن الجيش الروسي اقتـاد رجال الـدولة التشيكيين وكـأنهم مجـرمون. لا أحـد كـان يعـرف أين مكـانهم، وكـان الجميـع خـائفين على مصيـرهم، وكان الحقـد على الروس يُسكـر مثل الكحـول. كانت تلك أيـام العيد المسكر للكراهية. كانت تغطي مدن بوهيميا آلاف الملصقات المرسومة باليد والمرفقة بكتابات تهكمية، وقصائـد الهجاء ورسـوم كاريكـاتوريـة تصور بريجنيف وجيشه الـذي كان الجميـع يهزأون منـه كمن يهزأ من فـرقة مهرّجين جهـلاء. ولكن لا يمكن لعيد أن يستمـر إلى الأبد. فخـلال هذا الـوقت كان الروس قد أرغموا رجال الدولة التشيكيين المخـطوفين على توقيـع تسويـة في موسكو. ثم رجع دوبتشك مع هذه التسوية إلى براغ وقرأ خطابه عبر الراديـو. كانت أيام الاحتجاز الستة قد أضعفته إلى درجة لم يعد يستـطيع معهـا الكلام إلا بصعـوبة. كـان يتأتىء ويستعيـد أنفاسـه عنـد منتصفِ كـل جملة مسجّـلاً وقفات لا تنتهي تستغرق ما يقارب نصف الدقيقة.

أنقذت التسوية البلاد مما هو أسـوأ: الإعدامـات، والنفي بالجملة إلى سيبيريا الذي كان يخيف الجميع. ولكن شيئاً واحداً بدا واضحاً من ساعتـه: كـان على بوهيميـا أن تنحني أمام الغـازي وأن تتأتىء إلى الأبـد وأن تستعيـد أنفاسها كما فعل ألكسندر دوبتشك. فالعيد انتهى وتمَّ الدخول في دائرة الذل اليومي.

كانت تيريزا تشرح هذا كله لتومـاس وكان يعلم أن مـا تقولـه صحيح. لكن خلف هذه الحقيقة يختبىء سبب آخـر أكثر أهميـة وهو مـا يجعل تيـريزا راغبة في ترك براغ: أضحت حياتها هنا تعيسة.

عاشت أجمل أيام حياتها وهي تلتقط صوراً للجنـود الروس في شـوارع بـراغ، معـرّضـة نفسهـا للخـطر. خـلال تلك الأيـام فقط انقـطع المسلسـل التلفزيوني لأحلامها وصارت لياليها ناعمة البال. فقد حمل الرسول لها الصفاء مع دبّاباتهم. أما الآن وقد انتهى العيد، عادت تخاف من ليـاليها وتـرغب في الانسحاب من أمامها. فبعد أن اكتشفت أنها تستطيـع ضمن ظروف معينـة أن تشعر أنها أكثر قوة ورضى عن ذاتهـا، رغبت في السفر علّهـا تحظى بـظروف مماثلة هناك.

ـ «ألا يزعجك أن تكون سابينا هاجرت إلى سويسرا؟». سأل توماس.

قالت تيريـزا: جنيف ليست زوريخ. هنـاك ستـزعجني أقـلّ مما كـانت تزعجني في براغ، أنا متأكدة.

ليس سعيداً من يرغب في ترك المكان الـذي عاش فيـه. امتثل تـوماس لرغبة تيريزا هذه في الهجرة كما يمتثل متّهم لحكم المحكمة. فخضع لـلأمر وألفى نفسه فيما بعد بصحبة تيريزا وكارينين في أكبر مدينة من مدن سويسرا.

13

ابتاع تومـاس سريـراً ليتمكن من الإقامـة في منزل جـديد فـارغ (إذ لـم يكن في حوزتهما مال لشراء أثاث آخر) وأكبَّ على العمل بهمَّة رجل مسعور يبدأ حياة جديدة وهو في سن الأربعين.

اتصل مرات عـديدة بسـابينا في جنيف. . من حسن حـظّها أنهـا كانت تفتتح معرضاً هناك قبل ثمانية أيام من الاجتياح الروسي، فاشترى هواة الرسم السويسريون جميع لوحاتها بدافع من التعاطف مع بلادها الصغيرة.

«أصبحت ثـرية بفضـل الروس!». قـالت وهي تقهقه عبـر الهاتف. ثم دعت توماس لزيارة محتـرفها الجـديد مؤكـدة له أنـه لا يختلف في شيء عن محترفها في براغ.

كـان راغباً بكـل طيبة خـاطر في الـذهاب لـرؤيتها ولكنـه لم يكن يجد ذريعة ليبرر سفره أمام تيريزا. مما دفع بسابينا للمجيء إلى زوريخ. نزلت في أحد الفنادق. ذهب توماس لرؤيتها بعـد انتهائـه من عمله وأنبأهـا بقدومـه من مكتب الاستعلامات ثم صعد إلى غرفتها. فتحت له الباب ثم انتصبت أمامـه على سـاقيها الجميلتين الـرشيقتين وهي متعريـة في سليب وصدريـة. كـانت تضع على رأسها قبعـة وتمعن النظر إلى تـوماس من دون أن تتحـرك أو تنبس بكلمـة. وبقي تومـاس هو أيضـاً جامـداً وصامتـاً. ثم أحسّ أنه كـان منفعـلاً للغاية. فنزع القبعة عن رأسها ووضعها على طاولة السرير ثم تضاجعا دون أن ينبسا بكلمة.

عندما قفل عائداً من الفندق إلى منزله في زوريخ، (المؤثث منذ فترة طويلة بطاولة وكراسٍ وكنبيات وسجادة) فكّر وهو مغتبط بأنه يحمل معه نمط حياته كما تحمل الحلزونة بيتها. كانت تيريزا وسابينا تؤلفان قطبي حياته، قطبين متباعدين ومتناقضين، ومع ذلك، جميلين.

وبما أنه كان يحمل معه نمط حياته إلى كل مكان كشيء زائدٍ في جسده، كانت تيريزا تستمر في رؤية الأحلام نفسها.

بعد أن مرّت على وجودهما في براغ ستة أو سبعة أشهر، وجد عند عودته متأخراً ذات مساء، رسالة على الطاولة. كانت تخبره فيها أنها رجعت إلى براغ، وأنها رحلت لأنها لم تعد تقوى على العيش في الخارج.. كانت تعي جيداً أنه يُفترض بها أن تكون سنداً لتوماس لكنها تعي أيضاً أنها غير قادرة على ذلك. كانت تظن لسذاجتها أن الحياة في الخارج سوف تغيرها. إذ خُيّل إليها أنها لن تعود خسيسة بعدما عايشت أيام الاجتياح، بل سوف تصبح من الآن فصاعداً ناضجة ومتعقلة وشجاعة. إلا أنها بالغت في تقدير نفسها. فاكتشفت لاحقاً أنها بمثابة عبء عليه وهذا بالضبط ما لم تكن ترغب فيه. فأرادت استدراك النتائج قبل فوات الأوان. وليسامحها أيضاً لأنها اصطحبت كارينين معها.

تناول حبوباً منوّمة من عيار قوي لكنه لم يغمض له جفن حتى الصباح، لحسن الحظ كان يوم سبت وفي إمكانه البقاء في منزله. للمرة الخمسين راجع الموقف برمّته: لم تعد الحدود بين بوهيميا وبقية دول العالم مفتوحة كما كانت إبّان الفترة التي سافرا فيها. فلا البرقيات ولا الاتصالات كانت لتعيد تيريزا، لأن السلطات لن تسمح لها بالخروج. كان رحيل تيريزا نهائياً وكان غير قادرٍ على أن يصدّق.

14

كانت فكرة أنه غير قادر على فعل شيء تغرقه في حالة من الذهول وتهدّىء من روعه في آن. لا أحد كان يجبره على أن يأخذ قراراً. ولا عاد

بحاجة إلى تأمل حائط المبنى المقابل وهو يتساءل إذا كان راغباً في العيش معها أم لا. ذلك أن تيريزا قررت كل شيء بنفسها.

ذهب ليتناول غداءه في مطعم. كان يشعر أنه حزين. لكن يأسَه الأولي أخذ يتلاشى أثناء تناوله الوجبة وكأنه قد أعيا وفقد من زخمه، مُخلياً المكان للكآبة. كان يستعيد السنوات التي أمضاها برفقتها ويفكر أن قصتهما لا يمكنها أن تنتهي بشكل أفضل. فحتى لو خُلقت من جديد لما قُدّر لها أن تنتهي بطريقة أخرى.

ذات يوم جاءت تيريزا لزيارته دون أن تعلمه. وذات يوم رحلت بالطريقة نفسها، وصلت مع حقيبة ثقيلة وعادت بحقيبة ثقيلة.

دفع ثمن الغداء وخرج من المطعم، ثم ذهب للقيام بجولة في الشوارع مفعماً بكآبة تزداد حلاوة. وراءه سبع سنوات مع تيريزا وها قد اكتشف الآن أن هذه السنوات هي أجمل في الذكرى منها في الواقع.

كان الحب بينه وبين تيريزا جميلاً، بكل تأكيد، ولكنه كان متعباً: وجب عليه دائماً أن يخفي أمراً ما، وأن يتكتم، وأن يستدرك، وأن يرفع من معنوياتها، وأن يؤاسيها، وأن يثبت باستمرار حبه لها وأن يتلقى ملامات غيرتها وألمها وأحلامها، وأن يشعر بالذنب، وأن يبرر نفسه وأن يعتذر. . الآن كل التعب تلاشى ولم تبقَ إلا الحلاوة.

كانت سهرة السبت لا تزال في بدايتها. كان يتجول وحيداً للمرة الأولى في زوريخ ويتنشّق عميقاً عطر حريته. . ها إن المغامرة تترصد له عند زاوية كل شارع، وها إن المستقبل يرجع غامضاً من جديد. . كان يعود إلى حياته كعازب، هذه الحياة التي كان على يقين من أنه مقدّر لها، لأنها الحياة الوحيدة التي يمكن أن يكوِّن ذاته حقاً فيها.

عاش سبع سنوات متقيداً بتيريزا وتيريزا لاحقت بنظراتها كل خطوة من خطواته. كما لو أنها وثقت قدميه بكرة المحكومين بالإعدام. أما الآن فصارت خطوته فجأة أكثر خفة. . كان يحلّق تقريباً في فضاء بارمنيد السحري: كان يتذوق الطعم العذب لخفّة الكائن.

هل كان راغباً في الاتصال بسابينا في جنيف أو في مخابرة إحدى نساء زوريخ اللواتي تعرّف إليهن مؤخراً؟ لا لم تكن لديه أدنى رغبة في ذلك. كان يعرف أن ذكرى تيريزا سوف تسبب له ألماً مبرحاً إن هو اجتمع بواحدة أخرى.

15

دام هذا الافتتان الغريب الكئيب حتى مساء الأحد. نهار الاثنين تغير كل شيء. غزت تيريزا فكره فجأة: كان يحس بما كانت تعانيه وهي تكتب رسالتها الوداعية.. أحسّ كم أن يديها ارتجفتا. كان يراها تجر حقيبتها الثقيلة بيد ورسن كلرينين باليد الأخرى، وكان يتخيلها تدير المفتاح في قفل الشقة في براغ فيشعر بأسى الوحدة يعصف في وجهها عندما تفتح الباب.

كان شعوره بالشفقة، (لعنة التخاطب العاطفي) خلال هذين اليومين من الكآبة العذبة، قد سكن. كانت الشفقة تنام كما ينام عامل المنجم يوم الأحد بعد أسبوعٍ مضنٍ لكي يتمكن من العودة للعمل في الأعماق نهار الاثنين.

كان توماس يعاني مريضاً في عيادته فإذا به يتخيل تيريزا مكانه. فذكّر نفسه: لا تفكر فيها! لا تفكر فيها! قال في نفسه: أنا مريض بالشفقة. جيّد إنها فكرت في الذهاب وإنني لن أراها بعد اليوم عليَّ أن أتحرر ليس منها فحسب بل من شفقتي أيضاً، ذلك المرض الذي لم يكن ولي عهد به والذي نقل إليَّ جرثومة عُصَيَّة.

كان قد أحس يومي السبت والأحد بعذوبة خفة الكائن تأتيه من عمق المستقبل. أما يوم الإثنين فأحسّ نفسه تحت ثقل حمل لا عهد له به من قبل. فالأطنان الحديدية للدبابات الروسية مجتمعة لم تكن شيئاً في موازاة هذا الحمل. إن ألمنا بالذات ليس بأثقل من الألم الذي نعانيه مع الآخر ومن أجل الآخر وفي مكان الآخر؛ ألم يضاعفه الخيال وترجّعه مئات الأصداء.

كان ينهر نفسه ويأمرها بألاَّ تمتثل للشفقة، وكانت الشفقة تُصغي إليه

حانية الرأس كأنها متهم. كانت الشفقة تعرف بأنها تتجاوز حدودها ولكنها ظلّت تعاند سراً. مما حدا توماس بعد خمسة أيام من رحيل تيريزا على إبلاغ رئيس العيادة (وهو الشخص ذاته الذي كان يتصل به يومياً إلى براغ إبّان الاجتياح الروسي) بأن عليه أن يعود على وجه السرعة. كان يشعر بالخجل عارفاً بأن المدير سيجد تصرفه غير مسؤول ولا يُغتفر. رغب ألف مرة في أن يعترف له بكل شيء وفي أن يحدثه عن تيريزا والرسالة التي تركتها على الطاولة. ولكنه لم يفعل. إن طبيباً سويسرياً لا يمكنه أن يرى في تصرف تيريزا غير عمل هستيري مغيظ. وتوماس لن يسمح لأحد بأن يسيء الظن بتيريزا.

كان المدير مغتاظاً بالفعل.

هزَّ توماس كتفيه وقال: «ليس من ذلك بدٌّ».

كان ذلك تلميحاً إلى العبارة الموسيقية الأخيرة من رباعية بيتهوفن الأخيرة التي تتألف من هاتين الفكرتين:

أليس من ذلك بدٌّ؟
ليس من ذلك بدّ.

ولكي يكون معنى هذه الكلمات واضحاً جلياً، دوّن بيتهوفن في مطلع العبارة الموسيقية الأخيرة الكلمات التالية: «القرار الموزون بخطورة».

كان توماس يجد نفسه، من الآن، بفضل هذا التلميح إلى بيتهوفن، في جوار تيريزا. فهي كانت أجبرته على شراء أسطوانات لرباعيات بيتهوفن وسوناتاته.

في أية حال، كان هذا التلميح مؤاتياً أكثر مما تصوّر، فالمدير كان مولعاً بالموسيقى. قال له وهو يبتسم ابتسامة مشرقة مقلّداً بصوته نَغَم بيتهوفن: «أليس من ذلك بدّ؟».

وقال توماس مرة أخرى: «أجل، ليس من ذلك بدّ!».

16

يبـدو أن بيتهوڤن بخـلاف بارمينيـد، كان يعتبـر، الثقل شيئـاً إيجابيـاً. فعبارة «القرار الموزون بخطورة» مقرونة بصوت القدر («ليس من ذلـك بدّ»). إذاً الثقل والضرورة والقيمة ثلاثة مفاهيم متلازمة جوهرياً: لا شأن إلا لمـا هو ضروري، ولا قيمة إلا لما له وزن.

هذه القناعة نابعـة من موسيقى بيتهـوڤن. ومع أنـه من الممكن (إن لم يكن على الأرجح) أن تقع مسؤوليتها على شارحي بيتهوڤن أكثر مما تقع على بيتهوڤن نفسه، فإننا جميعاً نشاطرها اليوم: فإن ما يصنع عظمة الإنسان بالنسبة لنا هو أن يحمل قدره كما كان أطلس يحمل قبة السماء فوق كتفيه. إن البطل البيتهوڤنيّ ربّاع يرفع أثقالاً ميتافيزيقية.

كان توماس يسير باتجاه الحدود السويسـرية، وفي تصـوّري أن بيتهوڤن كان شخصياً بجبينه المقطب وشعره الأشعث، يدير جوقة الإطفائيين المحليين عازفاً على شرف وداعه للهجرة لحن سير عنوانه: «ليس من ذلك بدّ!».

ولكنّه وجد نفسه، بعد عبوره الحدود التشيكيـة، وجهاً لـوجه أمـام رتل من الدبابـات الروسيـة. فأوقف سيـارته عنـد مفرق طـريق وانتظر مـدة نصف ساعة إلى أن مرّت.

تمركز جنديٌ دبابةٍ مخيف يرتدي بذلـة سوداء وسط مفـرق الطرق وأخـذ ينظّم السير وكأن طرق بوهيميا تخصه هو دون سواه.

«ليس من ذلـك بدّ!»، كـان تومـاس يردد في نفسـه ولكنه لم يلبث أن يشك في ذلك: «هل كان الأمر ضرورياً حقاً؟».

نعم، كان البقاء في زوريـخ وترك تيـريزا لـوحدهـا في براغ، أمـراً غير محتمل.

ولكن كم من الوقت كان سيمر والشفقة تعذبه؟ الحياة بطولها؟ أم سنة؟ أم شهر؟ أم أسبوع واحد؟

كيف بإمكانه أن يعرف، كيف بإمكانه أن يتحقق من ذلك؟

يمكن لأي طالب خلال قيامه بالتمارين العملية للفيزياء، أن يُجري بتجارب معيّنة لإثبات صحة الافتراض العلمي. أما الإنسان فلا يملك إلا حياة واحدة ولا يملك أية إمكانية لإثبات الافتراض عبر التجربة.. لذلك، فهو لن يعرف أبداً إن كان على حق أم لا عندما يمتثل لشعوره.

هذا ما كان يفكر فيه وهو يفتح باب الشقة. قفزت كارينين إلى وجهه مما سهّل لحظة اللقاء. كانت الرغبة في الارتماء بين ذراعي تيريزا، (هذه الرغبة التي كانت تعتريه لحظة صعوده إلى السيارة في زوريخ). قد تلاشت تماماً. كانا يقفان متواجهين وسط سهل يغطيه الثلج وكانا يرتجفان من البرد.

17

منذ اليوم الأول للاحتلال والطائرات الروسية تحلّق طيلة الليل في أجواء براغ. كان توماس غير قادر على النوم لأنه فَقَد التعود على هذه الضجة. أخذ يتقلب في جميع الاتجاهات إلى جانب تيريزا المستغرقة في النوم. كان يفكر في حديث جرى منذ سنوات تحدثا خلاله عن صديقه ز...، حيث صرَّحت له آنذاك بذلك: «لو لم ألتقِ بك لوقعت في غرامه بالتأكيد».

منذ ذلك الحين أغرقت هذه الكلمات توماس في كآبة غريبة. كأنه فهم فجأة أن الصدفة هي التي جعلت تيريزا تتيّم به هو بدلاً من صديقه ز...، وأنه يوجد، بمنأى عن حبها المتحقق لتوماس، إمكانات لا حصر لها للوقوع في غرام رجال آخرين.

في اعتقادنا جميعاً أنه لا يُعقل لحبّ حياتنا أن يكون شيئاً ما خفيفاً، دون وزن. كلنا نتصور أن حبنا هو قدرنا وأن حياتنا من دونه لن تعود حياتنا. كما وأننا نقنع أنفسنا بأن بيتهوفن شخصياً بجبينه المقطّب وشعره الأشعث، يعزف من أجل حبنا الكبير لحن: «ليس من ذلك بدّ».

كان توماس يتذكر تعليق تيريزا فيما يخص صديقه ز... مستنتجاً أن قصة حب حياته لا ترتكز في النهاية على «ليس من ذلك بدّ»، بل تستند بالأحرى إلى «كان بإمكان هذا أن يحدث تماماً بطريقة مغايرة...».

لسبع سنوات خَلَتْ أُعلن «صُدفة» عن وجود حالة خطيرة لالتهاب السحايا في مستشفى المدينة التي تسكن فيها تيريزا. فاستدعي رئيس القسم في المستشفى التي كان توماس يعمل فيها لمعاينة هذه الحالة على وجه السرعة. ولكن، وعلى سبيل «الصدفة»، كان رئيس القسم يعاني من ألم عرق النِّسا، ولم يكن بإمكانه أن يتحرك. فأرسل توماس نيابة عنه إلى ذلك المستشفى الريفي.. كانت هناك في المدينة خمسة فنادق، ولكن توماس نزل «صُدفة» في الفندق حيث تعمل تيريزا. وجلس «صدفة» في مشرب الجعة لمضيعة الوقت قبل مجيء القطار. وكانت تيريزا تقوم بعملها «صدفة» فقدّمَتْ «صُدفة» المشروب لتوماس. وجب إذاً وجود حلقة من صُدَفٍ ست لتدفع بتوماس إلى تيريزا. وكأنه في حال تُرِك لذاته، لما كان اقتاده شيء إليها.

رجع إلى بوهيميا من أجلها. إن قراراً بهذه الأهمية يستند إلى علاقة حب هي من العَرَضية بحيث أنها لم تكن لتبصر النور لو لم يُصَبْ رئيس القسم بعرق النِّسا منذ سبع سنوات. وها إن هذه المرأة التي هي التجسيد المطلق للصدفة، تنام الآن إلى جانبه وتتنفس ملء رئتيها.

كان الوقت متأخراً وبدأ توماس يشعر بألم في معدته، كما يحصل له عادة في لحظات الضيق.

تحوّل تنفس تيريزا لمرة أو لمرتين إلى غطيط خفيف. لم يكن توماس يشعر بأدنى شعور من الشفقة. شعور واحد فقط: ضغطٌ في فجوة معدته، ويأسٌ من أنه عاد.

القسم الثاني

الروح والجسد

1

سيكون ساذجاً من قبل الكاتب أن يجعل القارىء يعتقد أن شخصياته وُجدت فعلاً. لا، هي لم تخلق من جسد امرأة بل من بضع جمل موحية أو من موقف حرج. توماس مثلاً خُلِق من جملة: مرة ليست في الحسبان، مرة هي أبداً. أما تيريزا فخُلِقَتْ من بضع قرقرات.

حين تخطت في المرة الأولى عتبة شقة توماس، أخذت أمعاؤها تقرقر. يجب ألا نُفَاجأ فهي لم تتناول غداءها ولا عشاءها بعد، بل اكتفت بسندويش تناولته آخر الصبيحة على الرصيف، قبل أن تصعد إلى القطار. ذلك أن فكرة سفرها الجريئة أنستها الأكل. لكن حين لا نهتم بجسدنا، نصير عندئذ ضحايا له بسهولة. أيّ عذاب في أن تسمع بطنها يتكلم وهي تقابل توماس! أوشكت أن تبكي. ولكن توماس، لحسن الحظّ عانقها بعد عشر ثوانٍ واستطاعت بذلك أن تنسى أصوات بطنها.

2

خُلِقت تيريزا إذاً من حالة تعبّر بشكل سافر عن ثنائية الجسد والروح، تلك التجربة الإنسانية الأساسية.

قديماً، كان الإنسان يسمع بدهشة هذا الضرب المنتظم الذي يأتيه من عمق صدره، ويتساءل عمّا يكون. لم يكن بإمكانه أن يعدّ نفسه مماثلاً لشيء مجهول وغريب اسمه الجسد. كان الجسد بمثابة قفص، في داخله شيء ما

ينظر ويسمع ويخاف ويفكر ويُدهش. وهذا الشيء، هذه البقية الباقية، هذه النتيجة الحاصلة عن الجسد، هو الروح.

اليوم، كفّ الجسد بالتأكيد عن أن يكون لغزاً: فالذي يدق في الصدر هو القلب كما نعرف، والأنف ليس إلا نهاية القصبة الناتئة عن الجسد التي توصل الأوكسجين إلى الرئتين. أما الوجه فهو لوحة الضفة التي ترسو عليها أعمال الجسد كلها: الهضم والنظر والسمع والتنفس والتفكير.

لحظةَ استطاع الإنسان أن يسمّي أجزاء الجسد، صار الجسد يُشغله أقل. كلنا نعرف أن الروح ما هي إلا نتيجة نشاط المادة السنجابية في الدماغ. وأن ثنائية الروح والجسد اختفت خلف عبارات علمية، وهي لم تعد اليوم إلا مزاعم عفا عليها الزمن، ومثيرة للسخرية. لكن يكفي أن نحب حتى الجنون وأن نسمع مع ذلك أمعاءنا تقرقر فتختفي مقولة وحدة الجسد والروح، ويختفي معها ذلك الوهم المثالي للعصر العلمي.

3

كانت تحاول أن ترى روحها من خلال جسدها. لذلك كانت تنظر مراراً إلى نفسها في المرآة. وبما أنها كانت تخاف من أن تباغتها أمها وهي في هذا الوضع، فإن هذه النظرات كانت تحمل إذاً طابع آفة سرية.

لم يكن اعتدادها بنفسها هو الذي يجذبها إلى المرآة، بل دهشتها من اكتشافها لذاتها فيها. كانت تنسى أنها أمام لوحة الضفة التي ترسو فيها أعمال الجسد، معتبرة أن روحها تنكشف عبر ملامح وجهها، ناسيةً أن الأنف هو نهاية القصبة التي توصل الهواء إلى الرئتين، لترى فيه تعبيراً صادقاً عن طبيعتها.

كانت تتأمل نفسها طويلاً في المرآة. وكان يزعجها أحياناً أن ترى ملامح أمها مستقرة على وجهها. لذلك، كانت تواصل بعنادٍ متزايد النظر إلى نفسها في المرآة، وهي تركّز كل جهودها لتنتزع عنها سيماء أمها فيصير الوجه صفحة بيضاء لا يتبقى عليها إلاّ ما يخصّها هي. كانت اللحظة التي تستطيع

فيها أن تنجح في ذلك لحظة مُسكِرة: كانت الروح حينئذ تطفو على سطح الجسد شبيهة بطاقم يقفز من قلب السفينة ويجتاح الجسر ملوّحاً بذراعيه نحو السماء، وآخذاً في الغناء.

4

لم تكن تشبه أمها من ناحية الشكل فحسب إنما أشعر أحياناً أن حياتها أيضاً ليست إلا امتداداً لحياة أمها. كما أن جريان كرة البليارد هو امتداد للحركة التي قامت بها ذراع اللاعب.

متى وأين بدأت هذه الحركة التي تحوّلت فيما بعد إلى حياة تيريزا؟

بالضبط لحظة امتدح تاجر من براغ جمال ابنته، أم تيريزا. كان عمر الأم حينها ثلاث أو أربع سنوات، وكان يقول لها إنها تشبه عذراء رافييل. فحفظت هذا الأمر جيداً، وبدل أن تصغي، وهي على مقاعد الدراسة، للأستاذ، كانت تتساءل أي رسم بإمكانها أن تشبه.

عندما صارت في السن التي تؤهلها للزواج، كان لديها تسعة عشاق. كانوا يطوقونها جاثين أمامها، وهي وسط هذه الدائرة مثل أميرة. ولم تكن تعرف أيهم تختار: فالأول كان الأجمل والثاني الأرهف والثالث الأكثر ثراء والرابع الأقوى بين الرياضيين، والخامس من عائلة محترمة، والسادس يروي لها أشعاراً، والسابع جال حول العالم، والثامن عازف كمان، والتاسع الأكثر رجولة بين الرجال. ولكنهم كانوا جميعاً يبحثون بالطريقة نفسها، وركابهم منتفخة بالطريقة نفسها.

واختارت في النهاية، التاسع ليس لأنه الأكثر رجولة، بل لأنه كان يتقصّد عدم الانتباه عندما كانت تهمس في أذنه أثناء الجماع: «احترس جيداً! احترس جيداً!». لذلك اضطّرت للإسراع في الزواج لأنها لم تجد طبيباً يجهضها. وهكذا ولدت تيريزا. توافد أفراد العائلة الذين لا يحصى عديدهم من كل صوب، انحنوا فوق المهد وأخذوا يلثغون. أما أم تيريزا فلم تكن تلثغ. بل كانت تصمت وتفكر بالعشاق الآخرين فتجدهم كلهم أفضل

من التاسع. كانت أم تيريزا تحب كثيراً، مثل ابنتها، النظر إلى المرآة. لاحظت ذات يوم وجود تجاعيد حول عينيها ففكرت أن الزواج لا معنى له. التَقَتْ ذات يوم برجل لم يكن يملك رجولة إطلاقاً وكان يجرُّ وراءه عدة أعمال احتيال وطلاقَيْن. وبما أنها لم تعد تحب العشاق المنتفخة ركابهم، شعرت إذاً برغبة جامحة لأن تجثو بدورها فسقطت راكعة أمام النصّاب وتركت زوجها وتيريزا.

أصبح الأكثر رجولة بين الرجال أنفسهم. كان تعيساً إلى درجة أنه لم يعد يبالي بشيء، يقول ما يفكر فيه بصوت عالٍ وفي كل مكان. فانزعجت الشرطة الشيوعية من أفكاره غير اللاّئقة فاستجوبته وزجّته في السجن.. وهكذا طُردت تيريزا من البيت الذي جرى ختمه بالشمع الأحمر، وانتقلت لتعيش مع أمها.

بعد فترة قصيرة توفي أتعس الرجال في السجن. أما الأم التي لحقت بها تيريزا فانتقلت لتعيش مع النصّاب في مدينة صغيرة عند أسفل الجبال. كان زوج الأم يعمل موظفاً في مكتب والأم بائعة في أحد المخازن. رُزِقت ثلاثة أولاد أيضاً. ثم، نظرت ذات يوم إلى هيئتها في المرأة فاكتشفت أنها صارت عجوزاً بشعة.

5

وإذا أدركت أن كل شيء ضاع من يدها، أخذت تفتش عن متهم. ومتهماً كان الجميعُ: متهم زوجها الأول الرجوليّ واللامحبوب، فهو لم يطعها عندما همست في أذنه بأن ينتبه. ومتهم زوجها الثاني المحبوب والأقل رجولة، لأنه اقتادها بعيداً عن براغ إلى مدينة ريفية صغيرة، ولأنه كان يجري وراء تنانير النساء إلى درجة أنها عاشت في غيرة متواصلة. حيال زوجيْها كانت عزلاء، دون سلاح. أما الكائن الوحيد الذي ينتمي إليها دون أن يتمكن من الإفلات منها، والرهينة التي يمكن أن تدفع عن الآخرين كافةً، فكانت تيريزا.

على أية حال، ربما كان صحيحاً أنها مسؤولة عما حصل لأمها. فهي

التقاء أخرق لحيوان منوي من الأكثر رجولة بين الرجال، وبويضة من أجمل النساء. بدأت الأم انطلاقاً من هذه الثانية المحتومة التي اسمها تيريزا، ماراتون حياتها الفاسدة.

كانت تردّدُ من غير كلل على مسامع تيريزا بأن كون المرأة أُمّاً يعني أنَّ عليها أن تضحي بكل شيء. كانت كلماتها مقنعة، فهي تعبر عن تجربة امرأة أضاعت كل شيء بسبب ابنتها. كانت تيريزا تصغي إليها وهي مقتنعة بأن أعظم قيمة في الحياة هي الأمومة، وأن الأمومة هي التضحية المثلى. إذا كانت الأم تمثل التضحية بحد ذاتها، فالابنة والحالة هذه خطأ لا يُعوّض.

6

بطبيعة الحال، لم تكن تيريزا على علم بواقعة تلك الليلة التي همست أمها فيها في أذن الرجل الأكثر رجولة بين الرجال، بأن ينتبه. كان الشعور بالذنب الذي أحست به مبهماً كالخطيئة الأصلية. وكانت تفعل كل ما في وسعها للتكفير عنه. فبعد أن أخرجَتْها أمها من المدرسة وهي في سن الخامسة عشرة، عمِلَتْ كساقية، وكانت تعطيها كل ما تجنيه. كانت على استعداد للقيام بكل ما يجعلها تستحق حبها.. كانت تهتم بتنظيف البيت وتُعنى بإخوتها وأخواتها وتمضي طيلة نهار الأحد في الفرك والغسيل. كان هذا الأمر يدعو إلى الأسف لأنها كانت الأكثر ذكاءً في صفها. كانت راغبة في أن ترتقي ولكن أنَّى لها أن ترتقي في هذه المدينة الصغيرة؟ كانت تغسل الثياب واضعة كتاباً قرب المغطس، فيبتل الكتاب من نقاط الماء وهي تقلب الصفحات.

كان الاحتشام معدوماً داخل المنزل، فأُمها تتجول في الشقة وهي في ملابسها الداخلية، وأحياناً دون صدرية، وأحياناً أُخرى عارية تماماً في أيام الصيف. أما زوج والدتها فلم يكن يتجول قطّ وهو عارٍ تماماً، إلا أنه كان يترقب دائماً فرصة وجود تيريزا في المغطس لكي يدخل إلى الحمام. فأقفلت على نفسها في ذات يوم بالمفتاح ولكن أمّها وبّختها قائلة: «من تعتبرين نفسك؟ ماذا تعتقدين؟ لن يلتهم لك جمالك!».

(هـذا الموقف يـظهر بـوضوح أن كـراهية الأم لابنتهـا كانت أقـوى من غيرتها على زوجها. وبما أن غلطة الابنة لا حدود لها فإنها كانت تشمل أيضاً خيانات الزوج. فأن تجرؤ الابنة على الاستقلال برأيهـا والمطالبـة بحقوقهـا ـ كحقها مثلاً في أن تقفل الباب على نفسها في غرفة الحمام ـ أمر ترفضـه الأم أكثر مما ترفض الإقرار بنيّة جنسية محتملة يضمرها الزوج لتيريزا).

كانت الأم تتجول، ذات يوم شتائي، عـارية والغـرفة مضـاءة. فهرعت تيـريزا لإنـزال الستارة لكي لا يـرى أحد أمهـا من البنايـة المقابلة. فسمعتهـا تضحك خلف ظهرهـا. في اليوم التـالي، جـاءت بعـض الصديقـات لزيـارة أمها: جارتها وصاحبتهـا في المخزن، ومعلمـة الحي، وامرأتـان أو ثلاث كن يأتين بانتظام. جاءت تيـريزا لتجلس معهن لحـظة وبرفقتهـا ابن إحدى هؤلاء النسوة وهو صبي في السادسة عشرة من عمره.

فاغتنمت الأم الفرصة لتروي لصديقاتهـا كيف أرادت تيريـزا أن تحافظ على الإحتشـام. كانت تضحـك وجميع النسـاء كن يقهقهن. ثم قـالت الأم: «تيريزا لا تريد أن تعترف بأن الجسد الإنساني يبـول ويضرط». كـانت تيريـزا تحمر خجلاً، لكن أمهـا تابعت مـع ذلك: «ومـا الضرر في ذلـك؟». وردّت بنفسها على سؤالها فـأفلتت للحال بضـع ضرطـات طنانـة. فانفجـرت النساء كلهن بالضحك.

7

تتمخط الأم بصـوتٍ عـالٍ وتـروي أمـام النـاس تفـاصيـل من حيـاتهـا الجنسيـة وتعرض طـاقم أسنانهـا. وهي تتفنن في سحبه بضـربة لسـان واحدة وببراعة لافتة فتترك الفك الأعلى يسقط فوق الأسنان السفلى وهي تبتسم ملء فمها، فيصبح وجهها مقشعراً مثل جلد دجاجة.

ليس تصرفها برّمته إلا ضربة واحدة عنيفة تـرمي بها شبـابها وجمـالها. حين كان العشاق التسعة يتحلقون جاثين أمامهـا، كانت تحـرص على عريهـا كـل الحرص. وكـانت تقيس قيمة جسـدها بمعيـار حشمتهـا. إذا كـانت قـد أصبحت فـاحشة الآن فهـذا لأنها تـريد أن تسـدل ستاراً عـظيماً على حيـاتها

السابقة، وأن تصرخ بأعلى صوتها قائلة إن الشباب والجمال اللذين غالت في تقديرهما لا يساويان شيئاً في الحقيقة.

تبدو لي تيريزا إذاً وكأنها امتداد لهذه الحركة التي قذفت بها أمها حياتها كامرأة جميلة، بعيداً.

(وإذا رأينا أن لتيريزا نفسها حركات عصبية وأن تصرفاتها تفتقر إلى التواني الأنيق، فيجب ألا نُفاجأ: فهذه الضربة العنيفة لأمها، والمدمّرة لذاتها هي هي تيريزا).

8

تطالب أم تيريزا بأن تُنصَف ويعاقَب المتهم، تصر على أن تبقى ابنتها معها في عالم الفحش، حيث الشباب والجمال لا يساويان شيئاً، وحيث العالم مجرد معسكر اعتقال كبير للأجساد المتشابهة وحيث الأرواح متوارية.

الآن، يمكننا أن نفهم بشكل أفضل آفة تيريزا السرية ونظراتها المتكررة أمام المرآة، فالأمر هو بمثابة صراع مع أمها ورغبة في ألا تكون جسداً كباقي الأجساد، بل في أن ترى طاقم النفس يتدفق من قلب السفينة ليستقر على صفحة وجهها. لم يكن الأمر سهلاً فالروح كانت تختبىء في قعر الأحشاء حزينة وخائفة وخجلة من أن تظهر نفسها.

كانت على هذه الحال عندما التقت بتوماس للمرة الأولى. كانت تتغلغل بين السكارى في مشرب الجعة وجسدها ينوء تحت ثقل أكواب الجعة التي كانت تحملها فوق الصينية.. وكانت روحها هناك في جوف معدتها أو في البنكرياس. في هذه اللحظة سمعت توماس يناديها. كان هذا النداء ذا شأن فهو صادر عن شخص لا يعرف أمها ولا السكارى الذين تسمع كل يوم تعليقاتهم الفاحشة الرخيصة. كان وضعه كغريب يرفعه فوق الآخرين.

وثمة شيء آخر: كان هناك كتاب متفوح على الطاولة.. وفي هذا المقهى لم يكن لأحد من قبل كتاب مفتوح على الطاولة. كان هذا الكتاب بالنسبة لتيريزا علامة على وجود أخوة سرية. فهي لم تكن تملك، في مقابلة

عالم التفاهة الذي يحيط بها، إلا سلاحاً واحداً: الكتب التي تستعيرها من مكتبة البلدية وخصوصاً الروايات. كانت تقرأ أكداساً منها، ابتداءً بفيلدنغ وانتهاءً بتوماس مان. كانت هذه الروايات تمنحها فرصة للهروب الخيالي، وتقتلعها من حياة لم تكن تعطيها أي شعور بالاكتفاء. لكنها كانت أيضاً تعني لها بصفتها أدوات: كانت تحب أن تتنزه وهي تتأبط كتباً. كانت تميّزها عن الآخرين مثلما كانت العصا تميّز المتأنق في القرن الفائت.

(المقارنة بين الكتاب وعصا المتأنق ليست صحيحة تماماً. فالعصا التي تميّز المتأنق كانت تجعل منه شخصاً عصرياً و«على الموضة». أمّا الكتاب الذي يميّز تيريزا عن النساء الأخريات فيجعلها خارج زمانها. كانت طبعاً أكثر شباباً من أن تفهم ما هو «قديم الزي» في شخصيتها. كانت تجد المراهقين الذين يتنزهون حولها حاملين ترانزستورات زاعقة، بُلهاء، ولم يكن يخطر في بالها أنهم عصريون).

إذاً، الرجل الذي كان يناديها غريب وعضو في أُخوة سرية. كان يتكلم بلهجة مؤدبة فأحست تيريزا عندئذ أن روحها تندفع إلى السطح عبر شرايينها كلها وأوعيتها الشعرية ومسامها، لكي تتم له رؤيتها.

9

شعر توماس، بعد رجوعه من زوريخ إلى براغ، بضيق حين فكر أن لقاءه بتريزا كان حصيلة صدف ست بعيدة الاحتمال.

لكن، خلافاً لذلك أفلا تقاس أهمية حدث، وكثرة معانيه بارتباطه بأكبر عدد ممكن من الصدف؟

وحدها الصدفة يمكن أن تكون ذات مغزى. فما يحدث بالضرورة، ما هو متوقع ويتكرر يومياً يبقى شيئاً أبكم. وحدها الصدفة ناطقة. نسعى لأن نقرأ فيها كما يقرأ الغجريون في الرسوم التي يخطها ثفل القهوة في مقر الفنجان.

كان وجود توماس، بالنسبة لتيريزا، في مشرب الجعة حيث تعمل،

تجسيداً مطلقاً للصدفة. كان جالساً وحده أمام طاولة وكتاب مفتوح. ثم رفع عينيه ناحيتها وابتسم: «واحد كونياك».

كانت الموسيقى، في هذه اللحظة بالذات، تعزف عبر الراديو. ذهبت تيريزا لإحضار كأس كونياك عن طاولة الشرب. وأدارت زر الراديو لتزيد من قوة الصوت فهي تعرف أن هذه الموسيقى لبيتهوڤن، الذي تعرّفت إليه يوم أتى رباعي موسيقي من براغ للقيام بجولة في المدينة الصغيرة. ذهبت تيريزا (التي كانت تتوق «للإرتقاء» كما نعلم) إلى الحفلة الموسيقية حيث كانت الصالة خالية، وهي وحدها مع الصيدلي وزوجته. كان هناك رباعيٌّ من الموسيقيين على حلبة المسرح وثلاثي من المستمعين في الصالة. ولكن الموسيقيين كانوا لطفاء للغاية فلم يلغوا الحفلة بل عزفوا لهم وحدهم، طيلة السهرة، الرباعيات الثلاث الأخيرة لبيتهوڤن.

دعا الصيدلي الموسيقيين إلى العشاء بعد انتهاء الحفلة، ثم توسّل إلى المستمعة المجهولة أن تنضم إليهم. منذ ذلك الحين صار بيتهوڤن بالنسبة لها صورة عن «الجانب الآخر» من العالم. والآن، وفيما كانت راجعة لتقدم لتوماس كأس الكونياك التي تناولتها عن طاولة الشرب، حاولت جاهدة القراءة في هذه الصدفة: كيف اتفق أنها سمعت موسيقى بيتهوڤن في اللحظة نفسها التي استعدت فيها لتقديم الكونياك إلى هذا الغريب الذي أعجبها؟

للصدفة وحدها مثل هذا السحر، لا الضرورة. وكي يكون حبّنا غير قابل للنسيان، يجب أن تجتمع الصدف من اللحظة الأولى مثلما اجتمعت العصافير فوق كتفي القديس فرنسيس الأسيزي.

10

ناداها ليدفع الحساب. ثم أغلق الكتاب (هذه العلامة المميزة على وجود أخوّة سرية) فرغبت في معرفة ماذا كان يقرأ.

سألها: هل يمكنك أن تسجلي الثمن على ورقة. حسابي في الفندق؟

ـ بالتأكيد. ما هو رقم غرفتك؟

دلّها على مفتاح معلّق في نهاية لوحة خشبيـة تحمل الـرقم ستة مكتـوباً باللون الأحمر.

قالت: «غريب. أنت تقيم في الغرفة رقم ستة».

فسألها: «وما الغريب في الأمر؟».

تـذكـرت أن البنـايـة التي كـانت تقيم فيهـا مـع أهلهـا في بـراغ قبـل طلاقهما، كانت تحمل الرقم ستة. ولكنها قالت شيئاً آخر تمـاماً (ولا يمكننـا إلا أن نُعجَب بحيلتهـا): «أنت في الغـرفـة رقم سـتـة. وأنـا أنهي عملي في الساعة السادسة».

قال الغريب: وأنا سأصعد في قطار الساعة السابعة.

لم تدرِ ماذا تقول. مدّت لـه ورقة الحسـاب ليوّقّـع عليها وحملتهـا إلى مكتب الاستقبال. عندما أنهت عملها كان قد ترك الطاولة، فهل فهم قصـدها الخفي؟ أحسّت أنها متوفزة عند خروجها من المطعم.

في الجهـة المقابلة، وسط المـدينة الصغيـرة المتسخـة، كـانت هنـاك حديقة صغيـرة كئيبة، شكّلت لهـا دائماً جـزيرة جمـال صغيرة: مـرجة وأربـع شجرات حور ومقاعد وصفصافة باكية وجنبات فرسيثية(*).

كان جالسـاً على مقعد يمكن منـه رؤية مـدخل مشـرب الجعة. كـانت تجلس على المقعد ذاته مساء البارحة وهي تحمل كتـاباً فـوق ركبتيها! فهمت حينئذ (كانت عصافير الصدفة تتجمع على كتفيها) أن هذا الغريب مقـدرٌ لها. ناداها ثم دعاها للجلوس قربه. (فأحست تيريزا أن طاقم النفس يندفع ليجتاح جسر جسدها). رافقته بعد ذلك إلى المحطة، وقبل أن يغـادر أعطاهـا بطاقـة دعوة ورقم هاتفه: «فيما لو أتيتِ صدفة إلى براغ...».

(*) (forsythias) نوع من الشجر.

11

ولكن، أكثر من بطاقة الدعوة هذه التي أعطاها إياها في آخر لحظة، إن ما شجع تيريزا على الذهاب من بيتها وتغيير حياتها هو نداء الصدف (الكتاب، بيتهوفن، الرقم ستة، المقعد الأصفر في الحديقة الصغيرة). ربما هذه الصدف القليلة (والتي هي على كل حال بسيطة وعادية وجديرة فعلاً بهذه المدينة التافهة) هي التي حرّكت حبها وصارت مصدر الطاقة التي سترتوي منه حتى النهاية.

إن حياتنا اليومية مفخخة بالصدف وتحديداً باللقاءات العرضية بين الناس والأحداث، أي ما نسمّيه المصادفات: والمصادفة هي لحظة يقع حدثان غير متوقعين في الوقت نفسه فيتلاقيان: توماس يظهر في مشرب الجعة لحظة تعزف موسيقى لبيتهوفن عبر الراديو. في أغلب الأحيان تمر مصادفات كثيرة دون أن نلاحظها إطلاقاً. فلو أن اللحام في الزاوية جلس أمام الطاولة مكان توماس، لما كانت تيريزا لاحظت أن الراديو يعزف موسيقى لبيتهوفن (مع أن تلاقي بيتهوفن واللحام يعدُّ أيضاً مصادفة غريبة). لكن الحب المُبرعم عزّز في داخلها الشعور بالجمال وهي أبداً لن تنسى هذه الموسيقى. وفي كل مرة ستسمعها ستنفعل، وسيكون كل ما يحدث حواليها في هذه اللحظة محاطاً بهالة هذه الموسيقى، وجميلاً.

في مطلع الرواية التي كانت تتأبطها تيريزا يوم جاءت إلى براغ، تلتقي آنّا بفرونسكي في ظروف غريبة. كانا واقفين على رصيف المحطة عندما سقط أحدهم تحت القطار. وفي نهاية الرواية آنّا هي التي تلقي بنفسها تحت القطار. قد تبدو هذه الحركة المتوازية حيث يظهر الحافز نفسه في مطلع الرواية وفي نهايتها، منسوجة «على منوال الأقاصيص». نعم، أقبلُ بذلك. لكن شريطة ألا تعني «على منوال الأقاصيص» شيئاً «مختلقاً» و «ومصطنعاً» و «من دون حياة». ذلك أن الحياة الإنسانية مركبة على هذا النحو تماماً.

فهي مركبة مثل مقطوعة موسيقية. فالإنسان، بدافع من إحساسه بالجمال، يحوّل الحدث العرضي (موسيقى بيتهوفن أو الموت في المحطة) إلى لازمة تسجَّل في الحال في مقطوعة حياته، وهو يرجع إليها ويكررها

ويغيّر فيها ويطوّرها كما يفعل أي موسيقيّ بالفكرة الرئيسية لسوناتته. كان بإمكان آنّا أن تنهي حياتها بطريقة أخرى مختلفة تماماً. ولكن حافز المحطة والموت، هذا الحافز الذي لا يُنسى لاقترانه ببداية الحب، كان يجذبها في لحظات اليأس، بجماله القائم. فالإنسان ينسج حياته على غير علم منه وفقاً لقوانين الجمال حتى في لحظات اليأس الأكثر قتامة.

لا يمكن إذاً أن يأخذ أحد على رواية افتتانها بالاتفاق الغامض للصدف. (مثلاً، تلاقي فرونسكي وآنّا والرصيف والموت أو تلاقي بيتهوفن وتوماس وتيريزا وكأس الكونياك). لكن يمكن أن يؤخذ بحقٍ على الإنسان حين يُعمي عينيه عن هذه الصدف فيحرم بالتالي حياته من بُعد الجمال.

12

وإذ شجّعتها عصافير الصدف المتجمعة على كتفيها، أخذت تيريزا عطلة أسبوع دون أن تعلم أمها، وصعدت في القطار. دخلت مراراً إلى المرحاض لكي ترى نفسها في المرآة، لكي تتوسل إلى روحها بألاّ تبرح ثانيةً واحدةً جسر جسدها في هذا اليوم المصيري من حياتها. وإذا كانت تنظر إلى نفسها هكذا، اعتراها الخوف: كانت تشعر أن حلقها ملتهب.. أتراها ستصاب بالمرض في هذا اليوم المقدر؟

ولكن لا وسيلة للتراجع. خابرتْه من المحطة ولحظة فُتح الباب أرسل بطنها فجأة قرقرات مفزعة، فخجلت. كأنَّ أمها كانت هناك داخل بطنها تضحك لتفسد عليها لقاءها.

حسِبت أول الأمر أنه سيرميها في الخارج بسبب هذه الأصوات غير اللائقة، غير أنّه أخذها بين ذراعيه. كانت ممتنة له لأنه غير مبالٍ بقرقراتها، فقبّلته بشغف متزايد وعيناها تغشاهما الضبابة. ثم بعد دقيقة بالكاد مارسا الحب. كانت تصرخ خلال المضاجعة. فحمى الزكام قد اعترتها ونهاية القصبة التي تنقل الهواء إلى الرئتين كانت حمراء ومسدودة.

ثم رجعت في المرة الثانية مع حقيبة حيث كدّست حوائجها كلها، وقد

قررت ألّا ترجع أبداً إلى المدينة الصغيرة. لم يدعُها إلى زيارته إلا مساء الغد، فأمضت الليلة في فندق رخيص. عند الصباح، ودعت حقيبتها في مكتب الاستعلامات في المحطة، ثم تسكعت طيلة النهار في شوارع براغ وهي تتأبط «آنا كارينين». وعند المساء قرعت وفتح لها. لم تتخلَّ عن الكتاب وكأنه بطاقة دخولها إلى عالم توماس. كانت عارفة أنها لا تملك جواز مرور آخر إلا هذه التذكرة التعيسة، وكان هذا يدفعها إلى البكاء. ولكي تتحاشى البكاء، أخذت تثرثر وتتكلم بصوتٍ عالٍ وتضحك. ولكن، وكما في المرة الأولى، ما إن تجاوزت العتبة حتى ضمّها بين ذراعيه ومارسا الحب. فغرقت في ضباب لا يمكن من خلاله رؤية شيء، بل سماع صراخها فقط.

13

لم يكن صراخها لهاثاً ولم يكن تأوّهاً، بل صراخ حقيقي. كانت تصرخ بصوت عالٍ إلى درجة أن توماس أبعد رأسه عن وجهها وكأن صوتها الزاعق سيثقب طبلة أذنه. لم يكن هذا الصراخ تعبيراً عن الشبق فالشبق هو التعبئة القصوى للحواس: نراقب الآخر بانتباه بالغ ونسمع أدنى أصواته. لكن صراخ تيريزا كان بخلاف ذلك، يريد أن يُرهق الحواس ويمنعها من الرؤية والسمع. كانت المثالية الساذجة لحبّها هي التي تزعق في داخلها راغبة في إلغاء كل التناقضات، وفي إلغاء ثنائية الروح والجسد، وحتّى في إلغاء الزمن.

أكانت عيناها مغمضتين؟ لا، لكنهما كانتا جامدتين لا تنظران إلى شيء، شاخصتين إلى فراغ السقف. وأحياناً كانت تدير رأسها تارة إلى هذا الميل وتارة أخرى إلى ذاك.

عندما هدأ صراخها، نامت قرب توماس وأمسكت بيده طوال الليل.

منذ كانت في الثامنة وهي تغفو جامعة يديها ومتخيلة أنها تمسك الرجل الذي تحبه، رجل حياتها. كان مفهوماً إذاً أن تشد بهذا العزم على يد توماس

أثناء نومها: فهي كانت تتهيأ لهذا الأمر منذ الطفولة وتتمرن عليه.

14

يفترض بفتاة شابة تقدّم البيرة للسكارى، عوضاً عن «أن ترتقي»، وتمضي أيام الآحاد في غسل الثياب المتسخة لإخوتها وأخواتها، يفترض بها إذاً أن تكون قد خزّنت في داخلها حيوية هائلة لا يقدر على فهمها أولئك الذين يذهبون إلى الجامعة ويتثاءبون أمام الكتب. فتيريزا قرأت أكثر منهم وتعرف الكثير عن الحياة دون أن تعي ذلك. إذ ليس ما يميّز العصامي عن ذلك الذي يتابع دراسته، سعة الاطلاع، ولكن مستويات مختلفة من الحيوية والثقة بالنفس. كان الحماس الذي أكبّت به على الحياة عند قدومها إلى براغ، ضارياً وهشاً في آن. كانت تخشى من أن يجرؤ أحد على أن يقول لها: «لسْتِ في مكانك هنا، ارجعي من حيث أتيتِ!». كان إقبالها على الحياة مشدوداً بكليته إلى خيط واحد: إلى صوت توماس الذي جعل روح تيريزا المنكفئة بخجل، تطفو على السطح.

صحيح أنها وجدت وظيفة في مختبر الصور ولكنها كانت غير قادرة على الاكتفاء بها. كانت تريد أن تلتقط بنفسها الصور. أعارتها سابينا صديقة توماس كتباً تحوي دراسات وافية عن الصور الشهيرة، ثم وافَتْها إلى مقهى وشرحت لها أمام كتب مفتوحة الأهمية التي تنطوي عليها هذه الصور. وكانت تيريزا تصغي إليها بانتباه صامت، شبيه بالانتباه الذي نادراً ما يصادفه الأستاذ على وجه أحد التلامذة..

وهكذا فهمت تيريزا بفضل سابينا القرابة التي تجمع التصوير بالرسم. فصارت تجبر توماس على مرافقتها في الذهاب إلى كل المعارض وقد نجحت خلال فترة قصيرة في نشر صورها الخاصة بها في المجلة وتركت المختبر لتنتقل للعمل بين المصوّرين المحترفين للمجلة.

ذهبا في ذلك المساء إلى أحد الملاهي برفقة بعض الأصحاب للاحتفال بترقيتها. ورقصوا فاغتمَّ توماس. وحين ألحّت عليه ليقول لها ما به،

أسرَّ لها، أثناء العودة في الطريق، أنه كان غيوراً لأنه رآها ترقص مع زميله.

«أحقاً جعلتك تغار؟»، رددت هذه العبارة عشرات المرات وكأنه كان يعلمها بأنها نالت جائزة نوبل ورفضت أن تصدق.

طوّقته بذراعيها وشرعت ترقص معه في الغرفة. إنما رقصتها لم تكن تشبه بشيء الرقصة المتمدنة التي أدّتها على حلبة الملهى قبل قليل، لا بل كانت تشبه رقصة شعبية ريفية تتألف من مجموعة قفزات غريبة. كانت تيريزا ترفع ساقيها عالياً ثم تقوم بقفزات عالية خرقاء وهي تجرّه في أنحاء الغرفة الأربعة.

ولكن، للأسف، ما لبثت أن أصابتها الغيرة بدورها بعد فترة قصيرة. أما غيرتها فلم تكن بالنسبة لتوماس بمثابة جائزة نوبل، ولكن حملاً لم يستطع التحرر منه إلا قبل سنة أو سنتين من وفاته.

15

كانت تسير عارية حول بركة السباحة، وسط موكب النساء الأخريات العاريات. وكان توماس واقفاً داخل سلة معلقة في السقف. . كان يزعق مجبراً إياهن على الغناء وثني الركاب. وما إن تقوم امرأة بخطوة خاطئة حتى يرديها قتيلة بطلقة من مسدسه.

أرغب مرة أخرى في الرجوع إلى هذا الحلم: لم يبدأ الرعب لحظة أطلق توماس الرصاصة الأولى، إنما الحلم كان مرعباً منذ البداية. أن تسير عارية وسط النساء العاريات كان بالنسبة لتيريزا الصورة الأكثر بدائية للرعب. فهي لمّا كانت تقيم مع والدتها، كانت تمنعها من أن تقفل باب الحمام بالمفتاح، وتقول لها: جسدك لا يتميز بشيء عن الأجساد الأخرى. لذلك لا حق لك في الاحتشام ولا داعي لتخفي شيئاً موجوداً بمليارات النماذج، وبالطريقة عينها. فجميع الأجساد كانت متشابهة، ضمن عالم أمها، وتسير في صف منتظم، الواحد تلو الآخر. منذ الطفولة كان العري يمثل لتيريزا علامة التماثل الإجباري لمعسكر الاعتقال، علامة الذل.

ثمة شيء آخر مرعب في بداية حلمها: كان على جميع النساء أن يغنين! لم تكن إذاً أجسادهن متشابهة فقط ورخيصة بالتساوي، ومجرد آلات صوتية خالية من الروح، إنما كانت النساء، إلى ذلك، مغتبطات بأنفسهن! كان ذلك هو التضامن المتهلل لمن هن دون روح. كن سعيدات فهن أنزلن عن أكتافهن حمل الروح، تلك الصورة الخداعة للتفرد. وذلك الكبرياء المضحك، وها قد أصبحن جميعهن متشابهات. كانت تيريزا تشاركهن الغناء لكن من غير شعور بالغبطة. كانت تغني لأنها كانت خائفة من أن تقتلها النساء لو أنها لم تغنِّ.

ولكن ما معنى أن توماس كان يطلق عليهن الرصاص من مسدسه فيرديهن قتيلات ويسقطن الواحدة تلو الأخرى في البركة؟

النساء المغتبطات، لكونهن يتشابهن تماماً ولا يتمايزن بشيء فيما بينهن، كن في الحقيقة يحتفلن بموتهن المقبل الذي سيجعل تشابههن مطلقاً. ولم تكن فرقعة الطلقة النارية إلا الخاتمة السعيدة لمشيهن الجنائزي. كن يضحكن متهللات لكل طلقة مسدس، ثم يتصاعد غناؤهن بقوة أكبر حين تنزلق إحدى الجثث ببطء في الماء.

ولماذا كان توماس بالذات هو الذي يطلق النار؟ ولماذا أيضاً كان يريد أن يطلق النار على تيريزا؟

لأنه هو الذي أرسلها إلى هناك وسط أُولئك النساء. هذا ما كان الحلم يريد أن يقوله لتوماس، لأن تيريزا لا تعرف أن تقول ذلك بنفسها. لقد جاءت لتعيش معه هاربة من عالم أمها حيث جميع الأجساد متساوية. جاءت لتعيش معه آملة أن يصبح جسدها فريداً وغير قابل للاستبدال. لكن، ها هو بدوره يرسم بنفسه الإشارة التي تساويها بالأخريات: فهو كان يقبّلهن جميعاً بالطريقة نفسها ويغدق عليهن المداعبات ذاتها ولم يكن هناك فرق واحد، ولا فرق، أيّ فرق بين جسد تيريزا والأجساد الأخرى. كان قد أعادها إلى العالم الذي ظنّت أنها أفلتت منه، أرسلها لتسير عارية في ركب النساء العاريات.

16

كانت ترى بالتناوب ثلاث دفعات من الأحلام: كانت الدفعة الأولى حيث تعاقبها الهررة بشراسة، تعبّر عما كانت تعانيه وهي على قيد الحياة. والدفعة الثانية التي تُظهر صوراً متعددة شتّى بشأن إعدامها. أما الدفعة الثالثة فكانت تحكي عن حياتها في العالم الآخر، حيث يصبح الذل حالة أبدية.

لم تكن هذه الأحلام بحاجة إلى حلّ رموزها، فهي توّجّه اتهاماً واضحاً إلى توماس، واضحاً إلى درجة أن توماس لم يعد له من حيلة سوى الصمت ومداعبة تيريزا وهو مطأطأ الرأس.

زد على ذلك أن هذه الأحلام، إلى فصاحتها، كانت جميلة. لقد أغفل فرويد هذا الجانب في نظريته عن الأحلام. فالحلم ليس فقط بلاغاً (بلاغاً مرموزاً عند الاقتضاء) بل هو أيضاً نشاط جمالي ولعبة للخيال. وهذه اللعبة هي بحد ذاتها قيمة. فالحلم هو البرهان على أن التخيل وتصوّر ما ليس له وجود، هو إحدى الحاجات الأساسية للإنسان، وهنا يكمن أصل الخطر الخادع الكامن في الحلم. فلو أن الحلم ليس جميلاً، لأمكننا نسيانه بسهولة. لذلك، كانت تيريزا ترجع باستمرار إلى أحلامها وتعيدها في مخيلتها وتختلق منها أساطير. أمّا توماس فكان يعيش في كنف السحر المنوّم، سحر الجمال الأليم لأحلام تيريزا.

في ذات يوم، قال لها فيما كانا جالسين أمام طاولة في إحدى الحانات: «تيريزا، حبيبتي تيريزا، أنت تبتعدين عني. إلى أين تبغين الذهاب؟ تحلمين كل يوم بالموت كما لو أنك راغبة فيه حقاً..».

كان النهار مشرقاً، وكان العقل والإرادة قد أمسكا الدفة من جديد. كانت نقطة من النبيذ الأحمر تسيل ببطء على حافة الكأس فيما تيريزا تقول: «ليس في استطاعتي حيلة. أفهم كل شيء وأعرف أنك تحبني. أعرف أيضاً أن خياناتك لا تحمل أي طابع مأساوي...».

كانت تنظر إليه بحب ولكن يتملكها الخوف من المساء الآتي، الخوف

من أحلامها، فحياتها مقسومة إلى شطرين، والليل والنهار يتزاحمان للتأثير عليها.

17

من يبغي «الارتقاء» باستمرار، عليه أن يستعد يوماً للإصابة بالدوار. لكن ما هو الدوار؟ أهو الخوف من السقوط؟ ولكن لماذا نصاب بالدوار على شرفة السطح حتى ولو كانت مزودة بدرابزين متين؟ ذلك أن الدوار شيء مختلف عن الخوف من السقوط. إنه صوت الفراغ ينادينا من الأسفل فيجذبنا ويفتننا. إنه الرغبة في السقوط التي نقاومها فيما بعد وقد أصابنا الذعر.

موكب النساء العاريات حول البركة، الجثث المغتبطة بموت تيريزا في عربة الموتى، كل ذلك يؤلف الهاوية التي ترعبها والتي هربت منها ذات مرة ولكنها تجذبها في آن بطريقة غامضة. كان هذا هو دوارها. كانت تسمع نداء عذباً للغاية (فرحاً تقريباً) يدعوها للتخلي عن القدر والروح، يدعوها للتضامن مع من هن دون روح. وكانت، في لحظات الضعف، ترغب في التجاوب معه والعودة إلى أمها. كانت ترغب في أن تعيد طاقم النفس من على جسر جسدها إلى مكانه، وأن تنزل للجلوس وسط صديقات أمها، وتضحك إن أفلتت الواحدة منهن أو الأخرى ضراطاً رنّاناً، وأن تمشي عارية في ركبهن، حول البركة وهي تغنّي.

18

كانت تيريزا على خلاف مع أمها قبل رحيلها عن العائلة، هذا صحيح. لكن لا ننسى أنها كانت تحب أمها مع ذلك حبّاً يائساً. كانت على استعداد لفعل أي شيء من أجلها، لو أنها فقط طلبت ذلك منها بلهجة الحب. وعدم سماعها لهذه اللهجة هو الذي أمدّها بالقوة للرحيل.

ولقد فهمت الأم أن عدائيتها لم تعد تنفع مع ابنتها، فأرسلت لها

رسائل مجرية للدموع، حيث كانت تشتكي من زوجها ورب عملها وصحتها وأطفالها، وتقول إن تيريزا هي الكائن الوحيد الذي تبقّى لها في هذا الوجود. خيّل إلى تيريزا أنها سمعت في آخر الأمر لهجة الحب الأمومي التي كانت تتوق إليها طيلة عشرين سنة، فشعرت برغبة في العودة. كانت هذه الرغبة تزداد كلّما أحسّت أنها ضعيفة. فخيانات توماس كانت تكشف لها في الحال عجزها. ومن هذا الشعورِ بالعجز يولد الدوار، هذه الرغبة الهائلة في السقوط.

خابرتْها الأم وقالت لها إنها تعاني من السرطان ولم يتبق لها غير أشهر قليلة تعيشها. فتحوَّل اليأس الذي كانت تغرقها فيه خيانات توماس، على إثر هذا الخبر، إلى تمرد. كانت تلوم نفسها لأنها خانت أمها في سبيل رجل لا يحبها. كانت على استعداد لنسيان ما عانته من أمها، ومستعدة الآن لتفهمها ولو كانت أمها شريرة في السابق، فهذا فقط لأنها كانت تعيسة للغاية.

أخبرت توماس عن مرض أمها، ثم أعلمته أنها ستأخذ عطلة أسبوع لتذهب لرؤيتها. وقالت ذلك بلهجة متحدية.

وكما لو أن توماس قد حزر بأن الدوار هو الذي يشدّ تيريزا الآن إلى أمها، فهو لم يوافق إذاً على هذه الرحلة. اتصل بمستوصف المدينة الصغيرة، لأنّ سجلات الفحوص السرطانية في بوهيميا مفصلة بشكل وافٍ، فَتَمَكّنَ من التحقق بسهولة من أن أم تيريزا لا تعاني من أية عوارض سرطانية وأنها لم تستشر طبيباً حتى منذ سنة.

أذعنت تيريزا له ولم تذهب لرؤية أمها، ولكنها في اليوم نفسه سقطت أرضاً في الشارع. صارت مشيتها متعثرة تسقط كل يوم تقريباً، ترتطم، تُفلت الشيء الذي تمسكه، من يدها. كانت تشعر برغبة لا تقاوم في السقوط، وتعيش في دوار مستديم.

ذلك الذي يسقط يقول: «انتشلني!». وبصبر ودأب كان توماس ينتشلها.

19

«أود لـو أمارس الحب معـك في محترفي وكـأننـا على حلبـة مسـرح. سكيون هناك أناس حوالينا ولن يكون لهم الحق في الاقتـراب منا، لكنهم لن يستطيعوا مع ذلك إشاحة أبصارهم عنا...».

مع مرور الوقت، أخذت القساوة الأولية لهـذه الصورة تبهت، وبـدأت تثيرها. مرّات عديدة كانت تهمس بهذا الكلام لتوماس أثناء المضاجعة.

كانت تقول في نفسها إن ثمة وسيلة لـلإفلات من العقـوبة التي تمليهـا عليها خياناته: أن يصطحبها معه إلى عند عشيقـاته! ربمـا بفضل هـذه الحيلة سيـرجع جسـدها فـريداً ولا مثيـل له بين الأجسـاد. وسيصير جسـدها وكـأنه شخص توماس بالذات وبديلاً له ومعاونه.

تعانقا. وهمست لـه: «سأعـريهن لك وأغسلهن في المغـطس وأهيئهن لك...». كانت تـرغب في أن يتحولا إلى مخلوقين مـزدوجي الجنس، وأن تصير أجساد النساء لعبتهما المشتركة.

20

أن تصير شخصه الثاني في حياته المزدحمـة بالنسـاء! لم يكن تومـاس راغبـاً في أن يفهم ذلك. لكنهـا لم تكن تستطيـع التخلص من هذه الفكـرة، فحاولَتْ التقرب من سابينا، وعرضت عليها أن تأخذ لها صوراً.

دَعَتْها سابينا إلى محترفهـا وتعرفت تيـريزا أخيـراً على الغرفـة الفسيحة التي ينتصب السرير الواسع المربع في وسطها وكأنه منصة.

«كم هو معيب أنك لم تأتِ إلى زيارتي بعد!»، قالت سابينا وهي تريها اللوحات المصطفة قرب الحائط. ثم أخرجت لوحة قديمة كانت رسمتها وهي لا تزال طالبة، وكانت تمثل ساحة تعمير لمصاهر الحديد. رسمتها عندما كان معهـد الفنون الجميلة يصـر على الالتزام بـالـواقعيـة الأكثـر صـرامـة (فـالفن اللاواقعي كان يعتبر بمثابة محاولة لتدمير الاشتراكية). وكانت سـابينا، بـدافع

من ميلها الرياضيّ للرهان، تحاول جاهدة في أن تكون أشد صرامة من أساتذتها. كانت طريقتها في الرسم حينها تعتمد على الخطوط الدقيقة جداً، مما يجعل لوحاتها شبيهة بالصور الملونة.

«هذه اللوحة بالذات، ألحقْتُ الضرر بها حين سال طلاء أحمر فوقها. في البداية غضبت ولكن هذه اللطخة أخذت تعجبني ويخيَّل للناظر بأنها صدْع. كأن ساحة التعمير لم تعد ساحة تعمير واقعية إنما ديكور عتيق متصدع يعطي عن بُعد وَهم الحقيقة. ثم بدأت ألهو بهذا الصدع وأوسِّعه وأتخيل ما يمكن أن يُرى من خلاله. وبهذه الطريقة رسمت سلسلة لوحاتي الأولى التي سميتها «ديكورات». من البديهي أنه لم يكن يُفترض بأحد أن يراها، وإلا لطُردت من المعهد. نرى في المقدمة، ضمن هذه اللوحات، عالماً واقعياً تماماً، أما في الخلف، كما على قماشة خلفية ممزَّقة لديكور مسرحي، فنرى شيئاً ما مختلفاً، شيئاً غامضاً أو تجريدياً».

توقفت عن الكلام ثم أضافت: «في المقدمة الكذب المحسوس وفي الخلف الحقيقة التي لا يُدرك كنهها».

كانت تيريزا تصغي إليها بانتباه غريب يشبه ذلك الانتباه الذي نادراً ما يتسنى لأستاذ أن يصادفه على وجه أحد التلامذة. واستنتجت أن جميع لوحات سابينا، لوحاتها السابقة ولوحاتها الحالية، تتحدث في الواقع عن الشيء نفسه باستمرار. فكلُّها تعبر عن التلاقي المتزامن بين موضوعين أو بين عالمين، وكأنها صور طالعة من عرض مزدوج. في المقدمة منظر ما، وفي الخلف يتراءى بشفافية، مصباح سرير أو يَد طالعة من طبيعة نموذجية ميتة مؤلفة من تفاح وجوز وشجرة ميلاد مضاءة.

شعرت فجأة بالإعجاب حيال سابينا. وكما أن الفنانة كانت متوددة للغاية، أخذ هذا الإعجاب، الذي لا تشوبه الخشية أو الحذر، يتحول إلى استلطاف.

لوهلة نسيت أنها أتت لتأخذ صوراً لسابينا، فاقتضى أن تذكرها سابينا بذلك. أشاحت بنظرها عن اللوحات فرأت السرير منتصباً كمنصة وسط الغرفة.

21

كانت هناك قرب السرير طاولة وعلى هذه الطاولة قاعدة على شكل رأس، تشبه تلك التي يستعين بها المزيّنون لعرض الشعور المستعارة. قاعدة سابينا لا تحمل باروكة بل قبعة. قالت سابينا وهي تبتسم: «هذه القبعة ورثتها عن جدي».

لم ترَ تيريزا مثل هذه القبعات السوداء والمستديرة الصلبة من قبل، إلا في السينما. كان شارلي شابلن يرتدي دائماً واحدة تشبهها. ابتسمت بدورها وأمسكت القبعة، ثم تفحصتها طويلاً وقالت: «هل ترغبين في أن أصوّرك وأنت ترتدينها؟».

أجابت سابينا مطلقة ضحكة صاخبة. ألقت تيريزا القبّعة جانباً ثم قبضت على «كاميرتها» وشرعت تلتقط الصور.

بعد أقل من ساعة، قالت: «ماذا لو صورتك عارية؟

ـ عارية؟ قالت سابينا.

ـ نعم. قالت تيريزا مرددة اقتراحها بلهجة حازمة.

ـ يجدر بنا أن نشرب والحالة هذه»، قالت سابينا: ثم ذهبت لتفتح قنينة نبيذ.

كانت تيريزا تشعر بشيء من الانقباض. كانت صامتة فيما سابينا تجول الغرفة وهي تمسك الكأس بيدها وتتحدث عن جدها الذي كان مختاراً لمدينة صغيرة في الريف. لم تكن سابينا تعرفه. كل ما تبقى من ذكراه هذه القبعة وهذه الصورة حيث نرى وجهاء واقفين على منصة. وأحد هؤلاء الوجهاء كان جد سابينا. لا أحد يعرف بالضبط ماذا كانوا يفعلون هناك. فربّما كانوا يشاركون في احتفال أو يدشنون نصباً تذكارياً لوجيه ما كان يلبس هو أيضاً قبعة في مناسبات احتفالية.

تكلمت سابينا بإسهاب عن القبعة وعن جدها. ثم، بعد أن أفرغت كأسها الثالثة، قالت: «انتظريني دقيقة» واختفت في غرفة الحمام.

ثم رجعت وهي ترتدي مئزراً. أمسكت تيريزا آلة التصوير وألصقتها على عينها. فخلعت سابينا المئزر.

22

كانت آلة التصوير تقوم مقام عينٍ آلية لتيريزا تراقب من خلالها عشيقة توماس، وأيضاً مقام حجابٍ تستر به وجهها.

استغرقت سابينا وقتاً طويلاً لتقرر خلع مئزرها، إذ كان الموقف أصعب مما تصورت. ثم، بعد مرور بضع دقائق، اقتربت من تيريزا وقالت: «الآن جاء دورك لأصورك أنت. اخلعي ثيابك».

كانت هذه الكلمات «اخلعي ثيابك» والتي سمعتها مراراً من فم توماس، محفورة في ذاكرتها. والآن ها هي عشيقة توماس توجّه هذا الأمر للزوجة. وهكذا فإن المرأتين تربط بينهما الجملة السحرية نفسها. . كانت تلك طريقة توماس في أن يجعل حالة جنسية تولد على حين غفلة من حديث تافه: ليس عن طريق المداعبات أو اللمسات أو الإطراء أو الرجاء، بل من خلال أمر ينطق به بغتة وارتجالاً لكن بلهجة حازمة ومستبدة وبعيدة ولم يكن عندها ليَمُسّ قط المرأة التي يتوجه إليها. وحتى لتيريزا، كان يقول مراراً وبالنبرة نفسها بالضبط: «اخلعي ثيابك!». وعلى الرغم من أنه كان يسرّ ذلك بنبرة رقيقة هامسة، فإن هذه الكلمات كانت أمراً، وكانت تشعر دائماً أنها مهتاجة لمجرد الإذعان لها. بيد أنها كانت تسمع لتوها هذه الكلمات نفسها، كانت رغبتها في الخضوع تكبر على قدر ما كانت تشعر أن إذعانها هذا لشخص غريب إنما هو جنون مطبق. . وهذا الجنون يزداد حلاوة نظراً إلى أن الأمر صادر ليس عن رجل، بل من امرأة.

انتشلت سابينا الآلة من يدي تيريزا فخلعت تيريزا ثيابها. كانت تقف عارية وعزلاء. عزلاء تماماً لأنها جُرّدت من الآلة التي استعملتها لتحجب وجهها، والتي كانت تشهرها نحو سابينا وكأنها سلاح. الآن كانت تحت رحمة عشيقة توماس، وكان هذا الإذعان الجميل يُسكرها. ليت هذه اللحظات التي تقف فيها عارية أمام سابينا لا تنتهي أبداً!.

في اعتقادي أن سابينا أيضاً شعرت بسحر الموقف الغريب، حين رأت أمامها زوجة عشيقها منقادة وخجلة بطريقة عجيبة. ضغطت على المسيّب مرتين أو ثلاثاً. ثم، وقد ارتعبت من هذا السحر، ضحكت بأعلى صوتها لتبدده في أقصر مهلة.

وضحكت تيريزا أيضاً. ثم ارتدتا ثيابهما من جديد.

23

ارتكبت جميع الجرائم السابقة في الأمبراطورية الروسية في حمى ظلمة من الكتمان. فَنُفْيُ نصف مليون من سكان «لتوانيا» وقتل مئات الآلاف من البولونيين وصُفِّي التتر في «كريميه»، كل هذه الجرائم بقيت في الذاكرة من دون صور تقيم الدليل على وقوعها، فبقيت إذاً كشَيء متعذر إثباته وسيتمّ إظهارها عاجلاً أم آجلاً وكأنها محض اختلاق.

أما اجتياح تشيكوسلوفاكيا في سنة ١٩٦٨، فهو بخلاف ذلك، قد جرى تصويره ونقله إلى السينما، وهو موجود في دوائر الوثائق في العالم أجمع.

استغلّ المصورون التشيكيون الفرصة التي أعطيت لهم وقاموا بالعمل الوحيد الذي كان بإمكانهم القيام به: الاحتفاظ بصورة الاغتصاب للمستقبل البعيد. أمضت تيريزا الأيام السبعة تلك في شوارع براغ وهي تلتقط صوراً لجنودٍ وضباط من الروس في أوضاع مشبوهة مختلفة. ولم يكن الروس مستعدين لمثل هذا الأمر. فالتعليمات التي كانوا تلقّوها واضحة وهي تُعنى بالطريقة التي عليهم أن يتبعوها فيما لو أُطلق عليهم الرصاص أو قُذفوا بالحجارة. ولكن لم يعلّمهم أحد من قبل كيفية التصرف حيال الكاميرا.

قامت تيريزا بالتقاط مئات الأفلام من الصور. وزّعت نصفها تقريباً على صحافيين أجانب في شكل بكرات للتظهير (كانت الحدود لا تزال مفتوحة والصحافيون يتوافدون من الخارج، لذهابٍ وإيابٍ على الأقل، وكانوا يأخذون بامتنانٍ أدنى الوثائق. تُنشر العديد من صورها في مختلف المجلات الأجنبية، وهي عبارة عن صور دبابات، وقبضات متوعدة، ومبانٍ مدمرة،

ومـوتى مغطين بعلم دامٍ مثلث الألـوان، وشبـاب منـطلقين بـأقصى سـرعتهم ملوّحين للدبابات بالأعلام التشيكية المرفوعة في نهاية عصى طـويلة، وفتيات في مطلع صباهن مرتديـات تنانيـر قصيرة جـداً وهن يقبلن المارة المجهـولين أمام أعين الجنود الروس التعساء والمتعطشين للجنس. فالاجتيـاح الـروسي، تكرر، لم يكن مأساة فحسب، إنما كـان أيضاً عيـداً للحقد الـذي لن يتسنى لأحدٍ أبداً أن يفهم هناءته الغريبة.

24

أخذت معها إلى سـويسرا خمسين صـورة وأظهرتهـا بنفسها بعنـاية وفن فـائقين. ثم ذهبت تعـرضهــا على مجلة واسعـة الانتشـــار. استقبلهـا رئيس التحرير بالترحاب (كان التشيكيون يحملون كلّهم فوق رؤوسهم هالة الشقاء، وكـان ذلك يؤثـر في قلوب السويسـريين الطيبين). ثم دعـاهـا للجلوس على كنبة، تفحص الصور وأبـدى إعجابـه بها وقـال أن لا حـظ لهـا في أن تُنشر («على الرغم من أنها جميلة») فالحدث قد أضحى بعيداً جداً الآن.

اعتـرضت تيريـزا: «ولكن في براغ، لم ينتـهِ شيء بعـد»، حـاولت أن توضح في لغة ألمانية رديئة أن هناك في بلدها المحتـل كانت تُنشـأ، في هذا الوقت بالذات وبالرغم من كل شيء، تجمعات عمالية داخل المصـانع. وأنَّ الطلاب لا يزالون يُضربـون احتجاجـاً على الاحتلال، وأن البلد بـرمته يتـابع حيـاته كمـا في السابق. وهـذا بالضبط مـا هـو غيـر معقـول! ولم يكن أحـد يهتم!.

أحسّ رئيس التحـرير بـالارتياح حين دخلت امـرأة نشيـطة إلى الغـرفـة فقـطعت الحديث وهي تعـطيه ملفـاً: «أحمـل لـك ريبـورتـاجـاً عن شـاطىءٍ للعراة».

خشي رئيس التحرير اللبق من أن تجد هذه التشيكية التي كانت تصـوّر الـدبابـات، صورة لأنـاس عراة تمـاماً على شـاطىء، شيئاً مستهجنـاً. فأزاح الملف بعيداً حتى حافة الطاولة وسارع يقول إلى القادمة الجديـدة: «أعرّفـك على زميلة من براغ. أحضرت لي صوراً رائعة».

صافحت المرأة تيريزا وأخذت الصور.

«خلال هذا الوقت، أنظري إلى صوري».

أكبَّت تيريزا على الملف وأخرجت منه الصور.

قال رئيس التحرير لتيريزا بلهجة يشوبها الذنب: «إنها متناقضة تماماً مع صورك، أنت».

أجابت تيريزا: «بل على العكس! مثلها تماماً».

لم يفهم أحد ما تعنيه هذه الجملة. وأنا أيضاً وجدْتُ صعوبة في أن أفسر ما كانت تريد تيريزا أن تقوله عندما قارنت شاطئاً للعراة بالاجتياح الروسي. أخذت تقلّب الصور وتوقفت طويلاً عند صورة فيها عائلة مؤلفة من أربعة أشخاص: الأم عارية تماماً منحنية فوق أولادها وثدياها الضخمان يتدليان مثل ضروع عنزة أو بقرة. وفي الخلف الأب منحني أيضاً إلى الأمام وخصيتاه شبيهتان بضرعيْن منمنمين.

ـ «ألا تعجبكِ الصور؟ سأل رئيس التحرير».

ـ «إنها مصوَّرة بشكل جيد».

ـ «أعتقد أن الفكرة تصدمها»، قالت المصوِّرة. ما أن نراكِ حتى نخمّن مسبقاً أنك لم تذهبي إلى شاطىء للعراة.

ـ بالطبع لا، قالت تيريزا.

وابتسم رئيس التحرير: نعرف في الحال من أي بلد أنت. غريب كم هي متزمتة البلدان الشيوعية!».

أضافت المصوّرة بتحبّب أمومي: «أجساد عارية. ولكن هذا أمر طبيعي جداً! وكل ما هو طبيعي جميل!».

تذكرت تيريزا أمها وهي تتجول في الشقة عارية. كانت تسمع الآن الضحكة التي واكبتها حين هرعت لتنزل الستائر خائفة من أن يرى أحد أمها وهي عارية تماماً.

25

دعت المصوّرة تيريزا لشرب فنجان قهوة في الحانة.

ـ «صورك مثيرة جداً للاهتمام. لاحظت أنك تصورين الجسد الأنثوي بإحساس خارق. تعرفين بماذا أفكر؟ بهؤلاء الفتيات اللواتي صورتهن في أوضاع مثيرة!.

ـ العشاق الذين يتبادلون القبل أمام الدبابات الروسية؟

ـ أجل. بإمكانك أن تصبحي مصوِّرة لافتة للموضة. يفترض بك، بالطبع أن تتعاوني مع عارضة، ومن الأفضل أن تكون مبتدئة مثلك. من ثمَّ تقومين بالتقاط بعض الصور وتعرضينها على أحد المكاتب. ومن البديهي أنه يلزمك بعض الوقت لتلمعي. خلال ذلك يمكنني أن أساعدك. سأعرّفك إلى صحافي مسؤول عن زاوية «حديقتك». ربما قد يكون في حاجة إلى صور لصبّيريات وورود، وأشياء من هذا القبيل.

ـ «شكراً جزيلاً». قالت تيريزا بصدق وقد أحسّت أن المرأة الجالسة قبالتها مفعمة بالنوايا الطيبة.

ثم فكرت لتوّها: لكن لماذا عليَّ أن أصور صبّاراً؟ كانت تنفرها فكرة أن تبدأ من جديد ما قامَت به في براغ آنفاً: أن تناضل من أجل وظيفة وفي سبيل كل صورة منشورة. فهي لم تكن قط في حياتها طموحة بدافع التباهي. كل ما كانت ترغب فيه مفاده أن تفلت من عالم أمها. أجل، اكتشفت ذلك فجأة بوضوح تام: صحيح أنها مارست عملها كمصوِّرة بكثير من الحماس، ولكن كان بإمكانها أن توظّف هذا الحماس نفسه في أي عمل آخر. فمهنة التصوير لم تكن إلا وسيلة «لترتقي» وتعيش في كنف توماس.

ثم قالت: «أتعرفين، زوجي طبيب وبإمكانه أن يُعيلني. لا أحتاج إلى مهنة التصوير».

أجابت المصوّرة: «لست أفهم كيف تقدرين على التخلي عن مهنة التصوير بعدما حققت صوراً جميلة كهذه!».

نعم، صور أيام الاجتياح شيء آخر. لم تلتقط تلك الصور من أجل توماس بل كانت التقطتها مدفوعة بالشغف، ليس شغف التصوير بل شغف الحقد. وتلك الحالة لن تتكرر ثانية: على أية حال، هذه الصور التي التقطتها بشغف لم يكن أحد ليقبل بنشرها، لأنها لم تعد معاصرة. وحده الصبّار معاصر باستمرار، والصبّار لا يثير اهتمامها.

قالت: «هذا لطف منك. لكني أفضل البقاء في المنزل. لست بحاجة إلى العمل».

قالت المصوِّرة: «لكن هل يرضيكِ أن تبقي في المنزل؟».

ـ «أفضّل ذلك على تصوير الصبّار»، قالت تيريزا .

قالت المصوّرة: «حتى ولو قمتِ بتصوير الصبّار، فهذه حياتك أنت. أما إذا كنت تعيشين فقط لزوجك فهذه ليست حياتك».

أحسّت تيريزا فجأة بالانزعاج: «حياتي هي زوجي، لا الصبّار».

أخذت المصوّرة تتكلم بشيء من الاحتداد: «هل تريدين بذلك أن تفهميني بأنك سعيدة؟».

قالت تيزيزا (أيضاً بانزعاج): «لكني سعيدة، بالطبع!».

قالت المصوِّرة: «عندما تتفوه امرأة بهذه الكلمات فهي حتماً...»، وفضّلَتْ ألّا تكمل الجملة.

فأكملتها تيريزا: «تريدين القول: حتماً محدوداً جداً».

تمالكت المصوِّرة نفسها ثم قالت: «لا، لم أقصد أن أقول محدودة بل عتيقة».

قالت تيريزا بهيئة حالمة معك حق. «هذا ما يقوله عني زوجي بالضبط».

26

ولكن توماس كان يمضي أياماً بطولها في العيادة، فيما هي كانت تبقى لوحدها في البيت. لحسن الحظ أن هناك كارينين وبإمكانها أن تصطحبها في نزهات طويلة! كانت تجلس، حين تعود إلى البيت، أمام كتاب لتعليم اللغة الألمانية أو الفرنسية. ولكنها كانت مصابة بالكرب وغير قادرة على التركيز. كانت تفكر مراراً في الخطاب الذي ألقاه دوبتشك عبر الراديو لدى رجوعه من موسكو. لم تكن تتذكر أي كلمة قالها بالتحديد ولكن لهجته المتأتئة كانت تطن في أذنيها. كانت تفكّر في الذي حدث له. كان أوقفه جنود غرباء في بلد هو رئيسها، ثم اختطفوه واحتجزوه طيلة أربعة أيام في مكان ما في جبال أوكرانيا، وأفهموه هناك أنهم سيقتلونه كما قتلوا قبل اثنتيْ عشرة سنة نظيره البلغاري إيمري ناجي. بعدها نقلوه إلى موسكو وأمروه بأن يستحم ويحلق لحيته ويرتدي ثيابه ويضع ربطة عنق. ثم عادوا وأعلموه أن مصيره لم يعد بين يدي فصيلة الإعدام وأجبروه على أن يعتبر نفسه من جديد رئيساً للبلاد وأجلسوه أمام طاولة قبالة بريجنيف وأرغموه على التفاوض.

رجع مذلولاً وتحدث إلى شعب مذلول. كان مذلولاً إلى درجة لم يستطع معها الكلام. وتيريزا لن تنْسى، ما عاشت، وقفاته الثقيلة في منتصف الجمل. أكان منهوك القوى؟ أم مريضاً؟ هل أعطوه مخدرات؟ أم هل كان يائساً؟ إذا لم يبق شيء من دوبتشك فستبقى تلك الفترات الطويلة الفظيعة من الصمت حين كان يحاول أن يستعيد أنفاسه أمام شعب بأكمله ملتصقٍ بأجهزة الراديو. ففي فترات الصمت هذه يكمن كل الذعر الذي نزل بالبلاد.

كان ذلك في اليوم السابع للاحتلال. سمعت هذا الخطاب من غرفة التحرير لمجلة أصبحت في تلك الأيام الناطقة باسم المقاومة.. في ذلك الوقت، كان كل الذين في الغرفة يستمعون إلى دوبتشك، يحتقرونه ويحقدون عليه لأنه قَبِل بالتسوية، ويشعرون أنهم مذلولون لإذلاله، وأن ضعفه كان يُهينهم.

الآن وهي تفكر في تلك اللحظات في زوريخ، لم تكن تشعر بأي

احتقار لدوبتشك. ثم إن كلمة ضعف لم يعد لها وقع الجناية. كلنا ضعفاء في مواجهة قوة أعظم منّا. حتى ولو كنا نملك جسداً مفتولاً مثل جسد دوبتشك. أخذ هذا الضعف، الذي كان يبدو لها فيما مضى منفّراً وغير محتمل، هذا الضعف الذي جعلها تغادر البلاد، يُغويها فجأة. كانت قد بدأت تفهم أنها تنتمي إلى الضعفاء، إلى معسكر الضعفاء، إلى بلد الضعفاء، ويفترض بها أن تكون وفية لهم. لا لشيء إلا لمجرد أنهم ضعفاء ولأنهم يستعيدون أنفاسهم في أواسط الجمل.

كان هذا الضعف يغويها كما قد أغواها الدوار من قبل، يغويها لأنها كانت تشعر أنها هي أيضاً ضعيفة. فهي من جديد تتآكلها الغيرة، ومن جديد يداها تأخذان بالارتجاف، تنبّه توماس للأمر وقام بحركته المألوفة: أمسك يديها وأخذ يضغط بأصابعه ليهدىء من ارتجافها. فأفلتت منه.

ــ «ما بالك؟

ــ لا شيء.

ــ ماذا تريدين أن أفعل من أجلك؟

ــ أريدأن تصير عجوزاً، أن تكون أكبر بعشر سنوات، أكبر بعشرين سنة!».

وكانت تريد أن تقول: أريد أن تصير ضعيفاً، ضعيفاً قدر ما أنا ضعيفة.

27

لم تكن كارينين قد استحسنت مطلقاً الرحيل إلى سويسرا، فهي كانت تكره التغيير. فالزمن، بالنسبة لكلبة، لا يجري ضمن خط مستقيم، ولا يؤدي مساره تبعاً لحركة متواصلة نحو الأمام، ومتقدمة أكثر فأكثر، ومنتقلة من شيء إلى آخر، بل يرسم حركة دائرية تشبه حركة عقارب الساعة، إذ أن عقارب الساعة لا تتقدم بجنون إلى الأمام إنما تدور بشكل دائري على مرّ الأيام على ميناء الساعة ووفقاً للمسار ذاته. كان يكفيهما في براغ أن يشتريا كنبة جديدة

أو أن يغيّرا مكـان إناء الزهور، حتى تحتج كـارينين على ذلك. فـإحساسهـا بـالزمن كـان يختل عنـدئذ. وهـذا ما يحصـل للعقارب تمـاماً فيمـا لو غيّـرنا باستمرار الأرقام الموجودة على ميناء الساعة.

لكن كارينين مع ذلك نجحت في أن ترد نظام الوقت القديم والطقـوس القديمة إلى نصابها في الشقة في زوريخ. كانت كل صباح تلج إلى غرفتهـا، كُمـا كانت تفعـل في براغ، وتفتتـح نهارهمـا بقفزة على السـريـر، ثم تـرافق بعدها تيريزا في أولى جولاتها الشرائية الصباحية، وتفرض، كما كـانت تفعل في براغ، نزهتها اليومية.

كانت كارينين ساعة حياتهما. وكانت تيريزا تفكر في لحظات اليأس أن عليهـا أن تصمد من أجـل هذه الكلبـة لأنهـا أضعف منهـا وأضعف ربمـا من دوبتشك ومن وطنها المهجور.

كانتا راجعتين من النزهة حين رنَّ الهاتف. رفعت السّمّاعـة وسألت من المتكلم.

كان هناك صوت امرأة تتكلم بالألمانية وتسأل عن توماس. كان صوتهـا لجوجاً، وخُيّل إلى تيريزا أن نبرة احتقار تشوبه. وعندما قالت لهـا إن تومـاس خرج ولا تعرف متى سيرجع، انفجرت المرأة بالضحك في الخط المقابل ثم أقفلت السمّاعة دون أن تستأذن.

كانت تيريزا تعرف أنه يجدر بها ألاّ تعلّق أهمية على ذلك. فربّمـا هذه المـرأة ممرضـة في المستشفى أو مريضـة أو سكرتيـرة، لا فرق. ومـع ذلـك أحسّت أنهـا مضطربـة وغير قـادرة على التركيـز. فهمت أنهـا خسـرت القـوة القليلة الباقية لها عندما كانت في براغ، وأنها بـاتت عاجـزة عن احتمال هـذا الحادث الذي هو تافه على كل حال.

من يعش في الغربة يمـشِ في فضاء خاوٍ فوق الأرض مجرداً من شبكة الـرعايـة التي تحيط بها، كـل كائن بشـري، بلاده الأم حيث تـوجـد عـائلتـه وزملاؤه وأصدقاؤه، وحيث يستطيـع أن يتواصـل مع الآخـرين دون جهد، في اللغة التي يعرفها منذ الصغر. صحيح أن تيريزا كانت في براغ تابعة لتوماس،

لكن بقلبها فقط. أما هنا فهي تابعة له في كل شيء. ماذا سيصير بحالها فيما لو تركها؟ هل عليها أن تمضي ما تبقى من حياتها خائفة من أن يتركها؟

كانت تقول في نفسها إن لقاءهما كان مبنياً على الخطأ منذ البداية. فكتاب «آنا كارينين» الذي كانت تتأبطه في ذلك اليوم كان هوية مزيفة استخدمتها لتخدع توماس. لقد أوجد كلاهما، بالتناوب، جحيماً للآخر، حتى ولو كانا متحابين. كانا متحابين، صحيح، وذاك هو البرهان على أن الخطأ ليس صادراً عنهما ولا عن تصرفاتهما ولا عن مشاعرهما القابلة للتغير، إنما هو نتيجة لتنافر طباعهما، فهو كان قوياً وهي ضعيفة. كانت تشبه دوبتشك الذي يسجّل وقفة تستمر نصف دقيقة، في منتصف الجملة: كانت تشبه بلدها الذي يتأتىء ويستعيد أنفاسه ولا يقدر على الكلام.

ولكن، يجدر بالضعيف أن يتعلم كيف يكون قوياً، ويرحل عندما يصير القوي أضعف من أن يستطيع إيذاء الضعيف.

هذا ما كانت تقوله في نفسها. ثمَّ دفنت وجهها في شعر كارينين قائلة: «يجب ألا تغضبي مني يا كارينين. إذ سيكون علينا أن نغيّر مكان إقامتنا مرة أخرى بعد».

28

كانت تتجمع في إحدى زوايا المقصورة، حقيبتها موضوعة فوق رأسها، وكارينين متكورة عند قدميها. أخذتْ تفكّر في طاهي مشرب الجعة حيث كانت تعمل عندما كانت تقيم عند والدتها. لم يكن يفوّت فرصة إلا ليضربها على قفاها، وكان اقترح عليها أكثر من مرة وأمام الجميع بأن تضاجعه. كان أمراً غريباً أن تفكر فيه هو بالتحديد مع أنه يمثّل لها كلّ ما تكرهه. ولكنها تتملكها الآن فكرة واحدة مفادها أن تلتقيه وتقول له: «كنت تقول إنك ترغب في مضاجعتي. حسناً! ها أنذا».

كانت تنوي فعل شيء ما يمنعها من الرجوع إلى الوراء. كانت تنوي تدمير ماضي سنواتها السبع الأخيرة دفعة واحدة. فالدْوار رجع يراودها مثل

رغبة مسكرة، رغبة في السقوط لا تقاوم.

يمكنني القول ربَّما إن الإصابة بالدوار تعني أن يكون المرء سكران من ضعفه الخاص.. فهو يعي ضعفه لكنه لا يرغب للتصدي له بل الاسترسال فيه. ينتشي بضعفه الخاص فيرغب في أن يكون أكثر ضعفاً، يرغب في السقوط أمام أعين الآخرين في وسط الشارع، يرغب في أن يقع أرضاً، تحت الأرض بعد.

كانت تُقنع نفسها ألّا تبقى في براغ وألّا تعود للعمل كمصوّرة بل أن ترجع إلى المدينة الصغيرة التي اجتثها صوت توماس منها.

ولكنها حين رجعت إلى براغ، اقتضى الأمر أن تمكث بعض الوقت هناك من أجل ترتيب أمور عملية. وهكذا كانت تؤجل رحيلها إلى أن ظهر توماس فجأة في الشقة بعد خمسة أيام. كانت كارينين تقفز إلى وجهه مجنّبة إياهما ضرورة الكلام، لوقت طويل.

ثم اقتربا مثل عاشقين لم يتعانقا بعد.

سأل: «هل كل شيء على ما يرام؟

ــ نعم.

ــ هل ذهبتِ إلى المجلة؟

ــ اتصلت بهم.

ــ ماذا قالوا؟

ــ لا شيء. كنت أنتظر.

ــ ماذا؟».

لم تُجب. كانت غير قادرة على أن تقول له إنه هو من كانت تنتظره.

29

فلنعد إلى اللحظة التي سبق لنا أن عرفناها: كان توماس يائساً ومعدته تؤلمه. ولم ينم إلا في ساعة متأخرة.

بعد وقت قليل أفاقت تيريزا (كانت الطائرات الروسية تحلّق في سماء براغ، فيصعب النوم وسط هذه الضجة). وهذا أول ما فكّرت فيه: رجع من أجلها، من أجلها غيَّر مصيره. من الآن فصاعداً لن يعود هو المسؤول عنها بل ستكون هي أيضاً المسؤولة عنه!

ثم شعرت أن هذه المسؤولية فوق طاقتها.

ثم تذكرت: البارحة، عندما ظهر على باب الشقة، ما هي إلا لحظات قليلة ودقّت ساعة كنيسة في براغ تمام الساعة السادسة. وفي المرة الأولى التي التقيا فيها، أنهت خدمتها في الساعة السادسة. كانت تراه أمامها جالساً على مقعد أصفر عندما سمعت دق الأجراس.

لا، ليس هذا تطيّراً، إنما هو حسُّ الجمال وقد حرّرها فجأة من قلقها وأمدّها برغبة جديدة للعيش. مرةً أخرى كانت عصافير الصدفة تحط فوق كتفيها. كانت تبكي فرحة فرحاً لا حدّ له بأن تسمعه يتنفّس إلى جانبها.

القسم الثالث

الكلمات غير المفهومة

1

جنيف مدينة فوّارات وبرك. وحتى اليوم، لا نزال نرى في الحدائق العامة، الأكشاك حيث كانت تعزف الجوقات الموسيقية قديماً. . حتى أن الجامعة تختفي بين الأشجار. كان فرانز خارجاً من مبنى الجامعة وقد انتهى لتوّه من إعطاء محاضرته الصباحية. كان رذاذ الماء المتدفق من الدوّارات ينساب فوق المرجة وكان مزاج فرانز رائقاً. فهو سيذهب مباشرة من الجامعة إلى عند صديقته التي تسكن على بُعد بضعة شوارع من هنا.

كان يمرُّ بها غالباً ولكن دائماً بصفته مهتماً لأمرها لا بصفته عاشقاً. على افتراض أنه ضاجعها في المحترف، فالأمر سيغدو حينئذ بمثابة انتقال من امرأة إلى أخرى في اليوم ذاته، أي انتقال من الزوجة إلى العشيقة، ومن العشيقة إلى الزوجة. وبما أن الرجال والنساء ينامون في جنيف على الطريقة الفرنسية في سرير واحد، فإن الأمر يغدو والحالة هذه بمثابة انتقال في ساعات قليلة من سرير امرأة إلى سرير امرأة أخرى. وحسب رأيه، كان هذا مهيناً للعشيقة والزوجة على حدٍ سواء، ومهيناً له هو بالذات في الواقع.

كان حبُّه للمرأة التي يهيم بها منذ بضعة أشهر شيئاً ثميناً للغاية، بحيث أنه كان يبذل قصارى جهده في أن يجد لها فسحة مستقلة في حياته، مملكة نقاء لا تُطال. كان يُدعى كثيراً لإلقاء محاضرات في جامعات أجنبية، وكان الآن يقبل الدعوات كلها متلهفاً. . وبما أنها لم تكن متوفرة بالشكل اللاّزم فإنه كان يكمّلها بمؤتمرات وندوات وهمية لكي يبرر أسفاره أمام زوجته. أما صديقته التي كان يمكنها أن تتصرف بوقتها كما يحلو لها، فكانت تصطحبه

في أسفاره. وهكذا عرّفها خلال فترة قصيرة من الزمن على عدة مدن أوروبية ومدينة أميركية.

قـال:

ـ «في غضون عشرة أيام يمكننا الذهاب إلى باليرما، هذا إذا كنت غير معارضة».

ـ «أُفضِّل جنيف». كانت واقفة أمام الحمّالة تتفحص لوحة غير منجزة.

حاول فرانز أن يمازحها: «كيف يستطيع المرء أن يعيش وهو لا يعرف باليرما؟».

قالت: أعرف باليرما.

سألها بلهجة تشوبها الغيرة: ماذا؟

ـ أرسلَتْ لي صديقة بطاقة بريدية من هناك فألصقتها على حائط الحَمّام. ألم تلاحظها؟

ثم أضافت: اصغِ إلى حكاية هذا الشاعر الذي عاش في بداية القرن. كان عجوزاً للغاية وكان سكرتيره يقوم بتنزيهه. وذات يوم قال له: «ارفعْ رأسك يا سيدي وانظرْ، هذه أول طائرة تحلّق فوق المدينة!.

ـ فأجاب السيد سكرتيره دون أن يرفع عينيه: «أستطيع أن أتخيّلها». حسناً، أرأيت. أنا أيضاً أستطيع أن أتخيل باليرما.. ستكون فيها الفنادق نفسها والسيارات نفسها الموجودة في المدن كافة. أما في محترفي، فعلى الأقل اللوحات دائماً مختلفة .

اغتمَّ فرانز. كان اعتاد إلى حدٍ بعيد على هذا الرابط بين حياته العاطفية والأسفار التي عزم عليٍ القيام بها: «فلنذهب إلى باليرما»، بلاغ جنسي واضح. والجواب: «أفضل جنيف»، لا يمكنه أن يعني بالنسبة له إلا شيئاً واحداً: لم تعد صديقته راغبة به.

كيف يستطيع أن يبرر انعدام الثقة بالنفس هذا في حضرة عشيقته؟

ليس هنـاك ما يـدعوه للشـك في نفسه على هـذا النحو! وهي، لا هـو، التي مهدت لاكتساب صـداقته بعـد وقت قليل من لقـائهما. فهـو رجل وسيم وفي أوج مهنته العلمية، ويهابه زملاؤه حتى بسبب التفوق والعناد اللذين يظهـرهما في خلال مجادلاته مع الاختصاصيين. لماذا إذاً كان يعيد على نفسه كل يـوم أن صديقته ستتركه؟

لا أملك إلا تفسيـراً واحداً: لم يكن الحب بـالنسبة لـه امتداداً لحيـاته العلنية إنما هو نقيض لها. كـان الحب بالنسبـة له رغبـة في الاستسـلام لنيـة الآخر الطيبة ورأفته. فمن يمنح نفسه للآخر بالطريقـة التي يهب فيها الجندي نفسه، عليه أن يرمي مسبقاً كل أسلحته، وإذ يرى نفسه أعزل لا يمكنه عندئذ الامتنـاع عن التساؤل متى ستقـع الضربـة القاضيـة. يمكنني أن أقـول إذاً إن الحب بالنسبة لفرانز هو انتظار مستديم للضربة القاضية.

وفيمـا هو مستسلم لقلقـه، وضعت صـديقتـه ريشتهـا جـانبـاً وغـادرت الغرفة. رجعت بعد قليل وفي يدها زجاجة نبيذ. ثم فتحتها وصبَّت كأسين.

شعـر بحمل ثقيـل ينزاح عن صـدره. فالكلمـات: «أفضّـل جنيف» لم تكن تعني أنها لم تعد راغبـة في مضاجعتـه ولكن على العكس تمامـاً. كانت تعني أنها سئمت من أن تقتصر لقاءاتهما الحميمة على إقامات وجيزة في مدن أجنبية.

رفعت كأسها وأفرغته دفعة واحدة. ورفـع فرانـز كأسـه وشرب بـدوره. كان شعوره بالرضى يشتد بالطبع لاستنتاجه بأن رفضها بـالذهـاب إلى باليـرما هو في الواقع دعوة إلى الحب. لكنه من ثمَّ شعر بشيء من الأسى: ذلـك أن صديقته أخذت القرار بانتهاك قانون النقاء الذي كـان ضمّنه لعـلاقتهما. فهي لم تكن تدرك الجهود المضنية التي كان يبذلها في سبيل أن يحمي حبهما من التفاهة، ولكي يعزله تماماً عن العش الزوجي.

كان امتناعه عن مضاجعة عشيقته في جنيف قصاصاً فـرضه على نفسـه ليعاقبها جزاء زواجه من واحدة أخرى. وهو كان يتعامل مع هذا الوضع وكـأنه خطيئة أو عاهة. أما فيما يخص حيـاته العـاطفية مـع زوجته، فـلا شيء هناك

يستحق الذكر عملياً، باستثناء أنهما كانا ينـامان معـاً في السريـر، وكل واحـد منهما يوقظ الآخر بشخيره، وأنهما كانـا يتنشقان نتـانة جسـديهما المشتـركة. بالطبـع كان يفضـل النوم لـوحده ولكن السـرير المشتـرك يبقـى رمز الـزواج، والرموز كما نعرف لا تُمس.

كان كلَّما يندس في الفراش قـرب زوجته، يفكـر في عشيقته ويتخيلهـا تندس قربه في السرير مكان زوجته. كانت الفكرة في كل مرة تُخجله فيحاول أن يباعد بين السرير الذي ينام فيه مع زوجته، وبين السرير الذي يضاجع فيه عشيقته.

سكبت لنفسها كأساً آخر من النبيذ. شربت جرعة. ثم، دون أن تقـول كلمة وبلا مبالاة غريبة، وكأن فـرانز لم يكن مـوجوداً، نـزعت قميصها ببطء. كان تصرفها كمثل طالب يجري تمريناً ارتجالياً في فن التمثيـل، ويفترض بـه أن يظهر فيه كما لو كان وحيداً، ولا أحد يراه.

بقيت في التنورة والصدريـة، ثم (وكأنهـا تذكـرت فجأة أن هنـاك أحداً في الغرفة) شخصت طويلاً إلى فرانز.

كانت هذه النظرة تزعجه لأنه لم يكن يفهمها. هناك قواعد لعب تنتـظم سريعاً فيما بين العشاق دون أن يعوها، ولكنها تؤثر فيهم مثل سلطة القانـون، وعليهم ألا يخرقوها. أما تلك النظرة التي شخصت بها إليه فكانت متفلّتة من هـذه القـواعـد. ولم يكن هنـاك أي شيء مشتـرك بينهـا وبين النـظرات أو الحـركات التي تسبق عـادة عناقهمـا. كانت هـذه النظرة لا تعبّر عن تحـدٍّ أو إغراء بل يجول فيها سؤال مـا. ولكن فرانـز لم يكن يعرف إطـلاقاً عمّـا كانت تسائله هذه النظرة.

خلعت تنورتها. ثم أمسكت بيـده ودارت به بـاتجاه مـرآة كبيرة مسنـدة إلى الحـائط، على بُعد خـطوات قليلة، ثم، من دون أن تفلت يده، أخـذت تنظر إلى المرأة النظرة الشاخصة المتسائلة ذاتها، تارةً إليها وتارة أخرى إليه.

إلى جانب المرآة، على الأرض، كانت هناك قبعـة قديمـة معلقة فـوق دكـة تحمل رأسـاً مستعاراً. انحنت فـأمسكت القبعة ثم أدخلتهـا في رأسهـا،

فتغيرت الصورة للحال في المرآة: كانت هناك صورة لامرأة في ثيابها الداخلية، جميلة، لا تُطال، لا مبالية وعلى رأسها قبعة غير لائقة إطلاقاً.. وكانت تمسك بيدها رجلاً يرتدي بذلة رمادية ويضع ربطة عنق.

تعجَّب مرةً ثانية من أنه أساء فهم عشيقته. لم تتعرَّ من أجل أن تغريه بل لكي تتشيطن معه ولكي تلعب تمثيلية حميمة مرتجلة لهما وحدهما. فابتسم ابتسامة تفهّم وامتثال.

كان يعتقد أنها ستبتسم له هي أيضاً ولكن توقعه خاب. فهي لم تكن تترك يده بل كانت تجول بنظرها فيه وفي القبعة في المرآة.

تجاوزت مدة التمثيلية المرتجلة الحدود. كان فرانز يجد أن هذه الملهاة (التي كان يقرّ بأنها ساحرة على كل حال) قد طالت أكثر من اللازم. فأمسك القبعة الرجالية بين إصبعيه وانتزعها عن رأس سابينا وهو يبتسم، ثم علقها فوق القاعدة.. كان الأمر كمن يمحو شاربين رسمهما ولد عفريت على صورة مريم العذراء.

بقيت جامدة لبضع ثوانٍ تتأمل نفسها في المرآة. ثم غمر فرانز جسدها بقبلات رقيقة. وطلب منها مرة أخرى أن تصحبه إلى باليرما في رحلة تدوم عشرة أيام. فوعدته هذه المرة دون مواربة بالذهاب، وعلى هذا غادر.

عاد إليه مزاجه الجيّد ثانية. كانت جنيف التي لعنها طيلة حياته على أنها مدينة الضجر، تبدو له الآن جميلة وحافلة بالمغامرات. ثم التفت ونظر إلى طاقة المحترف الزجاجية.

كانت هذه آخر أسابيع الربيع وكان الطقس حارّاً. وكانت النوافذ مسدلة ستائرها. بلغ فرانز حديقة ترتفع فوقها في البعيد قبب الكنيسة الأورثوذوكسية شبيهةً بكرات ذهبية التقطتها قوى خفيّة قبل تلاطمها وأثبتتها في الفضاء. كان هذا المشهد جميلاً.. نظر فرانز إلى الرصيف ليستقلّ مركباً يقلّه إلى الجانب الآخر من البحيرة، إلى الضفة اليمنى حيث كان يقيم.

2

بقيت سابينا وحيدة. انتصبت من جديد، وهي لا تزال في ثيابها الداخلية، أمام المرآة. اعتمرت القبعة من جديد ونظرت إلى نفسها ملياً. كانت متعجبة من أن تكون اللحظة الضائعة ذاتها تلاحقها بعد كل هذه السنوات.

ها إن سنوات قد مرَّت عندما جاء توماس إليها وأسرته هذه القبعة. اعتمرها وأخذ يتأمل نفسه في المرآة الكبيرة التي كانت مستندة آنذاك إلى حائط شقة سابينا الصغيرة في براغ. كان يريد أن يرى كيف ستكون هيئته فيما لو كان مختار مدينة ريفية صغيرة خلال القرن الفائت. ثمّ، وعندما أخذت سابينا تخلع ثيابها على مهل، وضع القبعة على رأسها. كانا واقفين أمام المرآة (كانا يقفان دائماً هكذا عندما كانت تخلع ثيابها) يسترقان النظر إلى صورتهما. كانت في ثيابها الداخلية وكانت تعتمر القبعة. ثم انتبهت فجأة إلى أن هذه اللوحة تثير كليهما.

تُرى كيف كان هذا ممكناً؟ قبل ذلك بقليل كانت القبعة التي تضعها على رأسها تهمُّ بأن تكون مجرد مزحة. ماذا! ألا تفصل المضحك عن المثير غير خطوة واحدة؟

نعم. لأول وهلة حين نظرت إلى نفسها في المرآة، وجدت الأمر مضحكاً. ولكن فيما بعد، ضاع الضحك في الإثارة: فالقبعة لم تعد إثارة هزلية بل صارت تعني العنف، العنف الذي يمارَس على سابينا وينال من قيمتها كامرأة. كانت ترى نفسها عارية الساقين في سليب شفاف تظهر من خلاله العانة. كانت الملابس الداخلية تؤكد على سحر أنوثتها، أما القبعة الرجالية التي من لباد سميك فتنفي تلك الأنوثة وتغصبها وتهزأ منها. كان توماس واقفاً إلى جانبها بكامل ثيابه، وهذا يعني أن خلاصة ما كانا يشاهدانه ليس النكتة، (إذ كان بإمكانه أن يكون هو أيضاً في ثيابه الداخلية ومعتمراً قبعة رجالية) بل الذل. وهي كانت تعرض هذا الذلّ بتحدٍ وفخر بدل أن ترفضه، وكأنها سمحت لنفسها بأن تُغتصب بطوع إرادتها وأمام الملأ. ثم

حين لم تعد تقوى على البقاء في هذا الوضع، أوقعت توماس على الأرض وتدحرجت القبعة تحت الطاولة. كان جسداهما يتلويان فوق السجادة أمام المرآة.

فلنرجع مرة أخرى إلى هذه القبعة:

قبل كل شيء، كانت هذه القبعة أثراً تركه جدّ منسي عمل مختاراً لمدينة صغيرة في بوهيميا، أثناء القرن الماضي.

وثانياً، كانت تذكاراً من والد سابينا. فبعد أن استأثر أخوها بميراث والديها على أثر جنازة والدها، كابرت سابينا ورفضت بإصرار أن تدافع عن حقوقها، ولكنّها قالت بلهجة ساخرة إنها ستحتفظ بالقبعة الرجالية على أنها الإرث الوحيد الذي بقي لها من والدها.

وثالثاً، كانت من متممات الألاعيب الجنسية مع توماس.

ورابعاً، كانت رمزاً لتميّزها الذي تعمد في تغذيته. لم يكن في استطاعتها، حين هاجرت، أن تحمل الشيء الكثير، وهي، لكي تحمل معها هذا الشيء المزعج والباطل استعماله، وجب عليها إذاً أن تتخلى عن حوائج أخرى أكثر منفعة.

وخامساً، كانت القبعة الرجالية قد صارت في الخارج رابطاً عاطفياً. وهي حين ذهبت للقاء توماس في زوريخ أخذتها معها، ثم اعتمرتها عندما فتحت له باب غرفتها في الفندق. وعندئذ حصل شيء غير متوقع. لم تعد القبعة مضحكة ولا مثيرة بل صارت ذكرى من الماضي. وكان كلاهما منفعلاً فمارسا الحب كما لم يفعلا في أي وقت كان: لم يكن هناك مكان للألاعيب الماجنة، ولا كان لقاؤهما امتداداً لألاعيبهما الجنسية حين كانا يتخيلان كل مرة نزوةً جديدة، إنما كان تكثيفاً للوقت ونشيداً لذكرى ماضيهما المشترك، تكثيفاً عاطفياً لحكاية غير عاطفية توشك أن تتلاشى في البعيد.

كانت القبعة تصير إذاً لازمة موسيقية في المقطوعة التي هي حياة سابينا. كانت هذه اللازمة تتكرر دائماً وأبداً آخذة في كل مرة معنى جديداً. وكانت هذه المعاني تمر كلها عبر القبعة الرجالية كما يمر الماء في مجرى

النهر. وأستطيع القول إن مجرى النهر هذا مشابه لمجرى نهر هيراقليط: «إننا لا نستحم مرتين في النهر نفسه». كانت سابينا ترى أن القبعة الرجالية مجرى نهر يسيل فيه كلٍ مرة نهر آخر، نهر «لغوي آخر»، حيث يثير الشيء نفسه كل مرة معنى جديداً، ولكن هذا المعنى الجديد كان يرجّع (مثل صدىً أو موكب أصداء) كل المعاني السابقة. . فتظنُّ حينها كل تجربة جديدة معيوشة بـإيقاع أكثر غنى. . وفي زوريخ، في غرفة الفندق، كانـا منفعلينْ عند رؤيـة القبعة، ومارسا الحب وقتها وهما على حافة الدموع. ذلك أن هذا الشيء الأسـود لم يكن فقط ذكرى لألاعيبهم الجنسية بل كان أيضاً أثراً تركه والد سابينا وجدهـا اللذان عاشا في أزمنة لا سيارات فيها ولا طائرات.

ربّما في المستطاع الآن أن نفهم بشكل أفضل الهاوية التي تفصـل بين سـابينا وفـرانز: صحيـح أنه كـان يصغي إليها بـانتبـاه كلي وهي تحـدثـه عن حيـاتها، وكـانت هي أيضاً تصغي إليـه بالانتباه نفسه. وصحيـح أنهما كـانـا يفهمـان المعنى الموضـوعي للكلمات التي يتفـوهان بهـا، ولكن من دون أن يسمعا خرير النهر اللغوي المتدفق عبر هذه الكلمات.

لذلك فـإن فرانـز أحسّ، حين وضعت سابينـا القبعة فـوق رأسها، بـأنه منزعجٍ كأن أحداً يتحـدث إليه في لغـة يجهلها. لم يكن يجـد هذا التصـرف ماجناً أو عاطفياً، بل كان فقط تصرفاً غير مفهوم، وغياب معناه أمر يربكه.

طالما أن الناس لا يزالون في سن الشباب، وطالما أن مقطوعة حيـاتهم الموسيقية لا تزال في أنغامها الأولى، فإن بإمكانهم والحالة هذه تأليفها سويّـة وتبادل بعض اللوازم فيما بينهم (مثل توماس وسابينا اللذين تبادلا لازمة القبعة الرجالية). ولكن حين يلتقون بعضهم ببعض في سن ناضجٍ، فإن مقطوعاتهم الموسيقية تكون قد قاربت على النهاية، وكل كلمة وكلُّ شيء في كـل واحدة منها تعني شيئاً مختلفاً في المقطوعة الأخرى.

لـو استعدت كـل الممرات اللغـويـة بين سـابينـا وفـرانـز، فـإن لائحـة الكلمات غير المفهومة ستؤلف قاموساً ضخماً. فلنكتفِ إذاً بمعجم صغير.

3

معجم صغير للكلمات غير المفهومة (الجزء الأول)

امــرأة:

أن تكون سابينا امرأة فهذا وضع لم تختره بنفسها. وما هو ليس ناتجاً عن اختيار لا يمكن اعتباره لا استحقاقاً ولا فشلاً. وسابينا تفكر أنه يفترض بنا، حيال وضع فرض علينا، أن نتصرف بطريقة مناسبة. كما ويبـدو لها أيضـاً أن احتجاجها على كونها امرأة أو الاعتزاز بذلك أمران سخيفان بالقدر ذاته.

قال فرانز في أحد لقاءاتهما الأولى وبنبرة مميزة: «سابينا، أنتِ امرأة». لم تكن فاهمة لماذا بشرها بذلك على هذا النحو الاحتفالي وكأن كريستوف كولومبوس يبشر لتوّه باكتشاف أحد سواحل أميركا. ولكنها فهمت فيما بعد أن كلمة «امرأة» التي تلفظها بفصاحة مميّزة لم تكن تعبّر بالنسبة له عن صفة تميز أحد جنسي الصنف البشري، وإنما كانت تمثل «قيمة». إذ ليست كل النساء جديرات بأن يُدعيْن «نساء».

لكن إذا كانت سابينا هي «المرأة» بـالنسبة لفـرانز فـما هو حـال ماري ـ كلود زوجته الفعلية؟ لعشرين سنة خلَتْ (كانا يعرفان بعضهما حينذاك منذ أشهر قليلة) هددَتْه بأنها ستنتحر لو هو تركها، فوجد فرانز نفسه مفتوناً بهذا التهديد. لم تكن ماري ـ كلود من النوع الذي يعجبه، ولكن حبها كان يبدو له سامياً. كان يجد نفسه غير جدير بحب كبير كهذا فاعتبر أن من واجبه أن ينحني أمامه بانخفاض كبير.

وهكذا انحنى ساجداً حتى الأرض فتزوجها. ومع أنها لم تعد تظهر إطلاقاً حدة الشعور التي أظهرتها حين هددته بالانتحار، فإن هذا الواجب بقي حياً في ضميره ومفاده: ألا يؤذي ماري ـ كلود مهما كان وأن يحترم المرأة فيها.

غريب أمر هذه الجملة.. لم يكن يقول في نفسه إن عليه احترام ماري كلود بل: احترام المرأة في ماري ـ كلود.

ولكن، إذا كانت ماري ـ كلود هي نفسها امرأة، فمن هي إذاً تلك المرأة

الأخرى التي تختبىء فيها والتي يجب عليه أن يحترمها؟ أو تكون هذه الفكرة الأفلاطونية عن المرأة؟

لا ، بل كانت هذه المرأة أمه. لم يكن ليخطر بباله قط أن يقول مثلاً إنه يحترم المرأة في أمه. فهو كان يعبد أمه بحد ذاتها وليس بسبب امرأة في داخلها. كانت الفكرة الأفلاطونية عن المرأة وأمه شيئاً واحدةً متلازماً.

كان في الثانية عشرة من عمره تقريباً عندما تخلى والده عن أمه فوجدت نفسها بغتة لوحدها. كان فرانز يشك في أن أمراً خطيراً قد حدث، ولكن أمه كانت تخفي المأساة خلف أحاديث حيادية ومتزنة خشية أن تصدمه. في ذلك اليوم بالذات، لاحظ فرانز، عندما غادرا المنزل للقيام بنزهة في المدينة، أن أمه كانت ترتدي فرديْ حذاء مختلفتين. اضطرب للأمر ورغب في أن يلفت نظرها لذلك ولكنه خشي أن يجرحها في الوقت نفسه. جال مع أمه ساعتين في الشوارع وهو غير قادر على إشاحة بصره عن قدميها. وإذ ذاك بدأ يفهم ما معنى العذاب.

الوفاء والخيانة:

كان قد أحبّها منذ الطفولة وحتى اللحظة التي رافقها فيها إلى القبر. وأحبّها أيضاً في ذكرياته. من هنا كان يستقي فكرة أن الوفاء هو فضيلة الفضائل. فالوفاء يجعل حياتنا متماسكة، ولولاه لكانت تبعثرت إلى آلاف الانطباعات العابرة.

كان فرانز يحدّث سابينا مراراً عن والدته وربَّما عن قصد، دون أن يعي ذلك: كان يقصد ربَّما أن تغوي قدرته على الوفاء سابينا فيكون هذا وسيلة ليجعلها تتعلق به.

ولكن، ما كان يغوي سابينا ليس الوفاء بل الخيانة. كانت كلمة «وفاء» تذكّرها بأبيها الذي كان رجلاً ريفياً متزمتاً، يرسم أيام الآحاد، من أجل متعته فقط، الشمس الغاربة فوق الغابات وباقات من الورود في إناء. بفضله، ابتدأت بالرسم وهي لم تزل صغيرة جداً. عندما بلغت سن الرابعة عشرة وقعت في حب صبي من مثل سنها. فذُعر أبوها ومنعها من الخروج بمفردها

لسنة كاملة. وفي ذات يوم أَرَتْه صوراً لبيكاسو فضحك منها بصوت عالٍ. ولكن، إذا كانت لا تملك الحق في أن تحب صبيـاً في مثل سنها، فلها الحق على الأقل في أن تحب التكعيبية. ذهبت إلى براغ بعد حصولها على شهادة البكالوريا وهي مرتاحة لشعورها بأن بإمكانها أخيراً أن تخون منزلها.

الخيانة. منذ طفولتنا والوالد ومعلم المدرسة يكرران على مسامعنا بأنها افظع شيء في الوجود. ولكن ما معنى أن نخون؟ أن نخون هو أن نخرج عن الصف لنسير في المجهول. وسابينا لم تعرف ما هو أجمل من السير في المجهول.

التحقت بمعهد الفنون الجميلة ولكن لم يكن مسموحاً لها بأن ترسم على طريقة بيكاسو. كان يُفْرَض عليها آنذاك أن تطبق بجدّ ما كان يسمّى بالواقعية الاشتراكية، وكان الطلّاب في معهد الفنون الجميلة يقومون بإجراء رسوم شخصية لرؤساء الدول الشيوعية. كانت رغبتها إذاً في أن تخون والدها قد بقيت غير مرتوية والسبب أن الشيوعية كانت مجرد أب آخر، صارم ومحدود مثل أبيها، ويمنع الحب (كان زمن التزمت هو السائد آنذاك) وبيكاسو. تزوجت في براغ ممثلاً قليل الذكاء، ولكنّها تزوجته فقط لأن صيته كان ذائعاً كواحد غريب الأطوار، ولأن أبويها (أباها والشيوعية) كانا يعتبرانه غير مقبول.

ثم توفيت أمها. في اليوم التالي، بعد رجوعها إلى براغ وصلتها برقية: انتحر أبوها حزناً على أمها.

أخذها الندم: أي خطأ فادح في أن يرسم والدها وروداً في إناء وفي ألا يحب بيكاسو؟ وهل كان خوفه من أن تعود ابنته حبلى وهي في الرابعة عشرة من عمرها، يُعتبر أمراً ذميماً؟ وألا يتمكن من العيش دون زوجته هل هذا أمر يدعو إلى المهزلة؟

ومن جديد، رجعت فريسة للرغبة في الخيانة: أن تخون خيانتها بالذات. فأعلمت زوجها (الذي لم تعد ترى فيه ذلك الرجل غريب الأطوار بل السكير المزعج) أنها ستتركه.

لكن إذ كنا نخون «ب» الذي خنّا من أجله « أ » فهذا لا يعني أننا

سنتصالح مع « أ » . فحياة الرسامة المطلّقة لا تشبه حياة والديها اللذين خانتهما . إن الخيانة الأولى لا يمكن إصلاحها وهي تثير عن طريق النتائج المتوالدة خيانات أخرى حيث تبعدنا كل واحدة منها أكثر فأكثر عن نقطة الخيانة الأولى .

الموسيقى :

الموسيقى بالنسبة لفرانز هي الفن الأكثر قرباً من الجمال الديونيسي الذي يقدّس النشوة. يمكن لرواية أو للوحة أن تدوّخنا ولكن بصعوبة. أما مع السمفونية التاسعة لبيتهوڤن، أو مع السوناتة المؤلفة من آلتيْ بيانو وآلات النقر لبارتوك، أو مع أغنية للبيتلز، فإن النشوة تعترينا. من جهة أخرى فإن فرانز لا يفرّق بين الموسيقى العظيمة والموسيقى الخفيفة. فهذا التفريق يبدو له خبيثاً وبالياً، فهو يحب موسيقى الروك وموزار على حد سواء.

الموسيقى بالنسبة له محرّرة: إذ تحرره من الوحدة والانعزال ومن غبار المكتبات. وتفتح في داخل جسده أبواباً لتخرج النفس وتتآخى مع الآخرين. كما أنه يحب الرقص إلى جانب ذلك ويشعر بالأسى لأن سابينا لا تشاركه هذا الولع.

ها إنهما يتناولان العشاء سوية في المطعم، ومكبرات الصوت ترافق مأدبتهما بموسيقى صاخبة موقّعة.

ــ قالت سابينا: أية حلقة مفرغة. الناس يصابون بالصمم لأنهم يضعون الموسيقى عالية وبازدياد. وبما أنهم مصابون بالصمم فإنه لا يتبقى لهم والحالة هذه إلا أن يرفعوا من قوة الصوت بعد.

ــ سألها فرانز: ألا تحبين الموسيقى؟

ــ لا، قالت سابينا. ثم أضافت: «ربما لو عشت في زمن آخر. . .». وفكّرت في عصر جان سيباستيان باخ حين كانت الموسيقى أشبه بوردة متفتحة وسط سهل شاسع يكسوه ثلج الصمت.

فالضجيج يلاحقها تحت قناع الموسيقى مذ كانت صغيرة. وحين كانت طالبة في معهد الفنون الجميلة، كان عليها أن تمضي عطلات كاملة في «ورشة الشبيبة» كما كانت تُسمّى آنذاك. كان الشباب يقيمون في مخيمات جماعية

يعملون لبناء مصاهر للحديد. كانت مكبرات الصوت تقذف موسيقى زاعقة من الساعة الخامسة صباحاً إلى الساعة التاسعة. وكانت عندئذ تجتاحها رغبة في البكاء. ولكن الموسيقى كانت فرحة ولا يمكن الإفلات منها في أي مكان، لا في المرحاض ولا تحت الغطاء في السرير. كانت الموسيقى مثل رهط كلاب أُفْلِتَ عليها.

كانت تعتقد وقتها أن العالم الشيوعي هو العالم الوحيد الذي تسوده بربرية الموسيقى هذه. ولكنها الآن، في الخارج، ها إنها تستنتج أن تحوّل الموسيقى إلى ضجيج بات سيرورة كوكبية تُدخل الإنسانية في الطور التاريخي للقبح الشامل. فالطابع الشامل للقبح يعلن عن نفسه عبر القبح السمعي الموجود في كل مكان: السيارات والدراجات والقيثارات الكهربائية والمطارق الهوائية ومكبرات الصوت والصفّارات. ولن يتأخر القبح المنظور عن الظهور في كل مكان ليلحق بالقبح السمعي.

بعد أن تعشيا صعدا إلى غرفتهما ومارسا الحب. ثم بدأت الأفكار تختلط في رأس فرانز وهو على عتبة النعاس. كان يتذكر الموسيقى الصاخبة في المطعم ويفكر: «للضجة حسناتها. فَمعها لا يمكننا أن نميّز الكلمات» فهو مذ كان صغيراً لايني يتكلم ويكتب ويعطي دروساً ويختلق جملاً ويبحث عن عبارات ويصححها، إلى درجة لا يعرف أيّاً من الكلمات يعود صحيحاً في النهاية، فيتلاشى معناها ويفقد من محتواه، ولا يبقى منها إلا فضلات وذراوات، إلا غباراً ورملاً يعوم داخل دماغه ويجعله يشعر بالصداع الذي كان مرضاً ملازماً يؤرّقه. فشعر عندها فجأة برغبة غامضة لا تقاوم في سماع موسيقى هائلة، في سماع ضجيج مطلق وصخب جميل وفرح يكتنف كل شيء ويُغرق ويخنق كل شيء، فيختفي إلى الأبد الألم والغرور وتفاهة الكلمات. فالموسيقى هي نفي للجمل، هي ضد ـ كلمة! كان راغباً في أن يبقى مع سابينا في عناق طويل، في أن يصمت وألا يتلفظ بأية جملة تاركاً المتعة تختلط بالجلبة الفاجرة للموسيقى. وعلى هذا الصخب الوهمي السعيد استغرق في النوم.

الضوء والظلمة:

الحياة بالنسبة لسابينا تعني الرؤية. والرؤية يحدّها حدّان: الضوء الباهر الذي يعمي البصر والظلمة التامة. ربّما من هنا مصدر كرهها لكل تطرف. فالحدود القصوى ترسم الفاصل الذي تختفي من بعده الحياة. ثمّ وأن الشغف بالتطرف سواء في الفن أو في السياسة رغبة مقنّعة في الموت.

أما كلمة «ضوء» فهي لا توحي لفرانز بمنظر يضيئه النهار بعذوبة، وإنما توحي بمصدر الطاقة بحد ذاته: أي الشمس أو المصباح أو الكشّاف. وتذكّره أيضاً بالاستعارات المألوفة: شمس الحقيقة، نور العقل الباهر، إلخ...

وتجذبه الظلمة كما يجذبه الضوء على حد سواء. في أيامنا هذه يعتبر إطفاء الضوء أثناء ممارسة الحب تصرفاً مثيراً للضحك. هو يعرف ذلك ويترك ضوءاً صغيراً مضاءً فوق سريره. ولكنه لحظةَ يلجُ سابينا يغمض عينيه مع ذلك. والظلمة التي يراها حينئذ ظلمة كلّيّة من دون صور أو رؤى، ظلمة لا متناهية ولا حدود لها. هذه الظلمة هي اللاّنهاية التي يحملها كلٌّ منا في أعماقه. (نعم، من يفتش عن اللاّنهاية، ما عليه إلا أن يغمض عينيه).

ولحظةَ يشعر فرانز بالنشوة تنتشر في حنايا جسده، يتلّوى ويذوب في اللاّنهاية، في ظلمة كيانه ليصير هو نفسه اللاّنهاية. لكن كلّما كبر الإنسان داخل ظلمته الداخلية، كلّما تقلصت هيئته الخارجية. إن رجلاً مغمض العينين ليس إلا فضالة ذاته. وهذا أمر مزعج للرؤية. وسابينا لا تريد أن تنظر إليه حينها بل تغمض عينيها بدورها. ولكنها لا تشعر أن هذه الظلمة بالذات هي اللاّنهاية، بل هي فقط التنافر مع ما تراه، كما وأنها إنكار لما هو مرئي ورفض للرؤية.

4

أقنعت سابينا نفسها أخيراً بالذهاب لحضور اجتماع يقيمه أبناء بلادها. مرةً أخرى، كان الجدال يدور حول معرفة ما إذا كان يفترض بهم أن يحملوا السلاح لمقاتلة الروس أم لا. من البديهي أن الجميع كان يطالب هنا، في

حمى الهجرة، بوجوب القتال. ولكن سابينا اعترضت قائلة: «عودوا إذاً! وقاتلوا!».

ما كان يجدر بها أن تقول هذا. ها إن رجلاً شعره رمادي ومجعّد عند المزيّن يشهر سبّابته الطويلة في وجهها: «لا تتكلمي هكذا. جميعكم مسؤولون عمّا حصل. وأنتِ أيضاً. ماذا كنت تفعلين في بلادك ضد النظام الشيوعي؟ أكُنتِ ترسمين، هل هذا هو كل شيء؟».

يعتبر تفتيش المواطنين ومراقبتهم من النشاطات الاجتماعية الأساسية والدائمة في البلدان الشيوعية. فَلِكي ينال رسام حقّه في إقامة معرض أو مواطنٌ على تأشيرة لقضاء عطلته على الشاطىء، أو لكي تتم الموافقة على انضمام لاعب كرة إلى الفريق الوطني، يجب أن تجتمع أصلاً كل أنواع التقارير والشهادات التي تخصهم، (شهادة الناطور وزملاء العمل والشرطة وخلية الحزب ولجنة التأميم) وهذه التصاريح يجمعها فيما بعد ويقيّمها ويراجعها موظّفون معدّون لهذه المهمة. أما ما يقال في هذه التصاريح فلا علاقة له البتة بموهبة المواطن في الرسم أو في لعب الكرة، ولا علاقة له بما إذا كانت تسمح له حالته الصحية بقضاء عطلة على الشاطىء. هناك أمر واحد يهم وهو ما يسمّى «بالخلفية السياسية للمواطن» (أي ماذا يقول المواطن، بماذا يفكر، كيف يتصرف، هل يشارك في الاجتماعات أو في التظاهرات في الأول من إيار). وبما أن كل شيء (الحياة اليومية والترقية والعطلات) مرتبط بالطريقة التي يقيّمون فيها سلوك المواطن، فإن الجميع مضطرون إذاً، (من أجل اللعب مع الفريق الوطني أو للتمكن من إقامة معرض، أو لقضاء عطلة على شاطىء البحر) للتصرف بطريقة تجعل علاماتهم حسنة.

هذا ما كانت سابينا تفكر فيه وهي تسمع كلام الرجل ذي الشعر الرمادي. فهو لم يكن يهمه في أي حال أن يلعب أبناء بلاده بكرة القدم أو أن يرسموا بموهبة، (على أية حال لم يكن أي تشيكي يهتم إطلاقاً بما كانت ترسمه). إنما يهمه شيء واحد مفاده أن يعرف ما إذا كانوا مقاومين إيجابيين أم سلبيين، في الطليعة أم في المؤخرة، جديين أم مخادعين، تجاه النظام الشيوعي.

بما أنها كانت رسَّامة فهي تعرف إذاً مراقبة الوجوه وتعرف أيضاً مذ كانت في براغ، سيماءَ الناس الذين هم مولعون بمراقبة الآخرين وتقييمهم. فأولئك الناس تكون سبّابتهم أطول قليلاً من الوسطى، ويشهرونها دائماً في وجه محدثيهم. على أية حال، الرئيس نوفوتني مثلاً، الذي حكم بوهيميا طيلة أربع عشرة سنة وحتى ١٩٦٨، كان لديه تماماً الشعر الرمادي نفسه المجعّد عند المزيّن، وبإمكانه أن يعتزَّ بأنه يملك السبابة الأكثر طولاً بين سكان أوروبا أجمعين.

عندما سمع المهاجر المحنك من فم هذه الفنانة، التي لم يرَ قط لوحاتها قبلاً، بأنه يشبه ذلك الرئيس الشيوعي، احمرَّ عندئذ وجهه، ثم شحب، ثم احمرّ من جديد، ثم شحب، ثم أراد أن يقول شيئاً فلم يقل، بل استغرق في الصمت. صمت الجميع معه، فما كان من سابينا إلا أن نهضت وغادرت.

كانت سابينا تشعر بالانزعاج، ولكن حين أصبحت على الرصيف، قالت في نفسها: ما الذي كان يجبرها في الواقع على معاشرة تشيكيين؟ ما الذي يجمعها بهم؟ منظر؟ لو طُلب منهم أن يقولوا بماذا تذكّرهم بوهيميا، فإن هذه الكلمة ستثير في ذاكرتهم صوراً مشتتة لا جامع فيما بينها.

أهي الثقافة إذاً؟ ولكن أية ثقافة؟ الموسيقى؟ دوڤراك وياناسك؟ ربّما. ولكن ماذا لو أن تشيكياً واحداً لا يحب الموسيقى؟ تصير الهوية التشيكية دفعة واحدة شيئاً باطلاً.

أم هل هم الرجال العظام؟ جان هيوز؟ لكن هؤلاء الناس لم يقرأوا في حياتهم كتاباً واحداً من كتبه. والشيء الوحيد الذين بإمكانهم أن يفهموه بالإجماع هو اللهب، ومجد اللهب الذي أُحرق فيه هيوز بسبب أنه هرطقي، ومن ثم مجد الرماد الذي صاره. وهكذا، فإن ماهية الروح التشيكية، فكرت سابينا، كانت متمثلة في الرماد، لا أكثر. وهؤلاء الناس لا يجمعهم سوى شيء واحد: هزيمتهم والملامات التي يوجهها واحدهم للآخر.

كانت تسير بعجل وأفكارها بالذات تجعلها أكثر اضطراباً من اختلافها مع المهاجرين. كانت تعرف أن أفكارها مجحفة بحقهم، ويجدر بها الاعتراف بأن هناك تشيكيين مختلفين عن ذلك الشخص ذي السّبابة المفرطة في الطول. ثم

أن الصمت المزعج الذي عقب الكلمات التي وجهتها له، لم يكن يعني أن الجميع يعيبون سلوكها. إنما كانوا بالأحرى مذهولين نتيجة هذا الظهور المباغت للحقد وهذا اللاتفهم الذي يقع الجميع ضحيته في الهجرة. ولكن لماذا لم تكن إذاً تشعر بالشفقة حيالهم؟ لماذا لم تكن تجدهم مثيرين للشفقة وبائسين؟

سبق لنا أن عرفنا الجواب: حين خانت أباها انكشفت لها الحياة فجأة مثل طريق طويلة من الخيانات، حيث كل خيانة تجذبها كأنها آفة أو انتصار. فهي لم تكن تريد البقاء في الصفّ ولن تبقى فيه! لن تبقى إلى ما لا نهاية في الصفّ بمعية الناس ذاتهم والكلمات ذاتها! لذلك، فإن إجحافها هي بالذات يثيرها إلى أقصى الحدود. ثم وأن سابينا لا تجد هذه الإثارة القصوى أمراً كريهاً، لا بل على العكس فهي تشعر بأنها أحرزت انتصاراً وأن أحداً ما غير مرئي يصفّق لها.

ولكن النشوة أخلت بعد قليل المكان للقلق: سيكون عليها الوصول ذات يوم إلى نهاية هذه الطريق! سيكون عليها أن تنتهي يوماً من كل هذه الخيانات! وأن تتوقف نهائياً!

كان المساء قد حلَّ وكانت تمشي بعجلة على رصيف المحطة. كان قطار أمستردام على أهبة الرحيل. بحثت عن قافلتها وقادها مفتش بشوش الوجه إلى المقصورة ففتحت الباب ورأت فرانز جالساً على سرير لا يزال غطاؤه مرتباً. نهض لاستقبالها فضمته بين ذراعيها وغمرته بالقبلات.

كانت تشعر برغبة جامحة لأن تقول له كما تقول أتفه النساء: «لا تتركني، احتفظ بي إلى جوارك، استعبدني، كن قوياً». ولكنها لا تستطيع ولا تعرف أن تتلفظ بمثل هذه الكلمات.

عندما أفلت عناقه، قالت فقط: «كم أنا سعيدة لأني بقربك!».

لم تكن تستطيع أن تقول أكثر من ذلك نظراً لتكتمها الطبيعي.

5

معجم صغير للكلمات غير المفهومة (تابع)

المواكب:

في إيطاليا أو في فرنسا، بالإمكان إيجاد الحلّ بسهولة. فَحين يجبرك أهلك على الذهاب إلى الكنيسة تنتقم منهم بانضمامك إلى أحد الأحزاب، (الحزب الشيوعي أو التروتسكوي أو الماوي، إلخ). أما والد سابينا فقد أرسلها أول الأمر إلى الكنيسة ثم خاف فيما بعد وأجبرها على الالتحاق بالشبيبة الشيوعية.

لم تكن قادرة، حين سارت في موكب الأول من أيار، على السير بخطىً موزونة. مع أنَّ الفتاة التي خلفها كانت تناديها وتدوس عمداً على كاحلها. وإذا كان عليها أن تغني فهي لم تكن تحفظ الكلمات قط بل تفتح فماً أخرس. فلاحظ زملاؤها هذا الأمر ووشوا بها. مذ كانت صغيرة إذا وهي تأنف كل أنواع المواكب.

تابع فرانز دراساته في باريس. وبما أنه كان متفوّقاً بشكل استثنائي فإنه، مذ كان في سن العشرين، وهو يضمن مهنة علمية أكيدة. وكان يعرف منذ ذلك الحين أنه سيقضي حياته بين جدران المكتب في الجامعة والمكاتب العامة وقاعتين أو ثلاث لإلقاء المحاضرات. كان يشعر عند هذه الفكرة بالاختناق. لذلك كان يرغب في الخروج من حياته كما يخرج المرء من بيته للذهاب إلى الشارع..

كان يسكن في باريس وكان يذهب تلقائياً إلى التظاهرات. كان يُسَر حين يذهب للاحتفال بشيء ما، وللمطالبة بشيء ما، ولمعارضة شيء ما.. وحين لا يكون وحيداً بل في الخارج بمعيّة الآخرين. كانت المواكب المتدفقة على جادة سان جرمان أو الوافدة من الجمهورية باتجاه الباستيل، تسحر لبّه. فالجماهير التي تتقدم هاتفة بالشعارات هي صورة عن أوروبا وتاريخها. فأوروبا هي مسيرة كبرى، مسيرة من ثورة إلى ثورة، من نضال إلى نضال، ودائماً باتجاه الأمام.

ربما في وسعي أن أعبر عن ذلك بطريقة أُخرى: كان فرانز يشعر أن حياته كانت غير حقيقية بين أوراق الكتب. وكان يتوق إلى الحياة الحقيقية وإلى السير جنباً إلى جنب في ركاب رجال آخرين ونساء أخريات. كان يتوق إلى صخبهم. لم يكن يدرك أن ما يعتبره غير حقيقي (أي انكبابه على العمل في عزلة المكتبات) كان هو حياته الحقيقية، بينما المواكب التي كان يعتبرها هي الحقيقة كانت مجرد مشهد أو رقصة أو عيد، وبكلمة أُخرى: حلم.

كانت سابينا تسكن وهي لمّا تزل طالبة في مدينة جامعية. وكان الجميع مجبرين في الأول من أيار على الذهاب باكراً إلى نقاط تجمع الموكب. ولكي لا يتغيّب أحد من الطلبة كان هناك طلاب مناضلون ومأجورون يتحققون عما إذا كان المبنى خالياً. كانت تذهب للاختباء في المراحيض ولا ترجع إلى غرفتها إلا حين يمر وقت طويل على انطلاق الجميع؛ حينها كان يسود صمت لم تشهد له مثيلاً. كانت تصلها من بعيد موسيقى المسيرة. كانت مثل حلزونة مختبئة داخل صدفتها ويصلها من بعيد ارتداد أمواج العالم المعادي..

بعد أن تركت بوهيميا بسنة أو سنتين، صادف مرورها في باريس في يوم الاحتفال بالذكرى السنوية للاجتياح. كانت تُقام تظاهرة للاحتجاج في ذلك اليوم، ولم تستطع أن تمنع نفسها من المشاركة فيها. كان هناك شبان فرنسيون يرفعون قبضاتهم زاعقين بشعارات ضد الأمبريالية السوفياتية. ومع أن هذه الشعارات كانت تُعجبها، إلا أنها اكتشفت بدهشة أنها غير قادرة على الهتاف مع الآخرين. لم تستطع البقاء وسط الموكب إلا لدقائق معدودة.

أعلمت بعض الأصدقاء الفرنسيين بهذه التجربة فتعجبوا منها قائلين: «ألا ترغبين إذاً في النضال ضد اجتياح بلادك؟». كانت تود أن تقول لهم إن الشيوعية والفاشية وكل أنواع الاحتلالات تخفي في طياتها سرّاً أكثر خطورة وشمولية. وصورة هذا السِّر تتجلى في مواكب الناس الماشين في صفوف وهم يرفعون قبضاتهم هاتفين بالمقاطع اللفظية نفسها وعلى نسق واحد. لكنها كانت تعرف أنها لا تستطيع أن تشرح لهم ذلك، فأحسَّت بالانزعاج وغيَّرت مجرى الحديث.

جمال نيويورك:

كانا يمشيان منذ ساعات طويلة في نيويورك.. كان المشهد يتغير إثر كل خطوة يقومان بها وكأنهما يتبعان شعاباً متعرجة وسط منظر ساحر في أحد الجبال: ثمة شاب يصلي راكعاً في وسط الرصيف، وعلى مقربة منه زنجية جميلة تتثاءب وهي مستندة إلى شجرة، ورجل يرتدي بذلة سوداء يؤشر بيديه ليدير فرقة موسيقية غير مرئية. كان الماء ينساب من فسقيّات بركة جلس حولها بنّاؤون يتناولون غداءهم. وكانت سلالم معدنية ترتقي واجهات بيوت قرميدية حمراء قبيحة؛ وهذه البيوت كانت من البشاعة إلى حد أنها صارت جميلة. على مقربة منها تنتصب ناطحة سحاب زجاجية وخلفها ناطحة سحاب أخرى في أعلاها قصر عربي صغير مزدان بالأبراج والقناطر والأعمدة المذهّبة.

كانت تفكر في لوحاتها: هناك أيضاً ثمة أشياء تتجاور مع أن لا علاقة لبعضها ببعض: من الأمام مصاهر حديد في طور البناء وفي خلفية اللوحة مصباح.. وفي لوحة أخرى مصباح آخر كُمَّته (*) القديمة التي من الزجاج المرسوم تتشظى إلى جزيئات صغيرة تعلو مشهد مستنقعات حزين.

قال فرانز: «كان للجمال الأوروبي على الدوام طابع تعمدي.. وكان هناك في أصله دائماً مقصد جمالي وخطة ذات نفس طويل.. فاقتضى بناء كاتدرائية أو مدينة من عصر الأنوار، على أساس هذه الخطة، قروناً طويلة. أما جمال نيويورك فمختلف تماماً. إنه جمال غير تعمدي، نشأ دون أن يتعمد الإنسان التفكير به كَمِثل مغارة من الماء المتحجر. فهو مؤلف من أشكال قبيحة بحد ذاتها ولكن تجاورها صدفة ودون أي تصميم مسبق وبشكل غير مرتقب يجعلها تتألق فجأة بشاعرية ساحرة».

قالت سابينا: «تقول الجمال غير التعمدي، صحيح. ويمكننا أن نضيف أيضاً الجمال عن غير قصد. فقبل أن يختفي الجمال نهائياً عن وجه الأرض، سيبقى موجوداً لبعض الوقت إنّما عن غير قصد. فالجمال عن غير

(*) (Abat - jour) غطاء المصباح أو غلافه.

قصد هو آخر مرحلة من تاريخ الجمال».

كانت تفكر في لوحتها الأولى التي تعدُّ ناجحة فعلاً وحيث سال طلاء أحمر عن غير قصد فوقها. نعم، كانت لوحاتها مرسومة وفقاً للجمال غير التعمدي، وكانت نيويورك الجزء الخفي والحقيقي من لوحاتها.

قال فرانز: «ربما جمال نيويورك غير التعمدي هو أكثر غنى وتنوعاً بكثير من الجمال المفرط في الصرامة والذي هيّأته مسبقاً خطة إنسانية. ولكن جمال نيويورك مختلف تماماً عن الجمال الأوروبي. إنه عالم غريب».

كيف؟ أيوجد شيء ما يتفقان في الرأي بشأنه؟

لا، هنا أيضاً الأمر مختلف. فغرابة الجمال النيويوركي تجذب سابينا بجنون. بينما هي تسحر فرانز وترعبه في آن وتثير فيه الحنين إلى أوروبا.

وطن سابينا:

تتفهم سابينا تحفظ فرانز حيال أميركا. فهو مثال حي لأوروبا: أمّه أصلها من ڤيينا وأبوه فرنسي، أما هو فسويسري.

فرانز معجب بوطن سابينا. وهو، حين تحدثه عنها وعن أصدقائها في بوهيميا، وحين يسمع بكلمات سجون ومداهمات ودبابات في الشوارع وهجرة ومناشير وأدب ممنوع ومعارض ممنوعة، يشعر برغبة غامضة مفعمة بالحنين.

ويُسرّ لسابينا: «كتب عني أحد الفلاسفة مرةً». فقال إن كل ما أقوله ليس إلا نظريات منزّهة عن أية براهين، ووصفني «بأني أكاد أكون سقراط الهائل»، فشعرت عندها بأنه بالغ في إهانتي ورددت عليه بغضب. تخيّلي أن هذه الحادثة التافهة هي الحادثة الأخطر التي شاهدتها في حياتي! وأن حياتي أدركت بها أقصى حد ممكن من إمكاناتها المأسوية! يعيش كلٌّ منّا نحن الإثنين في مستويات مختلفة. دخلتِ إلى حياتي كما دخل غوليڤر إلى مملكة الأقزام.

سابينا تحتج قائلة إن الصراعات والفواجع والمآسي لا تعني شيئاً البتة

ولا قيمة لها، وهي لا تستحق الاحترام أو الإعجاب. فكل ما يمكن للجميع أن يحسد فرانز عليه هو العمل الذي يتمكن من إنجازه في سلام.

يهز فرانز رأسه قائلاً: «الناس في المجتمعات الميسورة، ليسوا بحاجة إلى الأعمال اليدوية بل يكرسون أنفسهم للنشاط الذهني. لذلك فإن الجامعات في ازدياد مطّرد والطلاب أيضاً. ولكي يحظوا بشهاداتهم، عليهم أن يختاروا مواضيع لإجازاتهم. وهناك عدد غير محدود من المواضيع فبالإمكان معالجة كل ما يخطر في الأذهان. وها هي أكداس الورق المسوّد تملأ الدوائر التي صارت أكثر حزناً من المقابر لأن لا أحد يأتي إليها ولا حتى في عيد جميع القديسين. وهكذا فإن الثقافة تغرق في بحر من الكتب وفي وابل من الجمل، وفي جنون الكميّة. صدقيني، إن كتاباً واحداً ممنوعاً في بلدك القديم لأهمّ بكثير من مليارات الكلمات التي تقذف بها جامعاتنا».

في هذا الاتجاه بالذات يمكن أن يُفهَم ضعف فرانز حيال كل أنواع الثورات. فهو في السابق تعاطف مع كوبا ثم مع الصين، ثم اشمأزت نفسه من فظاعة نظاميهما وخلص للاقتناع بمرارة بأنه لم يتبقَ له إلا هذا المحيط من الحروف التي لا قيمة لها ولا علاقة لها بالحياة. أصبح مدرّساً في جامعة جنيف (حيث لا تظاهرات) ونَشَر بنوع من التفاني (كان يعيش في عزلة دون نساء ولا مواكب) عدة أعمال علمية لاقت الكثير من النجاح. وفي ذات يوم انبثقت سابينا مثل ظهور عجيب. كانت آتية من البلاد التي ذبلت فيها الأوهام الثورية منذ وقت طويل، ولكن التي بقي منها أكثر ما كان يعجبه في الثورات وهو: الحياة التي تعاش فوق السلم العظيم للخطر والشجاعة والموت المهدّد. كانت سابينا تعيد له الثقة بعظمة المصير الإنساني. كانت جميلة بقدر ما تتراءى خلف قامتها مأساة بلادها الأليمة.

للأسف، سابينا لا تحب هذه المأساة. وكلمات سجون ومداهمات وكتب ممنوعة واحتلال ودبابات هي بالنسبة لها كلمات بشعة مجردة من أية حلاوة رومنطيقية. أما الكلمة الوحيدة التي لا تزال تطن في أذنيها مثل ذكرى حنين لبلادها هي كلمة مقبرة.

المقـبرة:

المقابر في بوهيميا تشبـه الحدائق. والأضـرحة هنـاك يكسوهـا العشب والأزهار الفاقعة الألوان. والأنصاب الوضيعـة تختفي وسط اخضرار الأوراق. عند المساء، تكتظ المقبرة بشموع صغيـرة مضاءة. فيُخيـل للمرء أن المـوتى يقيمون حفلة راقصة طفولية. نعم، حفلة راقصـة طفوليـة، لأن الموتى أبـرياء كالأطفال. مهمـا تكن الحياة أليمـة، ففي المقبرة يُخيّم السـلام على الدوام، حتى خلال الحرب في عهد هتلر وفي عهد ستـالين، وفي ظلّ الاحتـلالات. وحين كانت تشعر أنها حزينـة، كانت تـركب سيارتهـا وتنطلق فيهـا بعيداً عن براغ لتتنزه في إحدى مقابرها المفضلة. كانت هذه المقابر الريفية على خلفية تلال مائلة إلى الزرقة، جميلةً وكأنها مُهود.

أما فرانز فهو يجد أن المقابر مزبلة قذرة من العظام والحصى.

6

«لن أصعـد أبداً في سيـارة بعد اليـوم. يخالجني خـوف عـظيم من أن أصاب بحادث سيارة! حتى ولو لم تكن الضـربة قـاضية، فـإن الصدمـة التي تعقبها ترافقنا حتى نهاية أيامنا!»، كان النحات يقول ذلك وهو ممسك بطريقة لا إراديـة بسبّابتـه التي أوشك أن يقتـطعها أثنـاء نحتـه الخشب، والتي نجـح الأطباء في إنقاذها بفضل معجزة.

كانت ماري ـ كلود تزعق بلهجة مستوفية لـلأصول: «ليس صحيحـاً ما تقول. لقد حصل لي حادث سيارة وكان الأمر رائعاً. ما شعرت قط في حياتي أنني كنت أحسن حـالاً ممـا أنـا عليـه في المستشفى! لم أكن أستـطيـع أن أغمض جفناً وكنت أقرأ بطريقة تصل الليل بالنهار».

كان الجميع ينظرون إليها بدهشة ملأتها بالسرور عياناً. امتـزج انقباض فرانز (الذي كان يتذكر أن زوجتـه كانت محبـطة للغايـة إثر هـذا الحادث ولا تتـوقف عن النحيب) بشيء من الإعجاب (فمـوهبـة مـاري ـ كلود هـذه في أن تبدّل صورة معاناتها تنمّ عن حيويّة جديرة بالإحترام).

ثم أردفت: «هناك في المستشفى بدأت أصنّف الكتب إلى فئتين: الكتب النهارية والكتب الليلية. وهذا صحيح، هناك كتب للنهار وكتب أخرى لا يمكن قراءتها إلا في الليل».

كان الجميع ينظرون إليها بدهشة يعتريها الإعجاب. وحده النحات الذي كان يمسك إصبعه قد تقبَض وجهه من ذكرى أليمة.

التفتت ماري ـ كلود ناحيته: «ضمن أي مجموعة تضع ستاندال؟».

لم يكن النحات مصغياً فرفع كتفيه بانزعاج. ثم قال ناقد فنّي، كان على مقربة منه، إن قراءة ستاندال هي حسب رأيه قراءة نهارية.

أومأت ماري ـ كلود برأسها معلنة بصوتها الزاعق: «هذا ليس صحيحاً! لا ولا، ثم لا، أنت لست محقاً! ستاندال كاتب ليلي».

كان فرانز يتابع النقاش عن الفن الليلي والنهاري من بعيد، وكان لا يشغل باله إلا اللحظة التي ستدخل فيها سابينا. كانا قد فكرا سوية لبضعة أيام ما إذا كان مستحسناً أم لا أن تقبل سابينا الدعوة إلى حفلة كوكتيل تقيمها ماري ـ كلود على شرف جميع الرسامين والنحاتين الذين عرضوا في صالتها الخاصة. ذلك أن سابينا مذ تعرفت على فرانز، وهي تتحاشى رؤية زوجته. ولكنها إذ خشيت أن تفضح نفسها، اقتنعت بأن مجيئها سيكون طبيعياً أكثر وأقل إثارة للشبهة.

وبما أنه كان يسترق نظرات خاطفة إلى المدخل، تنبّه إلى أن صوت ابنته ماري ـ آن، التي تبلغ ثماني عشرة سنة، يخطب بإطناب ودون توقف في عمق الصالون. ترك المجموعة التي تترأسها زوجته لينضم إلى الحلقة التي تتزعمها ابنته، حيث كان هناك شخص جالس على الأرض والآخرون واقفين بينما ماري ـ آن جالسة على الأرض. كان فرانز متأكداً من أن ماري ـ كلود، الموجودة في الناحية المقابلة من الصالون، ستجلس عمّا قريب على السجّادة بدورها. فالجلوس على الأرض أمام المدعوين كان يعتبر آنذاك تصرفاً يؤكد على أن المرء طبيعي يتصرف على سجيته وتقدمي واجتماعي وباريسي. وكانت ماري ـ كلود مشغوفة كثيراً بالجلوس على الأرض وفي كل الأمكنة

المتوفرة. . حتى أن فرانز كان يخشى في أغلب الأحيان أن يجدها جالسة على أرض الدكان الذي تشتري منه السجائر.

سألت ماري ـ آن الرجل الذي كانت تجلس أمامه: «ماذا تفعل في هذه الأيام يا آلان؟».

فأراد آلان الساذج والشريف أن يجيب بدقة على ابنة صاحبة الصالة. وأخذ يشرح لها طريقته الجديدة في الرسم والتي تجمع بين التصوير والرسم بالزيت. ما كاد يلفظ ثلاث جمل حتى أطلقت ماري ـ آن صفيراً. لكن الرسّام كان مركّز الذهن فلم يسمع صفيرها وتابع يتكلم ببطء.

همس فرانز: «هل في استطاعتك أن تقولي لي لماذا تصفرين؟».

ـ «لأنني أكره التحدث في السياسة»، أجابت ماري ـ كلود بصوت عالٍ.

كان هناك رجلان، في الواقع، واقفين في الحلقة نفسها يتحدثان في شأن الانتخابات الفرنسية المقبلة. فسألتهما ماري ـ آن التي كانت تشعر أنها معنية بإدارة الأحاديث عما إذا كان في استطاعتها الذهاب في الأسبوع المقبل إلى المسرح حيث ستقدم فرقة إيطالية أوبرا لروسّيني. فيما آلان الرسّام لا يزال مصراً على إيجاد عبارات أكثر دقة لكي يشرح طريقته الجديدة في الرسم؛ وكان فرانز خجلاً من ابنته فقال لها ليسكتها بأنه يضجر حتى الموت حين يذهب لمشاهدة الأوبرا.

قالت ماري ـ آن وهي تربت على بطن أبيها دون أن تحاول النهوض: «أنت لا تفهم شيئاً. المغنّي الرئيسي. جميل جداً! يا إلهي كم هو جميل! رأيته مرتين ومنذ ذلك الوقت وأنا متيمة به».

كان فرانز يتحقق من أن ابنته تشبه أمها بشكل لا يرقى إلى الشك. لكن لماذا لا تشبهه هو بالأحرى؟ الأمر لا رجاء فيه، فهي لا تشبهه. سبق له ألف مرة أن سمع ماري ـ كلود تقول بأنها مغرمة بهذا الرسام أو بذاك، أو بمغنٍّ أو بكاتب أو برجل سياسي، وحتى أنها أُعجبت مرةً براكب درّاجات. جلّي أن هذا الأسلوب في الكلام هو الأسلوب المتبع في مآدب العشاء في المدينة والحفلات، لكنه كان يتذكر أحياناً أنها، منذ عشرين

عاماً، قالت له فيما يخصّه الكلام ذاته وهددته إلى ذلك بالانتحار.

في هذه اللحظة بالذات، دخلت سابينا. رأتها ماري ـ كلود فتقدمت لاستقبالها. كانت ابنته تتابع حديثها عن روسيني، ولكن فرانز كان آذاناً صاغية فقط لما تقوله المرأتان فيما بينهما. بعد بضع جمل مؤدبة مرّحبة، أمسكت ماري ـ كلود بالعقد الخزفي الذي كانت تضعه سابينا حول عنقها وقالت بصوت عالٍ جداً: «ما هذا الذي تضعينه! إنه مرعب!».

استأثرت هذه الجملة بانتباه فرانز. لم تكن ملفوظة بنبرة عدائية على العكس، يُفترض بالضحكة العالية التي واكبتها أن تؤكد على الفور أن استهجان ماري ـ كلود للعقد لا يغيّر شيئاً في صداقتها للرسامة. ولكن هذه الجملة لم تكن تندرج مع ذلك في سياق اللهجة التي تخاطب بها ماري ـ كلود الآخرين عادةً.

ـ «صنعتُه بنفسي»، قالت سابينا.

ـ «أجده مرعباً صراحة»، كررت ماري ـ كلود بصوت عالٍ. «ما كان يجدر بك أن ترتديه.

كان فرانز يعرف أن زوجته لا يهمها إطلاقاً أن تكون حلية ما قبيحة أم جميلة. كان قبيحاً ما كانت ترغب في رؤيته قبيحاً، وجميلاً ما كانت تود أن تراه جميلاً. لذلك، كانت حلى صديقاتها جميلة عن سابق تصور. ربّما كان يمكنها أن تجدها قبيحة لكنها كانت تخفي ذلك بعناية، فالإطراء صار منذ زمن بعيد طبيعتها الثانية.

لماذا قررت إذاً أن تجد الحلية التي صنعتها سابينا بنفسها قبيحة؟

كان الأمر ينجلي فجأة لفرانز: إذا كانت ماري ـ كلود قد صرّحت بأن حلية سابينا قبيحة، فهذا لأنها قادرة على السماح لنفسها بأن تقول ذلك.

في العام الفائت، لم يكن عرض سابينا ناجحاً بما فيه الكفاية ولم تكن ماري ـ كلود تهتم البتة بكسب ودّ سابينا. بل خلافاً لذلك، كان لسابينا جميع الدوافع التي تدعوها لاكتساب ودّ ماري ـ كلود. ومع ذلك فإن تصرفها لم يفصح عن هذا الأمر.

نعم، بدأ فرانز يفهم ذلك بوضوح كلي: اغتنمت ماري ـ كلود الفرصة لتؤكد لسابينا (وللآخرين) ما هو ميزان القوى الحقيقي الذي يحدد علاقتهما.

7

معجم صغير للكلمات غير المفهومة (خاتمة)

كنيسة أمستردام القديمة:

من جهة، هناك البيوت التي تُرى من خلف نوافذها الكبيرة في الطوابق السفلية والشبيهة بواجهات المخازن، غرف العاهرات الصغيرة. ها هنّ جالسات في ملابسهن الداخلية لصق الزجاج على كنبات صغيرة مزدانة بالوسائد، وكأنهنّ قطط ضخمة ضجرة.

وفي الجهة الأخرى من الشارع كنيسة غوطية هائلة تعود إلى القرن الرابع عشر وبين عالم العاهرات وعالم المؤمنين تمتد، مثل نهر فاصل بين مملكتين، رائحة بول نفّاذة.

من الداخل، لم يبق من الفن الغوطي غير الجدران العالية العارية والأعمدة والقبة والنوافذ. لا وجود لِلَوحة أو لتماثيل في أي مكان. والكنيسة خاوية مثل قاعة تمارينَ رياضية. كل ما نراه فيها عبارة عن صفوفٍ من الكراسي في الوسط تشكل مربَّعاً حول منصة منمنمة تنتصب فوقها طاولة الواعظ الصغيرة، وخلف الكراسي ثمة مقصورات خشبية وهي حجيرات معدّة للعائلات الثرية.

الكراسي والحجيرات الخشبية موضوعة هنا دون أدنى اهتمام بالشكل الهندسي للجدران ونسق الأعمدة، وكأنها بذلك تريد أن تعبر عن لامبالاتها وعن احتقارها لفن العمارة الغوطي. قرون مرّت الآن على تحويل الإيمان الكلفاني الكنيسةَ إلى مجرد سقيفة بسيطة لا وظيفة لها غير حماية المصلّين المؤمنين من الثلج والمطر.

كان فرانز مسحوراً: فهذه الصالة الهائلة قد عبرتها المسيرة العظيمة للتاريخ.

كانت سابينا تتذكر أن جميع قصور بوهيميا قد تأممت بعد الانقلاب الشيوعي وتحولت إلى مراكز تدريب وإلى مؤسسات للعجزة، وإلى زرائب أيضاً. قامت بزيارة إحدى هذه الزرائب: كانت هناك كلاليب بحلقات مثبتة إلى جدران الجصّ، والأبقار التي كانت معلّقة فيها تنظر حالمة عبر النوافذ إلى حديقة القصر حيث كانت تهرول دجاجات.

قال فرانز: «هنا الفراغ يسحرني. نكدّس المذابح والتماثيل والصور والكراسي والكنبات والسجاجيد والكتب، ثم يأتي وقت البهجة الجماعية المحررة فيتم تكنيس كل هذا كما تكنّس الفضلات عن الطاولة.. هل في استطاعتك أن تتخيلي مكنسة هرقل التي كنست هذه الكنيسة؟».

أشارت سابينا إلى حجيرة خشبية: «كان الفقراء يبقون واقفين والأثرياء جالسين في حجيراتهم. لكن هناك شيء يجمع مع ذلك بين صاحب المصرف والفقير وهو: مَقْت الجمال».

«ما هو الجمال؟» قال فرانز وقد فكّر فجأة بمعرض شاهده مؤخراً برفقة زوجته. فكّر بتفاهة الأحاديث التي لا تنتهي، بتفاهة الثقافة وتفاهة الفن.

عندما كانت تلميذة، كانت تعمل في «ورشة الشباب»، وكانت روحها قد تشبعت سمَّ الأبواق المبتهجة المتدفقة دون توقف من مكبرات الصوت، فانطلقت ذات يوم أحَد راكبة على درّاجة. كانت توغّلت بضعة كيلومترات داخل غابة، ثم توقفت في مدينة صغيرة مجهولة ضائعة وسط التلال. أسندت الدرّاجة إلى حائط الكنيسة ودخلت: كانوا يحتفلون لساعتهم بالقداس.. كان النظام الشيوعي آنذاك يضطهد الدين وكانت أغلبية الناس تتحاشى الذهاب إلى الكنائس. كان هناك بضعة عواجز جالسين على المقاعد لا يهابون النظام بل يهابون الموت فقط.

كان الكاهن يتلفظ جملة بصوت رخيم فيرددها الجمع وراءه سوية. كانت الجمل عبارة عن طلبات حيث تتكرر الكلمات ذاتها مثل سائح لا يمكنه إشاحة بصره عن منظر، ومثل رجل لا يستطيع الاستئذان بالانصراف أبداً. جلست على مقعدٍ في الخلف. كانت تغمض عينيها أحياناً لا لشيء إلا لسماع موسيقى هذه الكلمات، ثم تفتحهما من جديد فترى فوقها القبة

المطلية بالأزرق التي تزينها نجوم ذهبية كبيرة. فاستسلمَتْ للسحر.

ما صادفته في هذه الكنيسة على غير موعد لم يكن الله بل الجمال. كانت تعرف جيداً في الوقت نفسه أن هذه الكنيسة وهذه الطلبات لم تكن جميلة بحدّ ذاتها وإنما هي جميلة بالمقارنة مع تجاورها اللاّمادي مع «ورشة الشباب» حيث كانت تمضي أيامها في خضم الأغاني الصاخبة. كان القداس جميلاً لأنه بدا لها فجأة وبطريقة خفية وكأنه عالم جرت خيانته.

أدركت منذ ذلك الحين أن الجمال هو عالم جرت خيانته ولا تمكن مصادفته إلا حين ينساه مضطهدوه عن غير قصد في مكان ما.. كان الجمال يختبيء خلف «ديكورات» موكب الأول من أيار، ولكي يتم العثور عليه، يجب تمزيق قماشة «الديكور».

قال فرانز: «إنها المرة الأولى التي أقع فيها تحت تأثير سحر كنيسة». لم تكن البروتستانتينية أو التقشف هما اللذان يثيران حماسه، إنما شيء آخر جوّاني صميم، ولم يكن يجرؤ على الإفصاح عنه لسابينا. كان يُخيل إليه أنه يسمع صوتاً يُملي عليه أن يمسك بمكنسة هرقل ويكنس من حياته معارض ماري ـ كلود ومغني ماري ـ آن والمؤتمرات والندوات والأحاديث التافهة والكلمات التافهة. بدا له فراغ المساحة الشاسعة لكنيسة أمستردام وكأنه صورة انعتاقه الخاص.

القـوّة:

كانت سابينا تلهو بذراعي فرانز في سرير من أسرّة الفنادق العديدة التي كانا يتضاجعان فيها، وتقول: «عجيب، كم أن عضلاتك مفتولة!».

كان هذا الثناء يدخل السرور إلى قلب فرانز. نهض عن السرير ثم امسك كرسياً من خشب السنديان من رِجله وشرع يرفعه ببطء عن مستوى الأرض. كان يقول لسابينا في الوقت نفسه.

ـ «لا خوف عليك، أستطيع الدفاع عنك في كل الظروف. كنت بطلاً في الجودو من زمان».

نجح في رفع ذراعه عمودياً وهو يحمل الكرسي. ثم قالت له سابينا: «يسعدني أن أراك قوياً إلى هذا الحد!».

ولكنها أضافت في سرّها ما مفاده: فرانز قوي ولكن قوته موجهة فقط نحو الخارج. أما مع الناس الذين يعيش بينهم، مع أولئك الذين يحبهم فهو ضعيف. ضعف فرانز يسمّى الطيبة. فرانز ليس على استعداد إطلاقاً لأن يوجه أوامر لسابينا. فهو لن يأمرها أبداً، كما كان توماس يفعل في السابق، بأن تضع المرآة على الأرض وأن تجول فوقها عارية تماماً. ليس لأن الشهوية تنقصه بل لأنه لا يقوى على إعطاء الأوامر. ثمة أشياء لا يمكن تحقيقها إلا عن طريق العنف. والعلاقة الجنسية خاصة لا يمكن تصورها من دون العنف.

كانت سابينا تنظر إلى فرانز وهو يجول الغرفة رافعاً الكرسي عالياً جداً. كان الأمر يبدو لها مثيراً للسخرية ويملؤها بحزن غريب.

ألقى فرانز الكرسي وجلس مستديراً ناحية سابينا ثم قال:

ـ «ليس أمراً لا يروقني أن أكون قوياً، ولكن بماذا يمكن أن تنفعني عضلات كهذه في جنيف؟ أحملها معي وكأنها زينة، كأنها ريشات الطاووس. لم يسبق لي أن ضربت أحداً في حياتي».

كانت سابينا تلاحق أفكارها الكئيبة. ماذا لو أحبّت رجلاً كان يريد إعطاءها الأوامر؟ من هو ذلك الذي سيرغب في التحكم بها؟ وكم من الوقت ستتحمله؟ ولا حتى خمس دقائق! من هنا، فإن أيّاً من الرجال لا يناسبها، سواء كان قوياً أم ضعيفاً.

ـ قالت: «ولماذا لا تستعمل قوتك ضدي من وقت لآخر؟

ـ قال فرانز برقّة: لأن الحب يعني أن نتخلّى عن القوّة».

ففهمت سابينا أمرين: الأول أن هذه الجملة كانت جميلة وصحيحة، والثاني أنه يوشك مع هذه الجملة أن يتجرد من صلاحيته في حياتها الجنسية.

العيش في الحقيقة:

إنها عبارة استعملهـا كافكـا في يوميـاته أو في إحـدى رسائله. لم يعـد فرانز يتذكر أين بالضبط. ولكن هذه العبـارة تسحره. فمـا معنى أن نعيش في الحقيقـة؟ ثمة تعـريف سلبي سهل: معنـاه ألّا نكذب وألا نُخفي وألا نتكتم. وهـو، مذ تعـرَّف إلى سابينـا، يعيش في الكذب. فَتَـارةً يحكي لـزوجتـه عن مؤتمر في أمستردام، وتارة أخرى عن محاضرات في مدريد لا أسـاس لها من الصحـة. وهو أيضـاً يخاف من التنـزه برفقـة سـابينـا في شـوارع جنيف. أن يكـذب وأن يتخفى أمر ممتـع لمجرّد أنـه لم يفعل ذلـك من قبل، فهـو يشعر عندها بـدغدغـة لذيـذة كما عنـدما يقـرر الأول في صفّه أخيـراً أن يتنزه بـدل الذهاب إلى المدرسة.

أمـا العيش في الحقيقة وعـدم الكذب على أنفسنـا أو على الآخـرين، بالنسبة لسابينا، فأمر غير ممكن، إلا إذا عشنا بعيداً عن الناس، فَما أن يكون هناك شاهد على أعمالنا حتى نتأقلم طوعاً أو كرهاً مـع النواظـر التي تراقبنـا، فـلا يعـود أي شيء ممـا نقـوم بـه حقيقيـاً. أن نحـظى بجمهـور وأن نفكـر بجمهور، فهذا يعني أن نعيش في الكذب. سابينا تكره الأدب الـذي يكشف فيه الكاتب عن حياته الخاصة أو عن حياة أصدقائه الخاصة.. وتفكـر سابينـا أن ذلـك الذي يفقـد حياتـه الخاصـة يفقـد كـل شيء. وأن من يتخلى عنهـا بكامل إرادته، إنما هو مسخ. لذلك فـإن سابينـا لا يؤلمها أن يكـون عليها أن تُخفي حبّهـا. بل على العكس، هـذه هي وسيلتهـا الـوحيـدة لكي تعيش في الحقيقة.

أما فرانز فهو متأكد أن أصل جميع أنواع الكذب يكمن في الفصـل بين الحياة الخاصة والحياة العامة: حين يكون المرء شخصـاً في حياتـه الخاصـة وشخصاً آخر في حياته العامة. فالعيش في الحقيقة، بالنسبة لفرانز، هو إلغاء الفـاصل بين الخـاص والعام. وهـو يتذكـر في هـذه المنـاسبـة تلقـائيـاً جملة لبروتون يقول فيها إنه كان يود أن يعيش «في منزل من زجاج»، حيث لا شيء خفيّ وكل شيء مُشرّع للأنظار كلها.

عندما سمع زوجته تقول لسابينا: «يا للحلية المريعة!»، فهم عندئذ أنه

بات من المستحيل العيش في الكذب. وأنه كان عليه منذ تلك اللحظة أن يبادر للدفاع عن سابينا. وإذا لم يكن قد فعل ذلك، فهذا فقط لأنه خاف من أن يُفتضَح أمرُ حبّه السري أمام الناس.

غداة اليوم التالي بعد الحفلة، كان يُفترض به الذهاب لقضاء يومين في روما. كانت الكلمات: «يا للحلية المريعة!» تطنّ من دون توقّف في أذنيه، وبدت له زوجته في إطار وجهة نظر مختلفة. لم تعد كما كان يراها دائماً. إن عدائيتها المنيعة والصاخبة والديناميكية أزاحت عنه ثقل الطيبة الذي كان يرزح تحته طيلة عشرين سنة زواج. تذكَّر المساحة الشاسعة داخل كنيسة أمستردام، فأحس بالحماس الغريب والغامض الذي يثيره فيه هذا الفراغ، يتدفق في أعماقه.

كان يجهز حقيبته عندما دخلت ماري ـ كلود إلى الغرفة. أخذت تتحدث عن مدعوي البارحة، مصدّقة بحماس بعض الآراء التي سمعتها، ومُدينةً بفظاظة بعضها الآخر.

شخص فرانز إليها طويلاً، ثم قال: «ليست هناك محاضرة في روما».

لم تكن تفهم: «ولماذا تذهب إلى هناك إذاً؟»..

فأردف: «لدي عشيقة منذ تسعة أشهر. لا أريد أن أراها في جنيف. لذلك أسافر بكثرة. فكرت أنه من المستحسن أن أخبرك بذلك».

حين تفوّه بالكلمات الأولى أحسّ بالخوف وغادرته شجاعته الأولى. فأشاح بوجهه كي لا يقرأ على وجه ماري ـ كلود وقع اليأس الذي تحدثه كلماته.

بعد لحظة قليلة سمعها تقول: «نعم. أنا أيضاً أعتقد أنه من المستحسن أن تخبرني بذلك».

كانت نبرة كلماتها حازمة. رفع عينيه ناحيتها: لم تكن ماري ـ كلود منهارة قط. بل كانت لا تزال تشبه المرأة التي كانت تقول بصوت زاعق: «يا للحلية المريعة!».

ثم تابعت قائلة: «بما أنك تملك الشجاعة لإعلامي بأنك تخونني منذ تسعة أشهر، هل تستطيع أن تقول لي أيضاً مع مَنْ؟».

كان يدّعي دائماً أنه لا يُفترض به أن يؤذي ماري ـ كلود، وأن عليه احترام المرأة فيها. ولكن ما الذي صار بحال المرأة في ماري ـ كلود؟ وبطريقة أخرى، أين أصبحت صورة الأم التي كانت تربطه بزوجته؟ صورة أمّه، أمّه الحزينة المجروحة التي ارتدت فردتْي حذاءٍ مختلفتين، غادرَتْ ماري ـ كلود، وربما لم تغادرها لأنها لم تكن موجودة فيها أصلاً. فهم كل هذا نتيجة هجمة مباغتة للكراهية.

فقال: ليس هناك ما يدعو لأخفي عليك.

بما أن خيانته أمر لا يجرحها، فسيجرحها بالطبع أن تعرف من هي غريمتها. لفظ اسم سابينا وهو ينظر مباشرة إلى عينيها.

بعد وقت قليل، وافى سابينا إلى المطار. كان، كلّما علَتْ الطائرة، يشعر أنه يصير أكثر خفة. كان يقول في نفسه إنه في نهاية الشهر التاسع، ها قد بدأ أخيراً يعيش في الحقيقة.

8

كان الأمر في نظر سابينا كما لو أن فرانز يقتحم باب حياتها الخاصة عنوة،. فترى من الشقّ رأس ماري ـ كلود ورأس ماري ـ آن ورأس الرسام الآن ورأس النحّات الذي كان يمسك بإصبعه طيلة الوقت، ورؤوس جميع الناس الذين تعرفهم في جنيف. كانت تصبح رغماً عنها غريمة امرأة لا تعني لها شيئاً إطلاقاً. . ففرانز سيبادر إلى الطلاق وهي ستأخذ مكانها إلى جانبه على سرير زوجي كبير. وستكون محط أنظار الجميع من قريب أو من بعيد. وبدل أن تكون سابينا، ستكون مرغمة على تمثيل دور سابينا وإيجاد الطريقة المناسبة للعبة. وهكذا، فإن الحب الذي صار علانيّاً سيزداد وزناً ليصير حملاً ثقيلاً. كانت سابينا، لمجرد التفكير بذلك، ترزح تحت ثقله سلفاً.

كانا يتناولان العشاء في أحد مطاعم روما ويشربان الخمرة، وكانت سابينا قليلة الكلام.

فسأل فرانز: «هل صحيح أنك لست غاضبة مني؟». فأكدت له أنها ليست غاضبة منه. كانت أفكارها مشوشة تماماً ولا تعرف بعد ما إذا كان عليها أن تهلّل للأمر أم لا. كانت تفكر في لقائهما في عربة النوم لقطار أمستردام. شعرت في ذلك المساء برغبة في الارتماء عند قدميه والتوسل إليه ليستبقيها قربه حتى ولو اضطرّه الأمر لاستعمال القوة، وألا يدعها ترحل أبداً.

كانت راغبة ذلك المساء في أن تنهي حساباتها نهائياً مع هذا السفر الطويل من خيانة إلى خيانة. كانت ترغب في التوقف.

الآن، ها هي تحاول أن تتمثل في ذهنها وبأقصى حدة ممكنة، رغبتها السابقة، أن تستعيدها وتتقوّى بها، ولكن عبثاً. كان الشعور بالضيق أقوى من كل شيء.

كانا متوجهين إلى الفندق وسط عجقة المساء، وكان الإيطاليون حولهما يفرقعون ويزعقون ويشوّرون بأيديهم، بحيث إنهما كانا يستطيعان المشي جنباً إلى جنب صامتَيْن فلا يسمعا صمتهما.

بعدها، أمضت سابينا وقتاً طويلاً في الحمام وهي تهتم بنفسها. وكان فرانز أثناء ذلك ينتظرها تحت غطاء السرير الزوجي الواسع. وكان هناك كالعادة مصباح صغير مضاء.

حين رجعت من غرفة الحمام، أطفأت الضوء. هذه هي المرة الأولى التي تتصرف فيها على هذا النحو. كان يُفترض بفرانز أن يرتاب لهذا التصرف ولكنه لم ينتبه لأن الضوء لا يثير اهتمامه. فهو، كما رأينا، يبقي عينيه مغمضتين أثناء المجماعة.

ولهذا السبب بالذات، ولأنه كان يغمض عينيه، أطفأت سابينا الضوء. فهي ليس لديها أدنى رغبة في رؤية أجفانه المطبقة ولو لثانية واحدة. العيون، كما يقول المثل، هي نوافذ النفس. وهي كانت تشعر أن جسد فرانز، الذي يتخبط فوقها وهو مغمض العينين، جسد دون روح. كان شبيهاً بحيوان صغير لا يزال غير قادر على الرؤية فيرسل أصواتاً مستعطفة لأنه عطشان. كان فرانز بعضلاته المفتولة يشبه أثناء الجماع جرواً ضخماً يرضع من ثدييها. وهذا

صحيح، كانت حلمتها الآن في فمه وكأنه يهمّ بأن يرضع! كانت تفكر أن فرانز ناضج في الأسفل ورضيع في الأعلى، وأنها تضاجع رضيعاً، مما جعلها توشك أن تشعر بالتقزز. لا، هي لا تريد بعد اليوم أن تراه يتخبط بائساً فوقها ولن تمد له بعد الآن ثديها كما تمد كلبة ثديها لصغيرها. اليوم، هذه آخر مرة، إنها المرة الأخيرة التي لا رجوع فيها!

كان جلياً أنها تعرف أن قرارها ظلم خالص، وأن فرانز هو أفضل رجل عرفته. فهو ذكي ويفهم لوحاتها وطيّب وشريف وجميل. ولكنها كانت كلّما وعتْ هذه الصفات، تعنّف رغبتها في أن تنكث بهذا الذكاء وهذه الطيبة وهذه القوة الخرقاء.

أحبّته في هذه الليلة بحمية أكثر توقداً من أي وقت مضى. كانت تستثيرها فكرة المرّة الأخيرة. كانت تعشقه، محلّقة في مكان آخر بعيداً من هنا، كانت تسمع بوق الخيانة الذهبي صادحاً في البعيد، وكانت عارفة أنها غير قادرة على مقاومة هذا الصوت. بدا لها أن ثمة مسافة أخرى شاسعة من الحرية مشرعة أمامها، وأن اتساع هذه المسافة يثيرها. وفي أثناء ذلك، كانت تعشق فرانز بجنون وبوحشية، كما لم تعشقه من قبل.

كان فرانز يشهق فوق جسدها وهو متأكد من أنه فهم كل شيء: فسابينا كانت صامتة أثناء العشاء ولم تفصح له عن رأيها بقراره، ولكنها الآن تعطيه الجواب: ها هي تفصح له عن فرحتها وشغفها وموافقتها ورغبتها في أن تعيش معه إلى الأبد.

كان يلوح له أنه فارس يخيّل في فراغ رائع، في فراغ دون زوجة ودون ولد ودون بيت. فراغ رائع كان كنّسه بمكنسة هرقل. فراغ رائع سيملؤه بحبّه.

كان يمتطي أحدهما الآخر ويخيّلان باتجاه مسافات يحلمان بها. كان كلاهما منتشياً من خيانة تحرّره. كان فرانز يمتطي سابينا ويخون زوجته، وسابينا تمتطي فرانز وتخون فرانز.

ا

9

لعشرين سنة خلت، كان يرى أمه في زوجته أشبه بكائن ضعيف تجدر حمايته. . وهذه الفكرة كانت عميقة التجذر في كيانه حتى يستطيع التخلص منها في يومين. كان الندم يتآكله عندما رجع إلى المنزل: ربَّما أصيبت بنوبة عصبية بعد رحيله، ربما سيجدها مثقلة بالأحزان. ثم أدار المفتاح داخل القفل بخجل وولج إلى غرفته. حرص ألَّا يحدث ضجة ثم أرهف السمع: نعم، كانت في البيت. بعد تردد قليل، ذهب ليقول لها صباح الخير كعادته.

رفعت حاجبيها وهي تصطنع الدهشة: «أرى أنك عدت إلى هنا؟».

رغب في أن يجيبها (بدهشة صادقة): «وأين تريدين أن أذهب؟»، ولكنه صمت.

ثم أضافت: «لكي يكون كل شيء واضحاً بيننا، لا أرى مانعاً في أن تقيم عندها منذ الآن».

عندما باح لها بكل شيء يوم رحيله، لم تكن لديه خطة معيّنة. كان على استعداد لدى عودته للتحدث إليها بمودة كلية حتى يقلّل ما أمكن من الأذيّة التي قد يسبّبها لها. لم يكن يعلم أنها ستصر بعناد بارد على أن يرحل.

شعر بأنه خائب مع أن هذا التصرف كان يسهّل له الأمور. كان حريصاً طيلة حياته ألا يجرحها وبسبب هذا فقط، فرض على نفسه هذا الالتزام الطوعي بزواج أحادي خابل للذهن. وها إنه يستنتج الآن وفي نهاية العشرين سنة أن مراعاته كلها كانت غير مجدية، وأنه قد امتنع عن النساء بسبب سوء تفاهم!

ذهب تواً، بعد أعطائه المحاضرة في الجامعة في فترة بعد الظهر، إلى سابينا. كان في نيته أن يطلب منها السماح له بقضاء الليلة عندها. قرع الجرس ولكن أحداً لم يفتح، فذهب لانتظارها في المقهى المقابل وعيناه مسمّرتان على مدخل البناية.

مرّت ساعات ولم يكن يدري ماذا يفعل. كان قد نام طيلة حياته في

سرير واحد إلى جوار ماري كلود. لو رجع الآن، أيفترض به أن يتمدد قربها ىما كان يفعل من قبل؟ يمكنه بالتأكيد أن ينام على الأريكة في الغرفة المجاورة. ولكن ألن يكون هذا التصرف استعراضياً جداً؟ ألن ترى زوجته فيه إفصاحاً عن العداء؟ كان على استعداد لأن يبقى صديقاً مع زوجته! ولكن أن يذهب للنوم بجانبها فهذا أمر مستحيل. كان يسمع من الآن أسئلتها المستهزئة: كيف؟ ألا تفضل البقاء في سرير سابينا؟ فآثر عندها أن يقضي الليلة في أحد الفنادق.

رجع صباح اليوم التالي يدقّ على باب سابينا طوال النهار، ودائماً دون جدوى.

في اليوم الثالث ذهب يسأل الناطورة ولكنها لم تكن تعرف شيئاً، فأرسلته إلى مالكة المحترف. اتصل بها وعلم أن سابينا رحلت أول البارحة مسددة إيجار الأشهر الثلاثة المقبلة كما كانت تنص ورقة الإيجار.

حاول لأيام عدة أن يضبط سابينا في البيت، إلى أن وجد ذات يوم باب الشقة مفتوحاً. كان هناك ثلاثة رجال في ثياب زرقاء ينقلون الأثاث واللوحات ليضعوها في شاحنة كبيرة متوقفة أمام المنزل.

سألهم أين سينقلون الأثاث.

أجابوا أنه من المحظّر عليهم بتاتاً أن يُخبروا أحداً عن العنوان. كان يهمُّ بأن يدس في جيوبهم بعض الأوراق المالية ليكشفوا له عن السر، ولكنه وجد نفسه عاجزاً. كان الحزن يشلّه تماماً فلا يفهم شيئاً ولا يستطيع أن يصرّح بما في نيته. كان يعرف فقط أنه كان يتوقع حدوث هذه اللحظة مذ تعرّف إلى سابينا. وها قد حدث ما كان يجب أن يحدث. وفرانز لا يودّ الدفاع عن نفسه.

وجد شقة صغيرة في المدينة القديمة. ثم مرَّ بمنزله السابق، بعد أن تأكد من أن زوجته وماري ـ آن غير موجودتين هناك، وأخذ بعض الثياب والكتب الضرورية. ولكنه حرص على ألا يحمل معه شيئاً يمكن أن يسيء إلى ماري ـ كلود.

لمحها ذات يوم خلف زجاج صالة للشاي. كانت برفقة سيدتين. كان وجهها الذي حفرت فيه من زمان إيماءاتها المفرطة تجاعيد لا حصر لها، مفعماً بالحيوية. كانت السيدتان تستمعان إليها ولا تتوقفان عن الضحك.. لم يستطيع فرانز أن يمتنع عن التفكير بأنه هو موضوع حديثها. فمن المؤكد أنها عرفت أن سابينا اختفت من جنيف لحظة قرر الذهاب للعيش معها. إنها حكاية مُضحكة بالفعل! وهو لا يمكنه أن يُفاجأ والحالة هذه بأن يكون مَضْحكة صديقات زوجته.

عاد إلى مسكنه الجديد حيث يستطيع أن يسمع جرس كاتدرائية مار بطرس. جرى تسليمه في هذا اليوم بالذات طاولة من أحد المخازن. فنسي عندها ماري ـ كلود وصديقاتها، ونسي لوهلة سابينا أيضاً. كان مسروراً من أنه اختار الطاولة بنفسه. منذ عشرين سنة وهو يعيش وسط أثاث لم يختره بنفسه. فماري ـ كلود كانت تهتم بهذه الأمور وحدها. ها إنه يتخلص من كونه صبيّاً صغيراً، للمرة الأولى، ليصير رجلاً ناضجاً. وفي الغد سيأتي النجّار فيوصيه على المكتبة التي كان أمضى عدة أسابيع في تصميم شكلها وحجمها ومكانها.

يا للعجب، أدرك فجأة أنه لم يكن تعيساً. كان حضور سابينا الجسدي أقل أهمية مما تصوّر. فالأهمّ منه هو الأثر الذهبي، الأثر السحري الذي تركته في حياته والذي لا يستطيع أحد بعد اليوم حرمانه منه. كما وأنها قد تسنّى لها، قبل أن تختفي من أفقه، أن تدس في يده مكنسة هرقل فيكنّس بها من حياته كل ما لم يكن يحبه. إن هذه السعادة المباغتة وهذا الانشراح وهذه الغبطة التي تمده بها حريته وحياته الجديدة، هذا هو الحاضر الذي تركته له سابينا.

على أية حال، ألم يكن قد فضّل دائماً اللاواقعي على الواقعي. فكما أنه كان يشعر بالارتياح في المواكب، (والتي هي، كما قلت، ليست سوى مشهد أو حلم) أكثر مما يحس بذلك من وراء المنبر حيث يلقي المحاضرات. كذلك، أحسّ أنه أكثر سعادة مع سابينا المتحولة إلى إلهة غير مرئية، ممّا كان مع سابينا عندما كانا يجولان العالم معاً وهو خائف على حبّه مع كل

خطوة. ها قد منحته أُعطية الحرية المباغتة للرجل الذي يعيش وحده، وزيّنته بهالة الإغراء. صارت النساء تجده جذّاباً وها إن إحدى طالباته تقع في غرامه.

وهكذا بغتة، وفي فترة وجيزة للغاية، تبدّل ديكور حياته كله. كان يسكن في شقة بورجوازية كبيرة مع خادمة وابنة وزوجة. أما الآن فهو يجد نفسه في شقة صغيرة مفروشة في المدينة القديمة، وصديقته الشابة تأتي لقضاء الليل عنده كل مساء تقريباً! فهما ليسا بحاجة للذهاب إلى فنادق العالم كله لكي يضاجعها، بل بإمكانه أن يفعل ذلك في شقته الخاصة وعلى سريره الخاص وبحضور كتبه ومنفضته الموضوعة على طاولة السرير.

لم تكن جميلة ولا قبيحة ولكنها أكثر فتوة منه بكثير. كانت معجبة بفرانز كإعجاب فرانز بسابينا من قبل. ولم يكن الأمر غير ممتع. وإذا كان بإمكانه ربّما أن يعتبر استبداله سابينا بطالبة ترتدي نظّارات بمثابة انحطاط صغير، فإن طيبته مع ذلك، كانت تحرص على أن يستقبلها بسرور ويشعر حيالها بمحبة أبوية لم يستطع إشباعها من قبل. فماري ـ كلود لم تكن تتصرف على أنها ابنته ولكن على أنها ماري ـ كلود ثانية.

ذات يوم ذهب لرؤية زوجته وقال لها إنه راغب في الزواج من جديد.

هزّت ماري ـ كلود رأسها أن لا.

«ولكن إذا تطلقنا، لن يتغير شيء ولن تخسري شيئاً. فسأترك لك كل شيء!».

قالت:

ــ المال لا أهمية له بالنسبة لي.

ــ ما الذي يهمك إذاً؟

ــ الحب.

قال فرانز متعجباً: الحب؟

أطلقت ماري ـ كلود ابتسامة: «الحب صراع وسأقاتل وقتاً طويلاً. حتى النهاية.

ـ الحب صراع؟ ليست لي أدنى رغبة في القتال»، قال فرانز وخرج.

10

أمضت سابينا أربع سنوات في جنيف، ثم سكنت بعدها في باريس. ولكنها لم تكن تتوصل قط لأن تَشفى من كآبتها. ولو أن أحداً سألها عما أصابها لما استطاعت أن تعبّر عن ذلك بكلمات.

يمكن اختصار مأساة حياة «باستعارة» الثقل. نقول مثلاً إن حملاً قد سقط فوق أكتافنا. فنحمل هذا الحمل. نتحمله أو لا نتحمله ونتصارع معه، وفي النهاية إما أن نخسر وإما أن نربح. ولكن ما الذي حدث مع سابينا بالضبط؟ لا شيء. افترقت عن رجل لأنها كانت راغبة في الافتراق عنه. هل لاحقها بعد ذلك؟ هل حاول الانتقام؟ لا. فمأساتها ليست مأساة الثقل إنما مأساة الخفة. والحمل الذي سقط فوقها لم يكن حملاً بل كان خفة الكائن التي لا تُطاق.

حتى الآن، كانت لحظات الخيانة تملؤها نشوة وفرحاً خصوصاً لدى التفكير بأن طريقاً جديدة ستمتد أمامها، وأن في آخر هذا الطريق مغامرة خيانة جديدة. ولكن ما الذي سيحدث لو أنّ هذا السفر انتهى؟ يمكن لنا أن نخون أهلاً وزوجاً وحباً ووطناً، لكن ما الذي يتبقى حين لا يعود هناك أهل لنخونهم أو زوج أو حبّ أو وطن؟

كانت سابينا تشعر بالفراغ يحيط بها. أيكون هذا الفراغ بالذات هو الهدف من خياناتها مجتمعة؟

من البديهي أنها لا تعي هذه الحقيقة، وهذا شيء مفهوم: فالهدف الذي نلاحقه محجوب عنا دائماً. حين ترغب فتاة شابة في الزواج فهي ترغب في شيء تجهله تماماً. والشاب الذي يركض وراء المجد لا يملك أدنى فكرة عن المجد. لذلك، فإن الشيء الذي يعطي معنى لتصرفاتنا شيء نجهله تماماً. سابينا أيضاً تجهل ما هو الهدف من رغبتها في الخيانة. أيكون الهدف منها الوصول إلى الخفة غير المحتملة للكائن؟ منذ رحيلها عن جنيف وهي تقترب أكثر فأكثر من هذا الهدف.

ثلاث سنوات مضت على إقامتها في باريس عندما تلقت رسالة من

بوهيميا. رسالة من ابن توماس. كان قد سمعهم يتحدثون عنها فاستدلّ على عنوانها وقرر أن يكتب لها رسالة بصفتها «الصديقة المقرّبة جداً من أبيه». وأخبرها عن موت تيريزا وتوماس. . كان يقول في رسالته إنهما عاشا سنواتهما الأخيرة في قرية حيث كان يعمل توماس كسائق شاحنة. كانا يذهبان في أغلب الأحيان إلى المدينة المجاورة ويقضيان الليلة هناك في فندق صغير. كان في الطرقات تلالاً ومنعطفات كثيرة فسقطت الشاحنة في الوادي وعُثر على جثتيهما مهشمتين تماماً. واكتشفت الشرطة أن الفرامل كانت في حالة سيئة للغاية.

لم تكن حالها لتستقيم إثر هذا الخبر، فهو الخيط الأخير الذي يربطها بالماضي، وقد انقطع.

تبعاً لعادتها القديمة، حاولت أن تخفف عن نفسها بالقيام في جولة إلى إحدى المقابر. كانت المقبرة الأقرب مقبرة مونبارناس. والمقبرة تتألف من بيوت حجرية هزيلة ومن مصلّيات منمنمة قائمة وسط القبور. لم تكن سابينا تفهم لماذا يرغب الموتى في أن يُقام فوقهم ما يُشبه القصور. هذه المقبرة هي الغرور ممثلاً في حجر. فبدل أن يكون سكان المقابر أكثر تعقلاً بعد موتهم، فإنهم أكثر حماقة مما كانوا وهم على قيد الحياة. كانوا يعرضون أهميتهم من خلال الأنصاب. لم يكن أولئك الراقدون هنا آباءً أو أخوة أو أبناء أو جدّات بل وجهاء وموظفين في الحكومة وأناساً ذوي ألقاب ورتب شرف. حتى أن أي موظفٍ في البريد كان يعرض أمام الملأ رتبته ودرجته ووضعه الاجتماعي - أي قيمته، بتفاخر.

لاحظت وهي تمشي في أحد ممرات المقبرة أنه كان يتم دفن أحدهم بعيداً قليلاً من هنا. كان رئيس التشريفات يحمل أزهاراً ملء ذراعيه ويوزعها على الأقارب والأصحاب: زهرة لكل واحد منهم. مدَّ زهرة لسابينا، فانضمت إلى موكب الجنازة. كان يجب الطواف حول أنصاب عدة للوصول إلى الحفرة التي نزعت عنها شاهدة القبر. انحنت فوقها. كانت الحفرة عميقة جداً. أفلتت الزهرة. رسمت الزهرة دوائر صغيرة ثم سقطت فوق النعش. لا توجد قبور بهذا العمق في بوهيميا. فالقبور في باريس عميقة قدر ما هي البيوت عالية. استرعى نظرها الحجر الذي ينتظر على حدة إلى جانب

الحفرة، فملأها هذا الحجر رعباً، فعادت مسرعة إلى البيت.

فكرت النهار بطوله بهذا الحجر. لماذا يرعبها إلى هذا الحد؟

فكرت بهذا الجواب: «إذا كانوا يقفلون القبر بحجر، فهذا لئلا يتمكن الميت من الخروج أبداً».

ولكن في جميع الأحوال، لن يتمكن الميت من الخروج من قبره! أكان راقداً تحت التراب الصلصالي أم تحت حجر فالأمران سيّان!

لا، الأمران ليسا سيّان: إذا كنا نقفل القبر بحجر فهذا لأننا لا نرغب في رجوع الميت. الحجر الثقيل يقول له: «إبقَ حيث أنت!».

تذكرت سابينا قبر أبيها. فوق النعش تراب صلصالي وفوق هذا التراب تنبت أزهار، كما وتمد شجرة قيقب جذورها إلى النعش. يمكن إذاً أن نتصور أن الميت يخرج من قبره عبر هذه الجذور وهذه الأزهار. فلو كان أبوها مغطى بحجر لما كانت تمكنت من التحدث إليه بعد موته. ولما أمكنها قط أن تسمع صوته وهو يغفر لها، عبر أوراق الأشجار.

لكن، ماذا يمكنه أن يشبه القبر حيث يرقد توماس وتيريزا؟

مرة أخرى عاودت التفكير فيهما. كانا يذهبان أحياناً إلى المدينة المجاورة ويقضيان الليل في الفندق. هزّها هذا المقطع من الرسالة لأنه كان شاهداً على أنهما كانا سعيدين. كانت ترى ثانية توماس وكأنه طالع من إحدى لوحاتها: في المقدمة دون جوان مثل ديكور خادع مرسوم بيد رسام ساذج، ومن أحد شقوق هذا الديكور يلوح لنا تريستان. لكن توماس مات بصفته تريستان وليس بصفته دون جوان. والدا سابينا توفيا في الأسبوع نفسه، أما توماس وتيريزا ففي اللحظة ذاتها. شعرت فجأة برغبة في أن تكون مع فرانز.

عندما حدثته عن نزهاتها إلى المقابر، أصيب بالغثيان وشبّه المقابر بمزبلة من العظام والحصى.. في ذلك اليوم، امتدت بينهما هاوية من انعدام التفاهم.. ولكنها الآن فقط في مقبرة مونبارناس فهمت ما كان يعنيه، وشعرت بالأسف لأنها لم تكن صبورة. لو بقيا معاً فترة أطول، لربّما كانا شرعا شيئاً فشيئاً في فهم الكلمات التي ينطقان بها، ولربما أخذت مفرداتهما تقترب بحياء وبطء مثل عاشقيْن خجولين للغاية. ولربما بدأت موسيقى كل

منهما تنصهر في موسيقى الآخر. ولكن الأوان قد فات.

أجل، الأوان قد فات. وسابينا تعرف أنها لن تبقى في باريس بل ستذهب أبعد، أبعد بكثير. فهي لو ماتت هنا، سيقفلون القبر عليها بحجر. وهذه فكرة لا تحتملها امرأة لا تعرف الراحة ولا تريد أن يوقفها أحد في سعيها.

11

كان جميع أصدقاء فرانز على علم بما جرى له مع ماري ـ كلود، وعلى علم أيضاً بما يجري له مع طالبته صاحبة النظارة الكبيرة. لكن وحدها قصة سابينا بقيت خافية على الجميع. كان فرانز مخطئاً حين اعتقد أن ماري ـ كلود تتحدث عنه أمام صديقاتها. والسبب أن سابينا جميلة وماري ـ كلود لا ترغب في أن يقارب أحد بين وجهيهما.

لم يسبق له أن طلب منها أية لوحة أو رسم أو حتى صورة شخصية لخوفه من أن يُفضح أمره. وبذلك، اختفت من حياته دون أن تترك أثراً. أمضى معها أجمل سنة في حياته ولكن لم يتبقَ منها أي دليل محسوس.

كان يشعر برغبة متزايدة في أن يبقى مخلصاً لها.

حين يكونان لوحدهما في الغرفة، ترفع صديقته الشابة أحياناً رأسها عن كتابها وتنظر إليه نظرة مستجوبة: «بماذا تفكر؟».

فرانز جالس في الكنبة وعيناه مسمّرتان في السقف. ومهما يكن جوابه، فهو بالتأكيد يفكر في سابينا.

حين ينشر دراسة في مجلة علمية، تكون صديقته أول من يقرأها وترغب في مناقشته بخصوصها. أما هو فيفكر في ما ستقوله سابينا عن هذا البحث. فكل ما يفعله يفعله من أجل سابينا وبالطريقة التي ترضي سابينا.

إنها لخيانة بريئة للغاية ومعدّة على مقاس فرانز الذي لا يقدر إطلاقاً على الإساءة إلى الطالبة صاحبة النظارة.

إذا كان يُنمّي عبادة سابينا فهذا دين أكثر منه حب. على أية حال، لقد جاء في لاهوت هذا الدين أن تُرسِل سابينا عشيقته الشابة: فبيْن حبه الأرضي وحبه ما فوق الأرضي يسود وئام تام. وبالمقارنة مع حبه ما فوق الأرضي الذي يتضمن بالضرورة (بسبب أنه ما فوق أرضي) جانباً كبيراً من الغموض

والاستغلاق (فلنتذكر بهذا الخصوص معجم الكلمات غير المفهومة، وتلك اللائحة الطويلة من تباين وجهات النظر!) فإن حبه الأرض يستند إلى تفاهم حقيقي.

الطالبة أكثر فتوة بكثير من سابينا، ومقطوعة حياتها لا تزال في أوّلها، وهي تُدخل فيها كل اللوازم الموسيقية التي استعارتها من فرانز، وبعرفان جميل. فكما أنّ مسيرة فرانز الكبرى نقطة جوهرية في إيمانها، كذلك الموسيقى بالنسبة لها كما بالنسبة له نشوة ديونيسيئة. وهما يذهبان مراراً إلى الرقص، يعيشان في الحقيقة ولا شيء مما يفعلانه خافٍ على أحد. وهما يسعيان لاكتساب ودّ الأصدقاء والزملاء والطلاب والمجهولين فيجالسانهم ويشربان ويثرثران معهم بمودة كلية. كما وينطلقان معاً مرات عديدة للذهاب بنزهة إلى جبال الألب. ينحني فرانز إلى الأمام فتقفز الفتاة فوق ظهره ويجري بها عبر الحقول ملقياً بصوت عالٍ قصيدة ألمانية طويلة كانت أمه قد علّمته إياها عندما كان صغيراً. تنفجر عندها الحبيبة بالضحك وتتعلّق برقبته مبدية إعجابها بمأبضيه وكتفيه ورئتيه.

لكن الشيء الوحيد الذي لا يفهمه هو هذا التعاطف الخاص، الذي يغذّيه فرانز في داخله، مع جميع البلدان الرازحة تحت وطأة روسيا. في الذكرى السنوية للاجتياح الروسي، نظمت مجموعة تشيكية احتفالاً بالمناسبة. كان هناك قليل من الناس في الصالة. وكان الخطيب رمادي الشعر مجعّده عند المزين. كان يقرأ خطاباً طويلاً وينجح في أن يجعل خونة المتحمسين الآتين إلى سماعه يضجرون. يتكلم الفرنسية دون خطأ ولكن بلكنة شنيعة. وهو من وقت لآخر يشهر سبّابته ليؤكد على فكرته، كما لو أنه يريد تهديد الناس الجالسين في الصالة.

الطالبة صاحبة النظارة جالسة إلى جانب فرانز وهي تكتم تثاؤباً. فيما فرانز يبتسم بطريقة بلهاء. عيناه شاخصتان إلى الرجل ذي الشعر الرمادي والذي يجده لطيفاً بسبّابته العجيبة. يقول في نفسه إن هذا الرجل وسيط سري، ملاك ينقل الرسائل بينه وبين إلّهته. فيغمض عينيه ويحلم. يغمض عينيه كما أغمضهما في السابق على جسد سابينا في خمسة عشر فندقاً في أوروبا وفندق من أميركا.

القسم الرابع

الروح والجسد

1

رجعت تيريزا إلى البيت نحو الساعة الواحدة والنصف صباحاً، فتوجهت إلى غرفة الحمام، ثم ارتدت البيجاما وارتمت على السرير إلى جانب توماس. كان نائماً. انحنت فوق وجهه، وعندما وضعت شفتيها اشتمت عند شعره رائحة غريبة. فدسّت منخريها هناك طويلاً، تستنشقه مثل كلب. وفهمت أخيراً: إنها رائحة أنثوية، رائحة فرج امرأة.

عند الساعة السادسة، رنّ المنبّه. كان هذا موعد استيقاظ كارينين. فهي تصحو دائماً قبلهما بوقت طويل من غير أن تجرؤ على إزعاجهما. كانت تنتظر بصبر رنين المنبه الذي يعطيها الحق في أن تقفز على السرير لتركل جسديهما وتداعبهما بخطمها . . حاولا في البداية أن يمنعاها عن ذلك فطرداها عن السرير، ولكن الكلبة كانت أكثر عناداً من صاحبيها وفرضت في النهاية حقوقها. على أية حال، استنتجت تيريزا مؤخراً بأن دعوة كارينين لافتتاح النهار، أمر ممتع. لحظة الاستيقاظ بالنسبة لكارينين سعادة خالصة: فهي تتعجب بسذاجة بلهاء من أنها لا تزال في هذا العالم فتُسر لذلك صراحةً. أما تيريزا فتستيقظ غصباً عنها راغبة في إطالة الليل، وفي ألّا تفتح عينيها.

. الآن، كانت كارينين تنتظر في المدخل وعيناها تنظران إلى المشجب حيث كان طوقها ومقودها معلقين. وضعت تيريزا الطوق حول رقبتها، وذهبتا لشراء الحاجيات. اشترت حليباً وخبزاً وزبدة وكالعادة فطيرة لكارينين. في طريق العودة، كانت كارينين تنطنط حولها والفطيرة في فمها. لا شك في أنها

كـانت تنظر حـولها بفخـر وسرور لأنهـا تلفت انتباه الآخـرين فيشيـرون إليهـا بالبنان.

في البيت، بقيت مترقبة عند عتبة الغرفة والفطيرة في فمها، انتظرت أن يلاحظ توماس وجودها فيقرفص بـادئاً بـالنباح ومتـظاهراً بـأنه سيـأخذ الفـطيرة منها. كان هذا المشهد يتكرر يومياً: كانا يلاحقـان بعضهما عبـر الشقة لمـدة خمس دقـائق، إلى أن تختبىء كـارينين تحت الـطاولـة وتلتهم بلمـح البصـر فطيرتها.

ولكنها عبثاً انتـظرت هذه المـرة الاحتفال الصبـاحي. كان هنـاك جهاز ترانزستور موضوع على الطاولة، وتوماس يستمع.

2

كان الراديو يبث برنـامجاً خـاصاً بـالمهاجـرين التشيكيين. وهو يجمـع أحاديث خاصة مسموعة بطريقة سريـة ومسجلة من قبل جـاسوس انـدسَّ بين المهاجرين ليرجع إلى بلاده ويزعق بها هناك. كـان البرنـامج يتضمن ثـرثرات تافهة مطعمة من وقت لآخر بكلمات نابية عن النظام المحتل. ويتضمّن أيضاً جملاً يتناوب فيها المهاجـرون وصفَ بعضهم بأنهم أغبيـاء ومخادعـون. كان البرنامج يشدد على هذه المقاطع بالذات. لأنه كـان يجب الإثبات أن أولئـك النـاس يتكلمون بـالسوء ليس عن الاتحـاد السوڤيـاتي فحَسْب (فهذا الأمـر لا يشجبه أحد من سكان بوهيميا) بل يتبادلون أيضـاً النمائم دون تـردد ويشبعون بعضهم شتماً. الغريب في الأمر أننا نسمع الكلمات البذيئة من الصبـاح حتى المساء، ولكن يكفي أن نسمع عبـر الراديـو شخصية معـروفة ومحتـرمة تـوقّع جملها بكلمات مثل «إنهم يجعلونني أتغوّط»، فنشعر بالخيبة رغماً عنا.

«هـا إنهم يستهلون ببـروشـازكـا!»، قـال تـومـاس دون أن يتـوقف عن الإصغاء.

كان يان بروشازكا روائياً تشيكيـاً في الأربعين من عمره ويفيض بحيـوية ثور. بدأ بانتقاد الوضع في بلاده جهاراً قبـل ١٩٦٨ بوقت طـويل. كـان أحد

رجال ربيع براغ الأكثر شعبية. ربيع براغ، ذلك التحرير المدوّخ للشيوعية الذي انتهى بالاجتياح الروسي. بعد الاجتياح بقليل، أخذت الصحف تزعق كلها صيحة الهجوم على الطريدة، ولكن كلّما كان بروشازكا محاصراً، كان حب الناس له يزداد. كان الراديو (كنا في سنة ١٩٧٠) يستهل إذاً على شكل حلقات بثّ أحاديث خاصة لبروشازكا، كان قد أجراها قبل سنتين (أي في ربيع ١٩٦٨) مع أستاذ جامعي. لم يكن أي من الرجلين يشك في أن جهازاً للتنصّت قد أخفي في شقة الأستاذ، وأنه يتم التجسس منذ زمن بعيد على أدنى حركة يقومون بها. كان بروشازكا يسلّي أصدقاءه دائماً بمبالغاته وشتائمه. وها قد صار في الإمكان سماع هذه الشتائم في سلسلة حلقات عبر الإذاعة. عُنِيَتْ الشرطة السرية، التي نسّقت مقاطع هذا البرنامج، بالتشديد على المقطع الذي يسخر فيه الروائي من أصدقائه، من دوبتشك مثلاً. وبالرغم من أن الناس لا يفوتون فرصة إلا يشتمون فيها أصدقاءهم، فإنهم مع ذلك كانوا ساخطين على بروشازكا الذي يعبدونه أكثر مما كانوا ساخطين على الشرطة السرية التي يكرهونها!

أطفأ توماس الراديو وقال: «هناك شرطة سرية في جميع أنحاء العالم. ولكنها فقط في بلادنا تبث تسجيلاتها عبر الإذاعة! شيء عجيب!».

قالت تيريزا: «ليس إلى الحد الذي تتصور! عندما كنت في الرابعة عشرة من عمري، كنت أكتب يومياتي. وكنت أخاف من أن يقرأها أحد، فخبّأتها في العليّة، إلى أن عثرت عليها أمي في النهاية. وذات يوم، حين كنا نحتسي الشورباء أثناء الغداء، أخرجَتْها من جيبها وقالت: «اسمعوني جيداً كلكم!» ثم أخذت تقرأ بصوت عالٍ، وعند كل جملة تتلوى من فرط الضحك. وقهقه معها الجميع ناسين متابعة الأكل».

3

كان يحاول دائماً إقناعها في أن تتركه يتناول إفطاره بمفرده، وأن تبقى نائمة، ولكنها كانت تعارض. فتوماس كان يعمل من الساعة السابعة حتى الرابعة، وهي من الساعة الرابعة حتى منتصف الليل. وإذا لم يتناولا الإفطار

سوية، فمعنى هذا أنهما لن يستطيعا التحدث إلى بعضهما حتى يوم الأحد. كانت تنهض إذاً حين ينهض، ثم حين يذهب تعود لتندس في السرير وتغفو.

ولكنها كانت خائفة، في ذلك النهار بالذات، من أن تعود للنوم ثانية. فهي تريد الذهاب عند الساعة العاشرة إلى حمامات السونا في جزيرة صوفيا. كان هناك الكثير من الهواة والقليل من الأمكنة، ولم يكن في المستطاع الحصول على مكان إلاّ بفضل توصية. لحسن الحظ، كانت أمينة الصندوق زوجة أستاذ مطرود من الجامعة، والأستاذ صديق لمريض قديم عند توماس. تكلّم توماس مع المريض ثم تكلّم المريض مع الأستاذ، والأستاذ مع زوجته فحصلت تيريزا أخيراً على مكان محجوز لها مرة في الأسبوع.

ذهبت سيراً على الأقدام تحاشياً للقطارات المزدحمة دوماً حيث يتدافع الناس ملتصقين بعضهم ببعض بعدائيّة، ويدوس بعضهم أقدام البعض ويتنازعون أزرار المعاطف ويتبادلون الشتائم.

كانت السماء تمطر رذاذاً. فأخذ المارّة يسرعون الخطى رافعين فوق رؤوسهم مظلاتهم المفتوحة. وفجأة بدأوا يتدافعون على الأرصفة. كانت قبب المظلات تتصادم. كان الرجال مؤدبين لدى مرورهم قرب تيريزا فيرفعون مظلاتهم عالياً ليفسحوا لها المجال. أما النساء فلم يكنّ يتنحين قيد أنملة. بل كن ينظرن أمامهن بوجوه قاسية، وينتظرن أن تعترف كل واحدة منهن للأخرى بأنها الأضعف فترضخ. كان لقاء المظلات يتحول إلى امتحان للقوى. في أول الأمر، كانت تيريزا تحيد عن الطريق، ولكن حين فهمت أن أدبها لم يكن يقابل بالمثل، تسلّحت بمظلتها مثل الأخريات. مرات عديدة اصطدمت مظلتها بعنف بمظلة قادمة في اتجاهها ولكن أيّاً من النساء لم تكن تعتذر. كان يجري كل ذلك وسط الصمت. لمرتين أو ثلاث، سمعت فقط: «عاهرة!» أو «تُفِهْ!».

كان هناك بين النساء المسلحات صبايا وناضجات، ولكن الصبايا كن الأكثر ضراوة في القتال. كانت تيريزا تتذكر أيام الاجتياح، حين كانت الفتيات يرتدين تنانير قصيرة ويرحن ويجئن رافعات علم بلادهن على عصيّ. كان تصرفهن هذا أشبه بمداهمة جنسية للجنود الروس المجهزين لعدة سنوات من

العفّـة. لا بدَّ أنهم كـانوا يخـالـون أنفسهم في بـراغ مـوجـودين على كـوكب اختـرعه كـاتب خيال علمي، على كـوكب مسكون بنسـاء أنيقات فـوق العادة ويعبرن عن احتقارهن عارضات سيقاناً طويلة رشيقة لم تشهـد روسيا بـأكملها لها مثيلاً منذ ما يربو على خمسة أو ستة قرون.

خلال تلك الأيام، التقـطت صوراً لا تحصى لهؤلاء النسـاء الشابـات، على خلفية من الدبابات. كم كـانت معجبة بهن آنـذاك! ولكنها اليـوم، ترى هؤلاء النساء بالذات يتقدمن للقائها مشـاكسات وشـريرات. كن يـرفعن مظلة بـدل العلم ويحملنها بـالتفاخـر نفسه. كن على استعـداد لأن يجابهن جيشـاً أجنبياً والمظلة التي ترفض الإفساح للمرور، بالضراوة ذاتها.

4

بلغت ساحة «المدينة القديمة» حيث تنتصب كاتدرائيـة «ثيْن» الصارمـة والبيوت الباروكية المنتظمة وفقاً لمربعات غير متساويـة. كان فنـدق المدينـة، الذي يعود إلى القرن الرابع عشر والـذي كان يحتـل في الماضي قسمـاً كبيراً من الساحة، متهدماً منذ سبعة وعشرين عاماً. إن فرصـوفيا ودريسـد وكولـونيا وبودابست وبرلين، كل هذه المدن تغيرت معالمها بشكل مريـع أثناء الحـرب الأخيرة، ولكن سكانها أعادوا بناءها وتـرميم الأحياء التـاريخية بشغف وعنـاية فائقة. كانت هذه المدن تثير في سكـان براغ عقـد نقص. فالمبنى التـاريخي الوحيد الذي هدمته الحرب في مدينتهم هو فندق المدينة القديم هذا. لذلـك قرروا الاحتفاظ إلى الأبد بأنقاضه خائفين من أن يلومهم أي بولوني أو ألماني على أنهم لم يعانوا بما فيه الكفاية. أمـام هذه الخِـرب الشهيرة التي يُفتـرض بها أن تبقى إلى الأبد شاهد اتهام ضد الحرب، كانت ترتفع منصـة مصنوعـة من العـوارض الحديـدية ومبنيـة من أجل التـظاهرة التي اقتـاد إليهـا الحـزب الشيوعي في الأمس شعب براغ أو سيقتاده غداً.

كانت تيريزا تنظر إلى فندق المدينة المتهدم فذكرها هذا المشهـد فجأة بـأمها: رغبتهـا الشـاذة في أن تعـرض أنقـاضهـا على المـلأ وفي أن تتبـاهى بقباحتها وتلوّح ببؤسها وتكشف عن جدعة يدهـا المبتورة وتجبـر الجميع على

النظر إليها. . كان كل شيء في هذه الأيام الأخيرة يذكّرها بأمها، فكأنّ العالم الأمومي الذي أفلتت منه من عشرات السنين يلحق بها ويطوّقها من جميع الجهات. من أجل هذا تحدثت أثناء الإفطار عن أمها التي قرأت يومياتها للعائلة فانفجرت الأخيرة بالضحك رغماً عنها. كذلك، حين يُذاع حديث بين الأصحاب أمام كأس نبيذ على الملأ عبر الراديو، فهذا لا يعني إلا شيئاً واحداً: العالم يتحول إلى معسكر اعتقال.

كانت تيريزا تستعمل هذه العبارة منذ طفولتها لتعبّر عمّا كانت تعني لها الحياة بين العائلة. فمعسكر الاعتقال هو عالم حيث نعيش باستمرار الواحد فوق الآخر، ليلاً ونهاراً. أما أعمال القساوة والعنف فترتدي طابعاً ثانوياً (وغير ضروري البتّة). ذلك أن معسكر الاعتقال هو التصفية النهائية للحياة الخاصة. فبروشازكا، الذي لم يكن في مأمن حتى وهو في بيته يتحدث إلى صديقه أمام كأس من النبيذ، كان يعيش (من غير أن يرتاب للأمر وهنا يكمن خطؤه الفادح!) في معسكر اعتقال. وتيريزا أيضاً كانت تعيش في معسكر اعتقال عندما كانت تقيم عند أمها. وهي منذ ذلك الحين تعرف أن معسكر الاعتقال ليس شيئاً استثنائياً ولا يفترض به أن يفاجئنا، إنما هو معطى بديهي وأساسي، إنه شيء نأتي معه إلى العالم دون أن نتمكن من التخلص منه، إلا إذا استعنّا بالحد الأقصى من قوانا كلها.

5

كانت النساء جالسات على ثلاثة مقاعد متدرجة وهن ملتصقات بعضهنّ ببعض إلى حد التلامس. ثمة امرأة في الثلاثين من عمرها، جميلة الوجه للغاية، كانت تتصبب عرقاً إلى جانب تيريزا. كان ثدياها الضخمان الهائلان يتدليان في أسفل كتفيها ويهتزان لدى أدنى حركة تقوم بها. عندما نهضت، لاحظت تيريزا أن ردفيها أيضاً كانا شبيهين بخرجين ضخمين ولا علاقة لهما بوجهها.

ربما هذه المرأة أيضاً تقضي ساعات طوالاً أمام المرآة وهي تتأمل جسدها محاولة أن ترى روحها تشف من خلاله، كما تحاول تيريزا منذ

الطفولـة. . من المؤكد أنهـا هي أيضاً اعتقـدت في الماضي، لحمـاقتها، أن جسدها يمكن أن يكون شعار النسب لروحها. ولكن كم ستكـون مرعبـة تلك الروح التي تشبه مشجباً بأربعة جيوب؟

نهضت تيريزا لتغتسل تحت المرشة. ثم خرجت لتتنشّق الهـواء. كانت لا تزال تمطر رذاذاً. . كانت على زورق تجسـير مـرميّ على بُعد بضعـة أمتار مـربعة من الفلتـافا، خلف ألـواح خشبية عـاليـة تحمي السيـدات عن أبصـار المدينة. عندما حنت رأسها، رأت فوق صفحة الماء، وجه المرأة التي كانت تفكر فيها منذ قليل.

كانت المرأة تبتسم لهـا. كان أنفهـا دقيقاً وعينـاها كستنـائيتين واسعتين ونظراتها طفولية.

كانت ترتقي السلم فـظهر تحت وجههـا العذب خرجاها اللذان يـرتجان ويقذفان حولهما فقاقيع ماء باردة.

6

ذهبت لارتداء ثيابها. كانت أمام مرآة كبيرة.

لا، جسدها ليس مخيفاً. فهي لا تملك خرجين في أسفل كتفيها، بـل ثديين منمنمين. كانت أمهـا تسخر منهـا لأن ثدييهـا لم يكونـا كبيرين بمـا فيه الكفاية، لم يكونا كما يجب، مما سبّب لها عقداً لم تتخلص منهـا إلا بفضل تـوماس. الآن، يمكنهـا القبول بحجمهمـا ولكنها تـأخذ عليهمـا لُعـوتهمـا(*) الكبيـرة والـداكنـة جـداً حـول الحلمـة. فلو أتيـح لهـا أن تخط بنفسهـا رسم جسدها كاملاً، لكانت جعلت حلمتيها مرهفتين وغير لافتتين للنظر ولا تكادان تبرزان من قبة نهديها. ولونهما بالكاد سيكـون متمايـزاً عن لون بشـرتها. . إذ يخيَّل إليها أن هذه الدريئة الحمراء الكبيرة الداكنـة هي من صنع رسـام ريفي يقوم برسوم فاحشة للمعوزين.

(*) السواد حول حلمة الثدي.

كانت تتفحص جسدها متسائلة عما سيحدث فيما لو طال أنفها ميلّيمتراً في كل يوم؟ كم سيستغرق الوقت حتى يصبح وجهها غير معروف؟

وماذا لو شرع كل جـزء من جسدهـا في الكبر أو في الصِغَـر إلى درجة يفقده معها كل شبه تيريزا، هل ستظل هي نفسها؟ هل ستبقى تيريزا؟

بالتأكيد. فحتى لو افترضنا أن تيـريزا لم تعـد تشبه تيـريزا بشيء، فـإن روحها في الداخل ستبقى مع ذلك هي هي دائماً وليس بإمكانها إلا أن تتأمـل برعب ما يحدث للجسد.

لكن عندها، أي صلة تعود تربط تيريزا بجسدها؟ هل سيكون لجسدها حق مـا باسم تيـريزا؟ وإذا لم يكن لـه هـذا الحق، فـإلى من يُنسب إذاً هـذا الاسم؟ إلى مجرد شيء غير جسدي وغير مادي.

(هذه هي الأسئلة ذاتها التي تجـول في رأس تيريـزا منذ الصغـر. ذلك لأن الأسئلة الهامة حقاً هي تلك التي يصوغها طفل. وحدها الأسئلة السـاذجة هي الأسئلة الهامة فعـلاً. تلك الأسئلة التي تبقى دون جواب. إن سؤالاً دون جـواب حاجـز لا طرقـات بعـده. وبـطريقـة أخـرى: الأسئلة التي تبقى دون جواب هي التي تشير إلى حدود الإمكانات الإنسانية، وهي التي ترسم حـدود وجودنا).

تيريزا جامدة ومفتونة أمام المرآة، تنظر إلى جسدها وكأنـه غريب عنهـا ومُقَرر مع ذلك لها هي دون غيرها. وهو يُنفرها إذ لا يملك القدرة لأن يصيـر الجسـد الوحيـد في حياة تـومـاس. لقـد خيّبهـا هـذا الجسـد وخـانهـا. ليلةً بكاملها، أُكرهت على أن تشتمّ عبر شعر توماس رائحة حميمة لامرأة أخرى.

شعـرت فجأة بـرغبة في أن تصـرف هـذا الجسـد كمـا يصـرف المـرء خـادمه، في ألا تكـون مع تـوماس إلا بـالروح وأن تـطرد الجسـد بعيـداً كي يتصرف كما تتصرف سائـر الأجساد الأنثـوية مـع الأجساد الـذكوريـة! بما أن جسدها غير قادر على أن يصير الجسد الوحيد لتوماس، وبما أنه خسر بالتالي المعركة الكبرى في حياة تيريزا، إذاً! فليذهب بعيداً هذا الجسد!.

7

رجعتْ إلى المنـزل ثم تناولت غـداءها واقفـة في المطبـخ دون شهية. نحو الساعة الثالثـة والنصف، وضعت المقود لكـارينين وتوجهت إلى الفنـدق الموجود في حي من الضواحي حيث تعمل. عندما سرّحوها من عملها في المجلة، وجدت لها عملاً آخر، ساقية في حانة، حدث ذلك بعـد رجوعهـا من زوريخ بـأشهر قليلة. والسبب أنهم لم يغفـروا لها قيـامها بـالتقـاط صـور للدبـابـات الـروسية خـلال الأيام السبعـة. حظيت بـوظيفتها الجـديـدة بمسـاعـدة بعض الأصدقاء وهم أناس كانوا خسروا عملهم في الوقت نفسه فالتجأوا إلى الحانة مثلها. كان هناك عند صندوق المحاسبة أستاذ سابق في اللاهوت، وفي غرفة الاستقبال سفير سابق.

كـانت تشعر بـالخوف من جـديد على سـاقيها. حين كـانت تعمـل في السابق كخادمة مقهى في الريف، كانت ترتعب لمرأى بطّات سيقان زميلاتهـا المكسوّة بالـدوالي. كان هـذا المرض يصيب جميـع الفتيات اللواتي يمضين حياتهن ماشيات أو راكضات أو واقفات وفي أيديهن أحمال ثقيلة. أما العمـل هنا فكان أقل إجهاداً من عملها السابق في الريف. قبل شروعها في الخدمة، كان ينبغي عليها أن تحمل بضعة صنـاديق ثقيلة من البيرة والميـاه المعدنيـة. ولكنّهـا كانت تقضي بقيـة الوقت واقفـة وراء طاولـة الشرب تسكب الكحـول للزبـائن، أو تنظّف بين الحين والآخـر الأقداح في مجلى صغيـر مـوجـود في عمق الحـانة. وكـانت كارينين تبقى مضـطجعة بـأناة عنـد قدميهـا طيلة وقت الخدمة.

كان قد حلَّ منتصف الليل عنـدما أنهت حسـاباتهـا وأخذت المـال إلى مدير الفندق. ثم ذهبت لتودّع السفير الذي كان يخدم أثناء الليل. كـان هناك خلف طاولة الشرب الطويلة في غرفة الاستقبال باب يؤدي إلى غـرفة صغيـرة حيث يمكن للمـرء أن يغفو على فـراش صغير. كـانت هنـاك على الجـدران صـور مُبروزة: حيث نـرى السفير دائمـاً وسط أناس يبتسمـون للكـاميـرا، أو يصافحونه، أو يجلسونه قربه ليوقّعوا على شيء ما. وفي صـورة موضـوعة في الواجهة، نرى قرب وجهه وجه جون. ف. كنيدي وهو يبتسم.

لم يكن يتحدث هذا المساء إلى رئيس الولايات المتحدة، بل إلى رجل ستّينيّ مجهول التزم الصمت فجأة لدى رؤيته تيريزا.

قال السفير: «هذه صديقة. يمكنك أن تتكلم وأنت مطمئن البال». ثم التفت إلى تيريزا قائلاً: «حكموا على ابنه اليوم ليس إلاّ بالسجن لخمس سنوات».

أُخبرت بأن ابن الرجل الستيني كان خلال أيام الاجتياح يراقب بمعية أصدقاء له مدخل أحد المباني التي تمركزت أمامها وحدة تابعة للجيش الروسي. ممّا لا شكَّ فيه أن التشيكيين الذين كانوا يخرجون من المبنى، مخبرون لصالح الروس. كان يتعقبهم مع زملائه ويسجل الرقم العدائي لسيارتهم ويعطيها لمحرري محطة تشيكيّة سرية كانت تعمل على إنذار الشعب. وقد حدث له أن ضرب أحدهم بمساعدة أصدقائه.

كان الستيني يقول: «استطاع إنكار كل التهم إلى أن أروه هذه الصورة. فهذه الصورة هي وحدها الدليل الحسّي».

ثم أخرج من جيب سترته ورقة مقتطعة من إحدى الصحف وقال: «نُشرت هذه الصورة في جريدة التايمز في خريف ١٩٦٨».

كان هناك في الصورة شاب يمسك شخصاً من عنقه وحوله أناس يراقبون. وكُتب في أسفل الصورة: عقاب لمتعاون مع العدو.

أحسّت تيريزا بحمل ينزاح عنها. لا، لم تكن هي التي التقطت هذه الصورة.

رجعت إلى بيتها مع كارينين عبر شوارع براغ السوداء. كانت تفكر في الأيام التي التقطت فيها صوراً للدبابات: لَكَم كانوا سذجاً كلهم! كانوا يعتقدون أنهم يخاطرون بحياتهم من أجل وطنهم، فيما هم كانوا يعملون، على غير علم منهم، للشرطة الروسية.

وصلت إلى البيت في الساعة الواحدة والنصف. كان توماس نائماً منذ وقت طويل. ومِن شَعره كانت تفوح رائحة أُنثوية، رائحة فرْج.

8

ما هو الإغراء؟ يمكننا أن نقول بأنه تصرف يلمّح إلى أن المقاربة الجنسية ممكنة، ولكن من دون أن يجعل هذه الإمكانية تبدو على أنها يقين. وبكلمة أخرى: الإغراء هو وعد غير مضمون بالجماع.

ها إنّ تيريزا واقفة وراء طاولة الشرب، والزبائن الذين تقدم لهم الشراب يتغزلون بها. أوَ تجدُ هذا السيل المتدفق من عبارات الإطراء والكلمات المبطنة والنكات الفاحشة والدعوات والابتسامات والنظرات، أمراً مستكرهاً؟ لا، إطلاقاً. بل تشعر برغبة لا تقاوم في منح جسدها، (هذا الجسد الغريب الذي تود لو تطرده بعيداً) منحه لارتداد الأمواج هذا.

يحاول توماس إقناعها دون توقف بأن الحب والجنس عالمان مختلفان. وهي كانت ترفض القبول بذلك. ها هي الآن محاطة برجال لا يثيرون فيها أي إعجاب. تُرى ماذا سيؤثر فيها لو أنها تضاجعهم؟ إنها تشعر برغبة في المحاولة حتى وإن كان هذا تحت شكل الوعد غير المضمون للإغراء.

يجب ألّا نسيء فهم الأمر: هي لا تفتّش عن الإنتقام من توماس وإنما تفتش عن منفذ للخروج من المتاهة. وهي تعرف أنها حمل ثقيل عليه لأنها تأخذ الأمور كثيراً على محمل الجد وتحوّل كل شيء إلى مأساة، ولا تتوصل إلى فهم خفة العلاقات الجنسية وتفاهتها السعيدة. كانت تود أن تتعلم الخفة! كانت تود لو أن أحداً يعلّمها كيف لا تكون «مبطلة العهد!».

إذا كان الإغراء بالنسبة للنساء الأخريات طبيعة ثانية وروتيناً دون معنى، فإنه بالنسبة لها حقل تجارب هام يجعلها تكتشف ما هي قادرة عليه. ولكن بما أنها تولي الإغراء أهمية وجدية كبيرتين، فإنه يفقد عندئذ كل خفة ليصير متكلفاً ومصطنعاً ومفرطاً. فيصير التوازن بين الإيحاء وبين غياب الضمانة مفقوداً. (وهنا بالذات تكمن البراعة الحقيقية في فن الإغراء!). فهي من التسرع حين تَعِدُ بحيث تظهر بوضوح أن وعدها هذا لا يُلزمها بشيء. وبكلمة أخرى، الجميع يعتبرونها سهلة للغاية. ثم إن الرجال يسعون وراء إكمال ما كانت أوحت لهم به، فيصطدمون بمقاومة مفاجئة لا يمكنهم أن يفسروها إلا نابعة من قساوة تيريزا المرهفة.

9

جلس مراهق في السادسة عشرة من عمره على مقعد فارغ أمام طاولة الشرب. ثم أخذ يتفوه بجمل مثيرة تنزل في الحديث كما ينزل خط مغلوط في الرسم فلا يمكن متابعته ولا محوه.

قال لها: «ساقاكِ جميلتان».

فاعترضَتْ: «كأننا نراها عبر خشب طاولة الشرب!».

وأوضح الفتى: «ولكني أعرفك. أراقبك في الشارع».

ولكن تيريزا كانت ابتعدت للاهتمام بزبائن آخرين. أمرها بكأس كونياك فرفضت.

فاعترض المراهق: «ولكني بلغت لتوي الثمانية عشرة.

ــ أرني إذاً بطاقتك الشخصية.

فردّ المراهق:

ــ لا مجال.

ــ حسناً! خُذْ ليموناضة!».

ثم، دون أن ينبس بكلمة، نهض عن مقعده وخرج. ثم رجع بعد زهاء نصف ساعة للجلوس أمام طاولة الشرب. أخذ يومىء بحركات كثيرة ورائحة الكحول تفوح من فمه عن بعد ثلاثة أمتار.

ــ «ليموناضة!».

قالت:

ــ «أنت ثمل!».

أشار المراهق إلى لوحة معلقة في الحائط خلف تيريزا، كُتب عليها: يمنع منعاً باتاً تقديم مشروبات كحولية لمن هم دون الثامنة عشرة.

ثم قال وهو يشير إلى تيريزا بحركة عظيمة من يده: «يُحظر عليك أن

تقــدمي لي الكحـول، ولكنــه لم يُكتب في أي مكــان أنــه لا يحق لي أن أسكر».

ـ أين فعلت بنفسك هذا؟ سألت تيريزا.

ـ في الحـانة المـواجِهة. ثم أطلق ضحكـة طويلة، وطلب من جـديد ليموناضة.

ـ «ولماذا لم تبقَ هناك إذاً؟».

قال المراهق: «لأنني أريد أن أنظر إليك. أحبك».

حين تفوه بذلك، انقبض وجهه بشكل غريب. لم تكن تفهم: أهو يهزأ بها؟ أم يمهّد لصداقتها؟ هل في الأمر ألعوبة ما؟ أم أنه ببسـاطة كـان سكـران ولا يعرف ماذا يقول؟

وضعت كوب الليموناضة أمـامه، ثم ذهبت لـلاهتمام بـزبائن آخـرين. يبـدو أن كلمة «أحبـك» قد أنهكت المـراهق، لأنه لم يقـل شيئاً بعـدها. بـل وضع دون ضجة المال على الطاولة وانسحب دون أن تلاحظ تيريزا.

مـا إن خرج حتى بـادر بالكـلام رجل أصلع قصيـر كان يتنـاول كـأسـه الثـالثة: «يـا سيدة، تعـرفين أنه لا يحق لـك تقـديم الكحـول لمن هم تحت السن؟».

ـ «ولكني لم أُقدم له كحولاً! أخذ كوباً من الليموناضة!».

ـ رأيت جيداً ماذا سكبت له في الليموناضة!

ـ ماذا تقول! هتفت تيريزا.

فأمرها الأصلع: «كأس فودكا أخرى»، ثم أضاف: «منذ فترة طويلة وأنا أراقبك».

عندئذ تدخل رجـل طويـل القامـة كان اقتـرب من طاولـة الشرب ورأى المشهد بكامله:

ـ «حسنـاً! اعتبرْ نفسـك محظوظـاً لأنـه يتسنّى لـك النـظر إلى سيـدة جميلة واقفل فاك!».

فصرخ الأصلع: «أنت ما دخلك في الأمر! هذا شيء لا يعنيك!».

فسأل الرجل العملاق: «وهل تستطيع أن تشرح لي ما دخلك أنت في هذا؟».

قدّمت تيريزا كأس الفودكا التي كان الأصلع قد أمرها بها. فشربها دفعة واحدة، ثم دفع الحساب وخرج.

قالت تيريزا للرجل طويل القامة: «أشكرك».

فقال الرجل الطويل: «ليس هناك ما يستوجب الشكر»، ثم خرج بدوره.

10

بعد أيام قليلة، ظَهَر في الحانة من جديد. عندما رأته، ابتسمت له وكأنه صديق: «يجدر بي أن أشكرك مرة ثانية، ذاك الأصلع يأتي إلى هنا غالباً، وهو ثقيل الدم بشكل لا يطاق».

ـ لا تفكري فيه.

ـ لماذا كان يريد الإساءة إليّ في ذلك اليوم؟

ـ ليس إلا سكيراً. أطلب منك مرة ثانية: لا تفكري فيه.

ـ بما أنك تطلب مني ذلك، فلن أفكر فيه بعد الآن.

نظر الرجل فارع الطول في عينيها: «يجب أن تعديني بذلك».

ـ أعدك.

فقال الرجل وهو لا يكف عن النظر في عينيها: «يسعدني أن أسمعك تعدينني بشيء ما».

كان الموقف في منتهى الإغراء: هذا التصرف الذي يوحي بإمكانية المقاربة الجنسية حتى ولو بقيت هذه الإمكانية نظرية بحتة ودون ضمانة.

ـ «كيف حدث أنه أمكن الالتقاء بامرأة مثلك في الحي الأكثر رداءة في براغ؟».

ـ «وأنت؟ ماذا تفعل في الحي الأكثر رداءة في براغ؟».

فقال لها إنه يسكن على مسافة ليست ببعيدة من هنا، وإنه يعمل مهندساً، وإنه توقف هنا صدفة في المرة السابقة عندما كان راجعاً من عمله.

11

كانت تنظر إلى توماس. لكن نظراتها لم تكن موجهة إلى عينيه، بل إلى فوق على مسافة عشرة سنتمترات، إلى شعره الذي كانت تفوح منه رائحة فرج امرأة أخرى.

قالت: «توماس، لم أعد أقدر. أعرف أن لا حقّ لي في التشكي. مذ رجعت إلى براغ وأنا أحظّر على نفسي الغيرة. لا أريد أن أكون غيورة. ولكني لا أستطيع أن أمنع نفسي عن ذلك. لا قدرة لي. ساعدني، أرجوك».

فتأبط ذراعها واقتادها إلى حديقة صغيرة عامة حيث كانا يذهبان مراراً من سنوات. كانت هناك في هذه الحديقة مقاعد: زرقاء وصفراء وحمراء. عندما جلسا، قال توماس لها:

«أفهمك وأعرف ماذا تريدين. لقد رتبتُ كل شيء. عليك الآن أن تذهبي إلى «مون ـ دو ـ بيير ـ»».

وللحال تآكلها القلق: «إلى «مون ـ دو بيير»؟ لكن ماذا عليّ أن أفعل في «مون ـ دو ـ بيير»؟».

ـ «ستصعدين إلى فوق وعندها ستفهمين؟».

لم تكن راغبة إطلاقاً في الذهاب. كان جسدها أضعف من أن يقوى على مغادرة المقعد. ولكنها لم تكن قادرة أيضاً على مخالفة أمرٍ لتوماس. فبذلت جهدها لتنهض.

استدارت. كان لا يزال جالساً على المقعد ويبتسم لها بسعادة تقريباً.

ثم أشار لها بحركة من يده لكي يشجعها، دون شك.

12

عندما وصلت إلى «مون ـ دو ـ بيير» وهي تلة خضراء تنتصب في وسط براغ، لاحظت مذعورة أن لا أحد هناك. كان الأمر يثير الاستغراب فهناك دائماً جموع من براغ تتوافد عادة إلى المكان وفي أي ساعة كانت، للتنزه. أحست بالقلق ينهش قلبها. ولكن الممرات كانت ساكنة إلى حدٍ بعيد، وكان هذا الصمت يبعث على الطمأنينة، فأقلعَتْ عن المقاومة واستسلمت بثقة لذراعَيْ التلة. كانت تصعد إلى فوق متوقفة من وقت لآخر لتستدير إلى الوراء. كانت ترى تحتها أبراجاً وجسوراً كثيرة. كان القديسون يلوّحون بقبضاتهم وعيونهم الحجرية محدقة في الغيوم. كانت هذه أجمل مدن العالم.

بلغت أعلى التلة. وراء الأكشاك حيث يبيعون عادةً مرايا وبطاقات تذكارية وخزفاً مبرغلاً، (كان البائعون متغيبين في ذلك اليوم) تمتد مرجة خضراء فسيحة الأرجاء ومغروسة بأشجار قليلة. . لمحت هناك بضعة رجال. كانوا يجمدون قليلاً، ثم يروحون ويجيئون ببطء متناهٍ، أشبه بلاعبي غولف يتفحصون الحفرة ثم يرجّحون العصا بأيديهم لكي يحضروا أنفسهم قبل الشروع في المباراة.

وصلت في النهاية بمحاذاتهم. كانت واثقة من أنها تعرف ثلاثة من بين الرجال الستة، أتوا إلى هنا لكي يقوموا بالدور نفسه الذي تقوم به هي: كانوا مرتعبين، كانوا وكأنهم راغبون في طرح أسئلة لا تُحصى ولكنهم آثروا السكوت خشية الإزعاج ونظروا حولهم نظرات حائرة.

أما الرجال الثلاثة الآخرون فكانوا يفيضون طيبة وتسامحاً. كان أحدهم يمسك بندقية في يده. حين لمح تيريزا أشار لها بابتسامة قائلاً: «أجل، هنا».

حيّته بانحناءة من رأسها وأحسّت بضيق هائل.

أضاف الرجل: «حتى نتفادى الخطأ، هل هذه «رغبتك» فعلاً؟».

كان سهلاً أن تقول له: «لا، هذه ليست رغبتي»، ولكن خيانة ثقة توماس أمر غير وارد. إذ بأية حجة ستتذرع عندما تعود إلى البيت؟ فقالت عندئذ: «أجل، طبعاً. هذه رغبتي».

كان الرجل حامل البندقية يتابع: «يجب أن تفهمي لأية غاية أطرح عليك هذا السؤال. نحن لا نفعل هذا إلا إذا كنا واثقين من أن الذين يأتون إلينا قد قرروا بأنفسهم وملياً أن يموتوا. هذه خدمة نؤدّيها من أجلهم».

نظر إلى تيريزا نظرة حائرة، فتوجب عليها مرة أُخرى أن تؤكد لهم: «نعم، اطمئن! هذه رغبتي».

سألها:

ـ «هل تريدين أن تكوني البادئة؟».

فأرادت أن تؤجل الإعدام ولو للحظات قليلة.

ـ «لا، أرجوك، لا. أريد أن أكون الأخيرة، لو سمحْتَ».

ـ «كما تشائين». أجاب الرجل ثم مضى باتجاه الآخرين. لم يكن معاوناه يحملان سلاحاً. بل كانا هناك للاهتمام بالناس الذين يريدون الموت. فيقتادانهم من أذرعتهم ويرافقانهم إلى المرجة. والمرجة مساحة شاسعة مكسوة بالعشب على مدّ النظر. كان يمكن للمرشحين للإعدام أن يختاروا الشجرة التي تعجبهم. كانوا يتوقفون وينظرون ملياً غير قادرين على الاختيار. وفي النهاية اختار اثنان منهم شجرتيْ دلب لكن الثالث كان يبتعد أكثر فأكثر دون أن يعثر على أية شجرة تناسب موته. وكان المعاون الذي يتأبط ذراعه برقة، يرافقه بأناة دون أن ينفد صبره. ولكن الرجل في النهاية لم يعد يقوى على التقدم فتوقف أمام شجرة قيقب كثيفة الأوراق.

عصب المعاونان أعين الرجال الثلاثة.

كان هناك فوق المرجة إذاً ثلاثة رجال متكئين إلى ثلاثة جذوع أشجار، وكل واحد منهم معصوب العينين ورأسه باتجاه السماء.

سدّد الرجل حامل البندقية وأطلق النار. عدا أصوات العصافير لم تكن هناك أية ضجة. كانت البندقية مزودة بكاتم للصوت. كان بالإمكان فقط رؤية الرجل المتكىء إلى شجرة القيقب وقد بدأ يتهاوى.

ودون أن يبتعد الرجل حامل البندقية عن مكانه، استدار في اتجاه آخر فانهار الرجل المستند إلى شجرة الدلب بدوره وسط صمت مطبق. ولحظات قليلة (كان الرجل البندقية يدور على عقبيه ملازماً مكانه) وسقط المرشح الثالث للإعدام هو أيضاً على العشب.

13

اقترب أحد المعاونين من تيريزا دون أن ينبس بكلمة. كان يحمل في يده عصبة زرقاء داكنة.

فهمت أنه يريد عصب عينيها. هزّت رأسها وقالت: «لا، أريد أن أرى كل شيء».

لكن لم يكن هذا هو السبب الحقيقي لرفضها. فهي لم تكن قط شبيهة بالأبطال الذين صمموا بشجاعة على النظر في أعين مُعدِميهم. بل وإنما كانت فقط محاولة منها لتأجيل موتها. إذ خُيّل إليها أنها ما إن تُعصب عيناها حتى تكون قد دخلت إلى غرفة انتظار الموت، من غير أمل في الرجوع.

لم يحاول الرجل معارضتها ثم أخذها من ذراعها. كانا يمشيان على المرجة الفسيحة دون أن تتمكن تيريزا من أن تقرر أية شجرة ستختار. ثم أن لا أحد كان يجبرها على الاستعجال. لكنها كانت على يقين أنها لن تتمكن من الخلاص في جميع الأحوال. رأت أمامها شجرة كستناء مزهرة. فاقتربت. ثم استندت إلى الجذع ورفعت رأسها: فرأت الأوراق يخترقها شعاع الشمس، وسمعت في البعيد المدينة تدمدم بخفوت وعذوبة مثل صوت ألف كمان.

رفع الرجل بندقيته.

بدأت شجاعتها تخونها. كانت يائسة من ضعفها ولكنها لم [illegible] تملك السيطرة عليها، فقالت: «لا! ليسَتْ هذه رغبتي».

فأخفض الرجل للحال أستون البندقية وقال بهدوء كلي: «ما دامت هذه ليست رغبتك، لا يمكننا والحالة هذه أن نقوم بهذا. ليس لنا الحق في ذلك».

كان صوته ودوداً وكأنه يريد أن يعتذر من تيريزا لعدم قدرته على التنفيذ ما لم تكن هذه رغبتها. كان هذا اللطف يمزّق قلبها فألقت رأسها على جذع الشجرة وشهقت بالبكاء.

14

كانت تعانق الشجرة وجسدها يختلج من البكاء، وكأنَّ هذه الشجرة لم تعد شجرة وإنما صارت أباها الذي فقدته أو جدّها الذي لم تعرفه، أو أبا جدّها، أو جدّ جدّها؛ رجلاً ما موغلاً في القِدم، آتياً من أعمق أعماق الزمن ليمد لها وجهه عبر قشرة الشجرة الخشنة.

استدارت. كان الرجال الثلاثة قد ابتعدوا وهم يروحون ويجيئون على المرجة، شبيهين بلاعبي غولف. ذلك أن البندقية التي في يد الرجل المسلّح تذكّر كثيراً بعصا الغولف.

هبطت ثانية ممرات «مون ـ دو ـ بيير» متحفظة في داخلها بالحنين إلى الرجل الذي كان سيُطلق عليها النار ولم يفعل. اشتاقت إليه، فهي كانت بحاجة لأحد ما يساعدها، في نهاية الأمر! توماس لم يكن يودّ مساعدتها. توماس أرسلها إلى الموت. وحدُه رجل آخر بإمكانه أن يساعدها!

كانت كلّما اقتربت من المدينة، تحس بالحزن من أجل هذا الرجل، ويزداد خوفها من توماس. هو لن يغفر لها إخلالها بوعدها، ولن يغفر لها تخاذلها وخيانتها له. كانت قد وصلت إلى الشارع حيث يسكنان، وكانت تعرف أنها ستراه بين دقيقة وأخرى. وإذ فكرت بذلك، داهمها خوف شديد إلى درجة أحسّت معها بتشنج في معدتها وبرغبة في التقيؤ.

15

كـان المهندس قـد دعاهـا إلى زيارتـه ورفضت لمرتين على التـوالي. لكنها هذه المرة قبلت.

تناولت غداءها كالعادة واقفة في المـطبخ، ثم خـرجت. كانت السـاعة تقارب الثانية.

كانت تقترب من مكان سكنه فأحسّت عندئـذ بساقيهـا تبطآن من تلقـاء ذاتهما.

ثم فكرت أن توماس هو من أرسلهـا إلى هذا الـرجل. ألم يكن يمضي الـوقت وهو يشـرح لهـا أن الحب والجنس أمـران مختلفـان؟ ستحـاول بكـل بساطة أن تؤكد نظريته. كانت تسمع صوتـه يقول لهـا: «أفهمك وأعـرف ماذا تريدين. لقد رتبت كل شيء. ستصعدين إلى فوق وستفهمين».

أجل، هي لم تقم سوى بتنفيذ أوامر توماس.

لم تكن تود البقاء إلا هنيهة عند المهندس، فقط الوقت لتشـرب فنجان قهـوة. فقط الـوقت لتكتشف ما معنى أن تتقـدم حتى حدود الخيـانة. كـانت تريد أن تدفع بجسدها باتجاه هذه الحدود وأن تتركه هنـاك لحظة، كمـا على عمود التشهير. ثمَّ حين يحاول المهندس أن يضمها بين ذراعيه ستقول له كما قالت للرجل صـاحب البندقيـة في «المون ـ دو ـ بييـر»: «لا، لا! ليست هذه رغبتي».

وعندها سيُخفض الرجل أستون بندقيتـه ويقول بصـوت عذب: «إذا لـم تكن هذه رغبتك، لا يمكننـا والحالـة هذه أن نقـوم بهذا. ليس لنـا الحق في ذلك».

وستلتفت عندها إلى جذع الشجرة وتشهق بالبكاء.

16

كانت البناية تعود إلى بداية القرن وتقع في ضـاحية عمـالية في بـراغ.

ولجت في رواق جدرانه مطلية بالكلس. كانت الأدراج العتيقة للسلّم الحجري الـذي يحيط به درابـزين حديـدي، تؤدي إلى الـطابق الأول. استـدارت إلى الشمال، على الباب الثاني حيث لا يوجد لا اسم ولا جرس، قرعت.

فُتح الباب.

كـان المسكن بكامله يتـألف من غرفـة واحدة تقسمهـا ستارة على بعـد مترين من الباب لكي توحي بأن هذا مدخل، حيث يُوجد طاولة وموقد وبرّاد. ولجت إلى الداخل فلاحظت قبالتها مستطيل النافذة العمودي في نهاية الغرفة الضيقة والممتدة طولاً. في جهة، كانت هناك مكتبة، وفي جهة أخرى سريـر وكنبة وحيدة.

ــ «بيتي متولضع للغاية، قال المهندس. آمل ألاَّ يُخيِّب هذا ظنك».

ــ «لا، إطـلاقاً»، قـالت تيريـزا وعيناهـا مسمرتـان إلى الحـائط الـذي تحجبه تماماً رفوف مزدحمة بالكتب. لم يكن هذا الرجل يملك طاولة جـديرة بهذا الاسم، ولكنه مع ذلك كان يملك مئات الكتب. سـرّت تيريـزا لذلـك. والقلق الذي رافقها وهي في طريقها إلى هنـا، أخذ يتـلاشى. منذ طفـولتها، كانت ترى في الكتاب علامة على أخوة سرية. فمن يملك مكتبة كهذه، ليس في مستطاعه إذاً أن يؤذيها.

سألها ماذا بإمكانه أن يقدم لها: خمر؟

لا، لا، لم تكن راغبـة في الخمـر. إذا كـان هنـاك شيء تـرغب في شربه، فسيكون القهوة.

اختفى وراء الستـارة فاقتـربت من المكتبة. استـوقفها أحـد الكتب وهو مسـرحية متـرجمة لسـوفوكـل: «أوديب»، أمر غـريب أن تجد هـذا الكتـاب بـالذات عنـد هذا الـرجل الـذي تجهله. كان تـوماس قـد أهداه لتيـريـزا من سنوات متوسلاً إليها أن تقرأه بانتباه، وحدّثها عنه طـويلاً. ثم نشـر انطبـاعاتـه عن هذا الكتاب في إحـدى الصحف، فقلب هذا المقـال حياتهمـا رأساً على عقب. كانت تنظر إلى ظهر الكتاب فتهدىء هذه الرؤية من روعها. كان الأمر كما لو أنّ توماس ترك عن قصد أثره هنا بمثابة رسالة تبلغها أنه قـد رتَّب كل

شيء بنفسه. أخذت الكتاب وفتحته.. عندما سيرجع المهندس، فسوف تسأله عن سبب اقتنائه لهذا الكتاب، وعمّا إذا كان قد قرأه وما هو رأيه فيه. وهكذا سيكون في وسعها الانتقال بفضل خدعة كلامية من المنطقة المحفوفة بالمخاطر لمسكن المجهول، إلى العالم الأليف لأفكار توماس.

ثم أحسّت بيده فوق كتفها. انتزع المهندس الكتاب من يدها وأرجعه دون أن يقول شيئاً إلى المكتبة، ثم اقتادها إلى السرير.

فكّرت بالجملة التي كانت قالتها إلى مُنفِّذ الإعدام في «مون ـ دو ـ بيير»، فنطقت بها بصوت عالٍ: «لا، لا! ليست هذه رغبتي!».

كانت على اقتناع بأن هذه العبارة الساحرة ستغير الموقف ولكن هذه الكلمات كانت تفقد كل قدرة سحرية لها في هذه الغرفة. وفي اعتقادي حتى أنها حثّت الرجل على أن يتصرف بطريقة أكثر تصميماً: شدّها ناحيته ووضع يده على نهدها.

أمر عجيب: فهذه الملامسة حررّتها من قلقها في الحال. كما لو أن المهندس قد أظهر لها من خلال هذه الملامسة، جسدها. ففهمت عندئذ أن الرهان لا يقع عليها (أي على روحها) بل على جسدها، وجسدها دون غيره. هذا الجسد الذي كان قد خانها والذي طردته بعيداً ليلتحق بالأجساد الأخرى.

17

فكَّ زرّاً من قميصها منتظراً أن تكمل البقية بنفسها. ولكنها خيّبت توقعه. فهي كانت قد طردت جسدها بعيداً عنها، ولا تريد بذلك أن تأخذ أمره على عهدتها. لم تتعرَّ لكنها في الوقت نفسه لم تقاوم. وكأن روحها، بالرغم من أنها تستهجن ما يجري، قد اختارت مع ذلك أن تبقى على الحياد.

عرّاها من ثيابها، وبقيت خلال هذا الوقت جامدة تقريباً. وحين قبّله لم تتجاوب شفتاها معه. ثم شعرت فجأة أن فرجها رطب فذُهلت لذلك.

كانت كلّما شعرت أنها مهتاجة رغماً عن إرادتها، يزداد اهتياجها أكثر. ها قد بدأت روحها الآن تمتثل بطريقة غامضة لمجريات الأمور، ولكنها كانت عارفة أيضاً أن موافقتها هذه يجب أن تبقى مضمرة من أجل إطالة هذا الاهتياج الشديد. فَلَو أنها قالت نعم بصوتٍ عالٍ، لو أنها قبلت أن تشترك بكامل إرادتها في تمثيلية الحب، لاضمحلّت الإثارة. ذلك أن الأمر الذي كان يثير روحها بالذات هو خيانة الجسد لها وتصرفه ضد إرادتها، فيما هي شاهِدة على هذه الخيانة.

ثم انتزع لها «سليپّها» فأصبحت الآن عارية تماماً. كانت الروح تتأمل الجسد عارياً بين ذراعي رجل غريب. فبدا لها هذا المشهد عجيباً كمن يتأمل كوكب المريخ عن كثب. وتحت هذه الإضاءة العجيبة فَقَد جسدها للمرة الأولى تفاهته، وللمرة الأولى نظرت إليه مفتونة: كان تفرد جسدها وتميّزه الذي لا يضاهى يحتلان الصدارة.. إذ لم يعد جسدها ذلك الجسد الأكثر عاديّةً بين الأجساد (كما بَدا لها حتى الآن) ولكن الأكثر استثنائية بينها. لم تكن الروح قادرة على إشاحة بصرها عن شائبة الولادة المستديرة السمراء فوق العانة تماماً؛ كانت الروح ترى في هذه الشائبة ختماً وسمت به الجسد، وكانت تجد أن تحرك عضو غريب على مقربة جداً من هذا الختم المقدس، أمر فيه تجديف.

تذكرت تيريزا حين رفعت عينيها ورأت وجهه، أنها لم توافق قط على أن تجد الجسد، وبالتحديد في المكان الذي طبعت فيه الروح ختمها، بين ذراعي رجل لم تكن تعرفه ولا ترغب في معرفته. فاجتاحتها كراهية مدوّخة. جمّعت ريقها عند شفتيها مستعدة لأن تبصق في وجه الرجل الغريب. كانا يراقبان بعضهما بالنَهَم ذاته، يبدو أنه أحسَّ بغضبها فأخذ يعجِّل في حركاته. وإذ أحسّت تيريزا بالنشوة تعتريها أخذت تصرخ: «لا، لا، لا!». كانت تقاوم المتعة التي تقترب. وبما أنها كانت تقاومها، فإن المتعة المردوعة،كانت تنتشر طويلاً في حنايا جسدها دون أن تجد منفذاً لتهرب منه، كانت النشوة تسري في جسدها كما تسري حقنة المورفين في العرق. كانت تتخبط بين ذراعي الرجل وتضربه على غير هدى وتبصق في وجهه.

18

ترتفع المراحيض العصرية فوق الأرض مثل زهرة النيلوفر البيضاء. فالمهندس المعماري يفعل كل ما في وسعه كي ينسى الجسد بؤسه فلا يعرف الإنسان عما سيؤول إليه غائط أحشائه بعد أن تدفعه مياه الخوان مقرقرةً. ومع أن قساطل المجارير تصل مجساتها حتى شققنا، فإنها محجوبة بعناية عن أنظارنا ونجهل كل أمر عن «بندقية» البراز التي تقوم عليها غرف حماماتنا ونومنا وقاعات رقصنا ومجالسنا.

أما مراحيض هذا المبنى القديم، الواقع في ضاحية عمالية من براغ، فكانت أقل خبثاً. كان المرحاض يرتفع يتيماً بائساً فوق بلاط الأرض الرمادي. ومنظره لم يكن يذكر بزهرة النيلوفر بل بأنه مرحاض أي: الفوهة الواسعة للقسطل لم تكن عليه مقعدة خشبية فاضطرت تيريزا إلى الجلوس على الصفيحة المطلية بالمينا، فجعلتها ترتعش.

كانت تيريزا جالسة فوق المرحاض وكانت الرغبةُ التي تملكتها فجأة في إفراغ أمعائها، رغبةً في الذهاب حتى نهاية الذل، رغبةً في أن تكون جسداً، جسداً فحسب، في أن تكون ذلك الجسد الذي كانت تقول أمها عنه أنه وُجد ليهضم ويتغوط. تيريزا إذاً تفرغ أمعاءها وتشعر الآن بحزن ووحدة يفوقان الوصف. إذ لا شيء أكثر تعاسة من جسدٍ عارٍ جالس فوق الفوهة العريضة لقسطل التفريغ.

فقدت عندئذ روحها فضولية المُشاهد وعدوانيتها وكبرياءها: فمن جديدٍ، غارت في قعر جسدها، في تلافيفه الأكثر سرية وقبعت تنتظر هناك بيأس استدعاءها من جديد.

19

قامت عن المرحاض وشدّت على طرّادة الماء، ثم رجعت إلى المدخل. كانت الروح ترتعش في الجسد المنبوذ العاري. كانت تيريزا تشعر أن الورقة التي مسحت بها مؤخرتها لا تزال عالقة هناك.

فحدث ساعتها شيء لا يُنسى: رغبت في موافاته إلى الغرفة وسماع صوته وندائه. لو أنه يتكلم معها بصوت عذب وخفيض ربّما ستستعيد روحها الجرأة للصعود إلى سطح جسدها، وربما سوف يمكنها البكاء. ربَّما ستعانقه كما كانت عانقت في الحلم، الجذع العريض لشجرة الكستناء.

كانت في المدخل تحاول جاهدة أن تتمالك هذه الرغبة الجامحة في البكاء أمامه. كانت عارفة أنها لو لم تتمالك هذه الرغبة، فسوف يحدث ما لا ترغب فيه، ستقع في غرامه.

في هذه اللحظة بالذات، تناهى إلى سمعها صوت من عمق المسكن. عندما سمعت هذا الصوت غير المجسّد (أي دون أن يترافق مع رؤية القامة الفارعة للمهندس) أخذها العجب: كان الصوت خافتاً وحاداً. كيف لم تلاحظ ذلك قبل الآن؟

ربما بسبب هذا الانطباع المُحيّر والمقيت الذي تركه هذا الصوت في داخلها، استطاعت أن تقاوم التجربة، فرجعت إلى الغرفة، حيث لملمت ملابسها ثم ارتدت ثيابها على عجل وغادرت.

20

كانت راجعة من جولاتها الشرائية بصحبة كارينين التي تحمل فطيرة في خطمها. كانت الصبيحة باردة ومتجلدة قليلاً. كانت تسير بمحاذاة أرض مفرزة تتخلل مسافاتِ البيوت الكبيرة جنائنُ مزروعة صغيرة جداً وحدائق صغيرة. توقفت كارينين بغتة، وحدّقت بثبات إلى هناك. نظرت هي أيضاً إلى تلك الجهة دون أن يلفت نظرها شيء ما. كانت كارينين تجرّها فاستسلمت لها. وأخيراً، رأت فوق الصلصال المتجلد لمسكبة صغيرة رأس زاغٍ أسود ذا منقار طويل. كان الرأس الصغير دون جسد يتحرك ببطء ويرسل من وقت لآخر صوتاً حزيناً أجش.

كانت كارينين مضطربة إلى درجة أنها تخلت عن الفطيرة. فاضطرت تيريزا لأن توثقها إلى شجرة لئلا تسيء إلى الزاغ. ثم انحنت وحاولت أن

تنبش التراب المتكوم حول رقبة العصفور المدفون حياً. لم يكن الأمر سهلاً فأحد أظفارها انكسر ونزف الدم منه.

في هذه اللحظة، سقط حجر قربها. رفعت بصرها فلمحت صبيين في العاشرة من عمرهما عند زاوية أحد البيوت. نهضت. وإذ شاهدا ردّة فعلها والكلب الموثوق إلى الشجرة، ولّيا راكضين.

ركعت من جديد على الأرض لتحفر التراب الصلصالي وتمكنت أخيراً من تحرير الزاغ من قبره، لكن العصفور كان مشلولاً وغير قادر على المشي أو على الطيران. فغطّته بالمنديل الذي كانت تلفه حول عنقها وضمته بيدها اليسرى إلى صدرها. أفلتت باليد اليمنى وثاق كارينين عن الشجرة. واحتاجت إلى كل قوّتها لتتحكم بها وتبقيها إلى جانب ساقها.

وبما أن يدها لم تكن فارغة لتبحث عن المفتاح في جيبها، قرعت الجرس، فتح لها توماس. فناولته مقود كارينين وأمرته قائلة: «أمسكها!» وحملت الزاغ إلى غرفة الحمام. هناك، وضعته على الأرض تحت المغسلة. كان الزاغ يتخبط دون أن يقدر على الحركة. كان هناك سائل سميك أصفر ينزف من جسده. صنعت له تيريزا محفّة من خرق عتيقة، ووضعته عليها تحت المغسلة كيلا تصل إليه برودة البلاط. كان العصفور يحرّك جناحه المشلول يائساً وكان منقاره ناتئاً وكأنه ملامة.

21

كانت جالسة على حافة المغطس غير قادرة على إشاحة بصرها عن الزاغ المحتضر. كانت ترى في وحدته صورة مصيرها الخاص ثم رددت: لا أحد لي في هذا العالم غير توماس.

هل علّمتها الحلقة مع المهندس أن المغامرات العاطفية لا علاقة لها بالحب؟ وأن هذه المغامرات خفيفة لا تزن شيئاً؟ وهل صارت هي نفسها أكثر هدوءاً من ذي قبل؟

إطلاقاً.

ثمة مشهد يلاحقها باستمرار: وهي خارجة لتوّها من المرحاض وكان جسدها واقفاً في المدخل عارياً ومتروكاً، وكانت الروح المذعوزة ترتعش في أحشائها. أحسَّت أن الرجل فيما لو خاطب روحها من عمق الغرفة في هذه اللحظة بالذات، فسوف تشهق بالبكاء مرتمية بين ذراعيه.

كانت تتخيل أن هناك صديقة لتوماس واقفة مكانها في المدخل أمام المرحاض، وتوماس في الغرفة مكان المهندس. لو أن توماس قال عندها كلمة للمرأة الشابة، كلمة واحدة لا أكثر، لارتمت بين ذراعيه باكية.

تعرف تيريزا جيداً أن هذه اللحظة تشبه تلك اللحظة التي يولد الحب فيها: حين لا تستطيع المرأة أن تقاوم الصوت الذي ينادي روحها المذعورة، والرجل لا يستطيع أن يقاوم المرأة التي تصير روحها متنبهة لصوته. وتيريزا تعرف أيضاً أن توماس لن ينجو أبداً من أفخاخ الحب وهي ليس في مقدورها إلا أن تخاف عليه كل ساعة وكل دقيقة.

والحالة هذه، بأي سلاح يمكن لها أن تتزود؟ بوفائها فقط.. وفاؤها الذي منحته إياه منذ البداية ومنذ اليوم الأول، كما لو أنها كانت عارفة للحال أنها لا تملك شيئاً آخر لتمنحه إياه. فحبهما بناء غير متساوق إلى حدّ عجيب: لأنه يرتكز على اليقين المطلق بوفاء تيريزا كما يرتكز قصر عملاق على عمود واحد.

الآن، لم يعد الزاغ يحرّك جناحيه تقريباً. كان بالكاد يحرّك رجله الممزقة المكسورة. لم تكن تيريزا تريد أن تتركه كما لو أنها ساهرة قرب سرير أخت تحتضر. ومع ذلك ذهبت أخيراً إلى المطبخ لتتناول غداءها على عجل [عندما رجعت كان الزاغ قد مات].

22

إبّان السنة الأولى لعلاقتهما، كانت تيريزا تصرخ أثناء الجماع، وكان هذا الصراخ، كما سبق لي أن قلت، يحاول أن يعمي الحواس وأن يصمَّها. ثم صار صراخها يتضاءل، ولكن الحب كان دائماً يُعمي روحها فلا ترى شيئاً. عندما ضاجعت المهندس، ردَّ غياب الحب الرؤية أخيراً إلى روحها.

كانت تأخذ حمام السونا وكانت تقف من جديد أمام المرآة. أخذت تتأمل نفسها وتسترجع في ذهنها مشهد الحب مع المهندس، لم تكن تتذكر العشيق، وكانت في الحقيقة غير قادرة على وصفه، وربَّما لم تلاحظ كيف كانت هيئته وهو عارٍ تماماً. الشيء الوحيد الذي كانت تتذكره (والذي كانت تنظر إليه مستثارة عبر المرآة) هو جسدها وبالتحديد عانتها والشائبة المستديرة فوقها تماماً. هذه الشّائبة التي لم تكن ترى فيها حتى الآن إلا مجرد عيب جلدي، بدأت تنطبع في ذاكرتها. كانت تريد أن تنظر إليها وتنظر إليها من جديد وهي على مقربة لا توصف من قضيب الرجل الغريب.

لا يمكنني إلا أن أشدد على هذا ثانيةً: هي لم تكن راغبة في رؤية قضيب الغريب. بل كانت تريد أن ترى عانتها وهي على مقربة من هذا القضيب، وعانتها تحديداً. لم تكن ترغب في جسد الآخر، بل في جسدها هي، الذي اكتشفت فجأة أنه كلّما كان أكثر قرباً وأكثر غرابة، كان أكثر إثارة.

ها إنها تنظر إلى جسدها المتلألىء بقطرات ماء صغيرة من المرشة، وتفكر بأن المهندس سيمر بين يوم وآخر إلى الحَانة. كانت راغبة في أن يأتي وفي أن يدعوها لزيارته! راغبة في ذلك بشكل لا حدّ له!

23

كانت على مرّ الأيام تخشى ظهور المهندس ثانيةً أمام طاولة الحانة، فتكون غير قادرة على أن تقول لا. على مر الأيام، كانت خشيتها من أن تراه، تخلي المكان لخشيتها من ألا يأتي.

شهر قد مرّ والمهندس منقطعة أخباره. كانت تيريزا عاجزة عن فهم السبب. فأفسحت الرغبة الخائبة المكان للقلق: لماذا لا يأتي؟..

كانت تقدّم الشراب للزبائن. ها قد رجع الأصلع القصير الذي كان اتهمها ذلك المساء بأنها تقدم الكحول لمن هم دون السن. كان يروي بصوتٍ عالٍ قصّة داعرة. القصة نفسها التي سمعتها مئات المرات من أفواه

السكارى الذين كانت تقدم لهم كؤوس جعة كبيرة في الريف. وإذ أحست بأن عالم أمها ينقض عليها من جديد، قاطعت حديثه بفظاظة شديدة.

تضايق: «ليس هناك أوامر تملينها عليّ! اعتبري نفسك محظوظة لأننا نحن الذين نتركك تعملين في هذه الحانة».

ـ ««نحن»، ماذا تقصد بـ «نحن»؟».

ـ «نحن»، قال الرجل ثم أمر بكأس أُخرى من الفودكا. «وتذكري أني لن أسمح لك بإهانتي».

ثم أشار إلى عنق تيريزا التي كانت ترتدي عقداً مؤلفاً من عْدة صفوف من اللؤلؤ الرخيص، وقال: «من أين لكِ هذا اللؤلؤ؟ لا تقولي إنه هدية من زوجك الذي هو منظف بلاط. فهو لا يقدر على أن يشتري لك هذا اللؤلؤ مع الأجر الذي يكسبه! هل هم الزبائن الذين يعطونك هذا؟ ومقابل أي شيء، قولي؟

ـ اقفل فمك حالاً، صرخت تيريزا.

حاول الرجل أن يمسك العقد بين أصابعه: «تذكري أن الدعارة ممنوعة عندنا!».

انتصبت كارينين وأسندت رجليها الأماميتين على طاولة الشُرب ودمدمت متذمرة.

24

قال السفير: «هو شرطي!».

فألمحت تيريزا: «لو كان شرطياً لكان أكثر تكتماً. فماذا تنفع شرطة سرية حين لا تكون سرية!».

جلس السفير مقرفصاً وكأنه تعلّم ذلك في جلسات لليوغا. على الحائط كان كينيدي يبتسم فيُضفي على كلمات السفير طابعاً مقدساً.

ثم قال بلهجة أبوية: «سيدة تيريزا، للشرطة مهام عدة. المهمة

الأولى كلاسيكيـة ومفادها أن يسمعوا ما يقوله الناس ويبلغوه لرؤسائهم.

والمهمة الثانية هي التهديد. يُظهـرون لنا أنهم يضعـوننا تحت رحمتهم ومرادهم أن نخاف. هذا ما كان يبغيه رجلك الأصلع.

والمهمة الثالثة تعنى بإعداد مواقف يمكنهـا توريـطنا. مـا من أحد عـاد يهتم بـأن تُتّهم بالتـآمر على النـظام لأن هذا يـزيد من تعـاطف الناس معنـا. لـذلك، فهم يفضلون العثـور على حشيشة في قعـر جيوبنـا أو أن يثبتوا بـأننـا اغتصبنا فتاة فيْ الثانية عشرة. ويُحضرون صبية لتشهد على ذلك.

فتذكرت تيريزا المهندس. .كيف يمكنها أن تفسر عدم رجوعْه؟

كـان السفير يتـابع: «ينصبـون للناس فخـاخاً ليستعبـدوهم ويستغلوهم لنصب فخاخ للآخـرين. وهكذا دواليـك، حتى يجعلوا شعباً بـأكمله منظمة هائلة من المُخبرين».

لم تكن تيريزا تفكر إلا بشيء واحد، بأن المهندس مبعوث لها من قبل الشرطة. ولكن من يكون هذا الصبي الغـريب الذي ذهب ليثمـل في المقهى المقـابل ومن ثم رجـع ليعتـرف لهـا بـالحب! فبسبب هـذا الصبي خـاصمها الشرطي وبادر المهندس إلى الدفاع عنها. ثلاثتهم إذاً لعبوا دوراً في سينـاريو مهيأ مسبقاً. وكل ذلك أعـدّ في سبيل أن تستلطف الـرجل الـذي تنصّ مهمته على أن يُغويها.

كيف أنها لم تفكر بذلك؟ ثم أن ذاك المسكن كان يوحي بالارتياب ولا يتناسب إطلاقاً مع هـذا الشخص. فلماذا يقيم مهنـدس أنيق في مسكن بهذه الحقـارة؟ أهو حقـاً مهندس؟ كيف أمكنـه إذاً أن يتغيب عن عمله في السـاعة الثانية من بعد الظهر؟ وهل في المستطاع تخيل مهندس يقرأ سوفوكـل! لا لم تكن المكتبة تلك تخصّ مهندساً. وهذه الغرفة كـانت تشبه بـالأحرى مسكنـاً مصادراً لمثقف معدم وموجود حالياً في السجن. عندما كانت في العاشـرة من عمـرها أوقفـوا أباهـا وصادروا الشقـة والمكتبة كلهـا. من يـدري لأي مـأرب استعملوا الشقة فيما بعد؟

الآن، كانت تفهم بوضوح لماذا لم يعد ثانية. لأنه قد أنجز مهمتـه وأية

مهمة؟ كان الشرطي الأصلع قد أوحى بها دون أن يدري عندما قال: «في الوقت الحاضر الدعارة ممنوعة عندنا، لا تنسي هذا الأمر!» وذلك المهندس المزيف ربما سيشهد بأنها ضاجعته وأنها طلبَتْ منه مالاً! سيهدّدونها بإثارة فضيحة ويبتزونها لتُبلغ عن هؤلاء الذين يأتون إلى الحانة ليسكروا.

كان السفير يحاول طمأنتها: «مغامرتك لا تبدو لي خطيرة إلى الحد الذي تتصورين».

فقالت تيريزا بصوت مخنوق: «ممكن». وخرجت مع كارينين إلى شوراع براغ السوداء.

25

لكي نتحاشى العذاب نلجأ في أكثر الأحيان إلى المستقبل. فنتصور أن ثمة فاصلاً ما على حلبة الزمن يتوقف بعد العذاب الحالي عن أن يكون موجوداً. ولكن تيريزا لم تكن ترى أن هذا الفاصل موجود إزاءها. وكان الرجوع إلى الوراء وحده يجلب لها شيئاً من المؤاساة. كان نهار أحد آخر. ركبا السيارة ليذهبا في نزهة بعيداً عن براغ.

كان توماس أمام المقود وتيريزا إلى جانبه وكارينين على المقعد الخلفي. تمد أحياناً رأسها إلى الأمام لتلحس لهما آذانهما. في زهاء ساعتين وصلا إلى مدينة صغيرة مليئة بالمياه المعدنية. كانا قد أمضيا بضعة أيام فيها لخمس أو ست سنوات خلَتْ. فأراد التوقف فيها لقضاء الليل.

أوقفا السيّارة في الساحة، وترجّلا منها. ما زالت المدينة كما كانت. في الجهة المقابلة الفندق الذي نزلا فيه تلك السنة، وأيضاً شجرة الزيزفون القديمة أمام المدخل. على يسار الفندق تصطف قناطر خشبية قديمة وفي نهايتها تنساب عينُ ماء في بركة رخامية. كان هناك أناس ينحنون فوقها، كما في السابق، والأكواب في أيديهم.

كان توماس يشير إلى الفندق. ولكن هناك شيئاً ما تغير على أية حال.. ففي السابق كان الفندق يُسمّى «الفندق الكبير»، والآن صار اسمه

استناداً إلى اللافتة «البَيْكال». ثم نظرت إلى اللائحة عند زاوية المبنى وقد كُتب عليها: «ساحة موسكو». فَجَالا معاً (كانت كارينين تتبعهما لوحدها دون رسن) في كل الشوارع التي كانا يعرفانها وتفحصا الأسماء: شارع ستالينغراد وشارع لينينغراد، وشارع روستوف، وشارع نوفوسبيرسك، وشارع كييف، وشارع أوديسا. وهناك دار تشيكوفسكي للنقاهة، ودار تولستوي للنقاهة، ودار ريمسكي كورساكوف للنقاهة. وهناك أيضاً فندق سوفوروف وسينما غوركي ومقهى بوشكين. كانت كل الأسماء مأخوذة من روسيا ومن التاريخ الروسي.

أخذت تيريزا تتذكر أيام الاجتياح الأولى. كان الناس يُخفون آنذاك اللافتات في كل الشوارع، في كل المدن، ويقتلعون من الطرقات الألواح المشيرة إلى الاتجاه. فأصبح البلد غير معروف في ليلة واحدة. كان الجيش الروسي يتسكع في البلاد دون أن يعرف وجهته. وكان الضباط يفتشون عن مباني الإعلام والتلفزيون والراديو ليحتلوها، لكن دون أن يتمكنوا من العثور عليها. وحين كانوا يسألون الناس عنها يهز هؤلاء الأخيرون أكتافهم أو يدلونهم على عناوين خاطئة وعلى اتجاهٍ خاطئ.

ومع مرور السنوات، يبدو أن هذا التستر عاد بالضرر على البلاد. فلا الشوارع ولا البيوت تمكنت بعد ذلك من استعادة أسمائها الأصلية. وهكذا تحولت منطقة حمامات معدنية في بوهيميا، بين يوم وآخر، إلى روسيا خيالية مصغّرة. كانت تيريزا تكتشف إذاً أن الماضي الذي أتيا للتفتيش عنه هنا قد تمت مصادرته. وكان يستحيل عليها البقاء لإمضاء الليلة.

توجها من جديد إلى السيارة صامتَيْن. كانت تيريزا تقول في نفسها إن الأشياء كلها والناس كلهم يعرّفون عن أنفسهم متنكرين: كانت المدينة القديمة بوهيميا قد اكتست بأسماء روسية. والتشيكيون الذين كانوا يلتقطون صوراً عن الاجتياح، كانوا يعملون دون أن يدروا لمصلحة الشرطة السرية الروسية. فالرجل الذي أرسلها إلى الموت كان مُقنَّعاً بقناع توماس،

والمهندس كان يريد أن يلعب دور رجل «مون ـ دو ـ بيير»، والكتاب في مسكنه كان رمزاً خادعاً وُجد هناك لتضليلها.

وإذ فكرت في الكتاب الذي أمسكته في يدها، مرَّت في خاطرها فكرة احمرَّ لها خداها خجلاً: كيف حدثت هذه الأمور؟ قال المهندس إنه ذاهب لإحضار القهوة، فاقتربت من المكتبة وانتزعت كتاب «أوديب» لسوفوكل. ثم عاد المهندس لكن دون قهوة.

كانت تقلّب الموقف في جميع الاتجاهات: تُرى، عندما ذهب متذرعاً لتحضير القهوة، كم من الوقت بقي هناك؟ لا شك في أنه بقي دقيقة على الأقل أو دقيقتين وربما ثلاثاً. ماذا يمكن أن يكون قد فعل كل هذا الوقت في مدخل صغير؟ هل ذهب إلى المرحاض؟ كانت تيريزا تحاول أن تتذكر ما إذا كانت قد سمعت طرطقة باب أو قرقرة من طريدة الماء. لا، بالتأكيد لم تسمع الماء وإلا لكانت تذكرت ذلك. كانت على يقين تقريباً من أنها لم تسمع كذلك طرطقة باب. إذاً ماذا كان يفعل في المدخل؟

وفجأة، انجلى الأمر لها تماماً: لم تكن شهادة المهندس لوحدها كافية لإيقاعها في الفخ.. وإنما يجب إعطاؤهم دليلاً قاطعاً. فخلال هذا الغياب الطويل المشبوه ذهب المهندس ليضع كاميرا في المدخل. أو بشكل أفضل، من المحتمل أن يكون قد أدخل شخصاً يحمل آلة تصوير فاختبأ خلف الستارة وقام بتصويرهما.

منذ أسابيع قليلة كانت متعجبة من أن بروشازكا لم يكن يعرف أنه يعيش في معسكر اعتقال لا مكان للمرء فيه لأن تكون له حياة خاصة. لكن ماذا عنها هي؟ عندما رحلت عن بيت أمها، اعتقدت لسذاجتها أنها أصبحت من الآن فصاعداً سيدة حياتها الخاصة. ولكن البيت الأمومي كان يمتد ليطال العالم كله ويُدركها في كل مكان. كانت تيريزا غير قادرة على الإفلات منه أينما ذهبت.

نزلا الدرج وسط الحدائق ليبلغا الساحة حتى أوقفا السيارة.

«ما بكِ»، سألها توماس.

وقبل أن يتسنّى لها الوقت للإجابة، ألقى أحدهم التحية على توماس.

27

كان الرجل فلاحاً في الخمسين غضّنت الريح وجهه. وكان توماس قد أجرى له عملية من زمان. ومنذ ذلك الوقت وهم يرسلونه كل سنة للاستشفاء في منطقة مياه معدنية. دعا توماس وتيريزا لشرب كأس. وبما أن الكلاب غير مسموحٍ بها في الأماكن العامة، ذهبت تيريزا إذاً لتضع كارينين في السيارة. في خلال هذا الوقت جلس الرجلان في المقهى لانتظارها. عندما رجعت كان الفلاح يقول: «عندنا، كل شيء هادىء. حتّى أنهم انتخبوني رئيساً للتعاونية من سنتين».

قال توماس: «تهانينا».

ــ «كما تعرفون، هنالك الريف، والجميع يغادرونه. وفي الجبال، يعتبرون أنفسهم محظوظين فيما لو قبل أحد بالبقاء عندهم. ليس في إمكانهم السماح لأنفسهم بطردنا من عملنا».

قالت تيريزا: «سيكون إذاً المكان الأمثل لنا».

ــ «ولكنكِ هناك ستضجرين يا سيدتي الصغيرة.. هناك لا شيء، لا شيء إطلاقاً».

كانت تيريزا تنظر إلى الوجه الذي غضنته الريح. كانت تستلطف كثيراً هذا الفلاح. وأخيراً وبعد وقت طويل، وجدت أحداً ما تستلطفه! وللحال انبثقت لوحة ريفية أمام نظرها: قرية وقبة جرس وحقول وغابات وأرنب بري ينسحب مسرعاً من أحد الأثلام وخفير للصيد لابس لبدة خضراء. لم يسبق لها أن عاشت في الريف. كان الريف صورة رسمها خيالها من خلال الأحاديث أو من خلال قراءاتها. أو ربّما حفرها أجداد بعيدون في شعورها الباطن. ومع ذلك فإن هذه الصورة كانت واضحة في داخلها ونقية مثل صورة أم الجدة في ألبوم عائلي أو مثل محفورةٍ قديمة.

سأل توماس: هـل ما زلت تشعر بالألم؟

فدَلّه الفلاح على موضـع خلف عنقه حيث تتصـل الجمجمة بـالعمود الفقري وقال: أشعـر أحياناً بألم في هذا المكان.

تحسس توماس المكان الذي أشار إليه مريضه القـديم، دون أن ينهض عن كرسيه، طارحاً عليه بعض الأسئلة. ثم قال: «لم يعـد يحق لي أن أكتب لك وصفات. ولكن عند عودتك قل لطبيبك إنك تحدثت معي وإنني أمـرتك بأن تأخذ هذا الدواء». ثم أخرج مذكرته من جيبه الداخلي وانتزع ورقة منها، ثم كتب عليها اسم الدواء بأحرف كبيرة.

28

كانا يسيران باتجاه براغ.

كـانت تيريـزا تفكر في الصـورة حيث كان جسـدها عـاريـاً بين ذراعي المهنـدس. فبدأت تحـاول أن تتحرّر من قلقهـا: حتى ولـو سلّمت بـأن هـذه الصـورة موجـودة فعلاً، فلن تتسنّى لتـوماس رؤيتهـا. لأن الصـورة لا تخـدم هؤلاء الناس في شيء إلا إذا استعملوها كـورقة ابتـزاز لتيريـزا. مما يعني أن هذه الصورة إن أرسلت إلى توماس تفقد كل قيمتها في الحال.

ولكن ماذا سيحدث لو أن الشرطيين قرروا ألا يهتموا لأمر تيريزا مطلقاً؟ في هـذه الحالـة، ستصير الصـورة وسيلة جيـدة للمـزاح. وإن عنَّ على بـال أحدهم وضعها في ظرف وإرسالهـا على سبيل الضحـك إلى عنوان تـوماس، فلن يمنعه أحد من ذلك.

وماذا سيحصل لو أن تومـاس استلم مثل هـذه الصورة. هـل سيطردهـا خارجاً؟ ربما لا. أو على الأصح لا. ولكن صـرح حبهما الهش سـوف ينهار تمـاماً لأنـه مرتكـز على العمود الـوحيد لـوفائهـا. وعلاقـات الحب هي مثـل الأمبراطوريات، ما أن يختفي المبدأ الذي بُنيت على أساسه حتى تختفي معه أيضاً.

كانت هناك صورة ماثلة أمام عينيها: صورة الأرنب البري وهـو ينسحب مسرعاً من ثلم وخفير صيد بلبدة خضراء وجرس كنيسة في أعلى الغابة.

كـانت تود أن تقـول لتومـاس بأن عليهمـا ترك بـراغ بعيداً، بعيـداً عن الأطفـال الذين يـدفنون طيـور الزاغ أحيـاء، بعيداً عن الشـرطـة، بعيـداً عن الفتيات المسلّحات بالمظلاّت. كانت تود أن تقول له إنه يجب عليها الانتقـال للعيش في الريف، وإن في هذا طريق خلاصهما الوحيد.

التفتت نحوه. ولكن توماس كان صـامتاً وعينـاه شاخصتـان إلى الطريق المكدّم الممتد أمـامه. . كـانت عاجـزة عن اختراق سـور الصمت الذي يعلو بينهما. وفي الحالة نفسها عندما كانت تنزل من «مون ـ دو ـ بيير» من جديد: كانت تشعر بتشنج في معدتها وبرغبة في التقيؤ. كان توماس يثير فيها الذعر فهو أقوى منها بكثير وهي أضعف منه بكثير. وكان يملي عليها أوامر لا تفهمهـا. وهي تحاول جاهدة تنفيذها ولكنها لم تكن تعرف كيف تتصرف.

كانت تريد الرجوع إلى «مون ـ دو ـ بيير» والطلب من الـرجل صـاحب البنـدقية أن يسمـح لها بعصب عينيهـا، والاستناد إلى جـذع شجرة الكستنـاء كانت راغبة في الموت.

29

استيقظَتْ فوجدَت أنها لوحدها في البيت.

خرجت ومشت باتجاه الشوارع التي تحاذي نهر الفلتـافا. كـانت راغبة في رؤية النهر والتـوقف عند الضفة والنـظر طويـلاً إلى الماء. لأن رؤيـة الماء الجـاري تهدّىء وتُشفي. النهـر يجري عبـر القرون وقصص النـاس لا تنفـك تحدث على ضفافه، ولكنها مـا أن تحدث لتُنسى في الـغـد والنهـر لا يتوقف عن الجريان.

كانت تنظر إلى الأسفل متكئة إلى الدرابزين. كـانت هذه أطـراف براغ حين يجتاز النهر المدينة تاركاً وراءه روعـة «هرادشين» والكنـائس: كان النهـر

هناك يشبه ممثلة بعد انتهاء المسرحية منهكة من التعب وساهمة البال. كـانت المياه تسيل وسط ضفاف متسخة محاطة بأسياج وبحيطان توجد خلفها مصانع وملاعب مهجورة.

نظرت طويـلاً إلى الماء الـذي يبدو في هـذا المكان أكثـر حزنـاً وأكثر قتامة. ثم لمحت فجأة شيئاً غريباً وسط النهر، أحمر، نعم، إنه مقعد. مقعد خشبي أرجله معدنية كتلك المقـاعد التي يـوجد منهـا بكثرة في حـدائق براغ العامة. كان يعوم ببطء في وسط نهر الفلتاڤا ويعوم خلفه مقعد ثـانٍ، ثم مقعد ثالث ومقعد رابع. ففهمت تيريزا أخيراً أنها كانت ترى مقاعد الحدائق العـامة في براغ تغادر المدينة منجـرفة مـع تيار المـاء. كان هنـاك الكثير منهـا ودائماً بتزايد. كانت تسبح فوق الماء مثل أوراق الخريف حين تحملهـا المياه بعيـداً عن الغابات. كان منها الأحمر والأصفر والأزرق.

استدارت علّها تسأل الناس ما معنى الذي يجري. تسألهم لمـاذا كانت مقاعد الحدائق العامـة في براغ تغـادر مع التيـار؟ ولكن الناس كـانوا يمـرون أمامها لا مبالين. فسيّان عندهم أن يجري النهر عبر القرون في وسط مدينتهم الزائلة.

أخذت تتأمل الماء من جـديد. كـانت تشعر بحـزن لا متناهٍ وتـدرك أن هذا المشهد كان بمثابة وداع، وداع من الحياة التي تغادر مع موكب ألوانها.

كـانت المقاعـد قد تـوارت عن مدى رؤيتهـا. لكنها رأت أيضـاً بضعـة مقاعد أخيرة متخلفة عن الأخرى. ثم رأت أيضاً مقعداً أصفر وواحـداً أزرق، كان الأخير.

الخفة والثقل

1

عندما جاءت تيريزا إلى عند توماس في براغ، على غير انتظار، كانت قد مارست الحب للحال في اليوم نفسه، كما سبق أن قلت في القسم الأول، ولكنها فيما بعد أصابتها الحمى. كانت ممدَّدة على سريره وكان جالساً قربها وهو مقتنع بأنها طفل وضع في سلة وأُرسل على مجرى المياه.

ومنذ ذلك الحين وهو يهوى صورة الولد اللقيط هذه، ويفكر دائماً بالخرافات القديمة التي تظهر فيها هذه الصورة. ربّما هنا يكمن الحافز الخفي الذي دفعه إلى الذهاب للتفتيش عن ترجمة «أُوديب» لسوفوكل.

قصة «أُوديب» معروفة جداً: ومفادها أنّ راعياً عثر على لقيط رضيع فحمله إلى الملك بوليب فاحتضنه. عندما كبر «أُوديب» صادف على درب جبلية عربة كان يسافر فيها أمير مجهول. فتخاصما وقتل «أُوديب» الأمير. فيما بعد، تزوج من الملكة جوكاست وأصبح ملكاً على «الثيب». لم يكن يعلم أنّ الرجل الذي قتله في الماضي في الجبال كان أباه وأن المرأة التي يضاجعها كانت أمه. في غضون ذلك، كانت المصائب تنزل بأبناء رعيته وتثقل كاهلهم بالأمراض. وعندما فهم «أُوديب» أنه كان هو نفسه المسؤول عن عذاباتهم، فقأ عينيه بالدبابيس وغادر «الثيب» إلى الأبد.

2

هؤلاء الذين يعتقدون أن الأنظمة الشيوعية في أوروبا الشرقية هي فقط من اختراع مجرمين، فإنهم يغفلون حقيقة أساسية: الأنظمة المجرمة لم ينشئها أناس مجرمون وإنما أناس متحمسون ومُقتنعون بأنهم وجدوا الطريق

الوحيد الذي يؤدي إلى الجنة. فأخذوا يدافعون ببسالة عن هذا الطريق، ومن أجل هذا قاموا بإعدام الكثيرين. ثم، فيما بعد، أصبح جليّاً وواضحاً أكثر من النهار، أن الجنة ليست موجودة وأن المتحمسين كانوا إذاً مجرد سفّاحين.

عندها، أخذ كل واحد يقوم بمهاجمة الشيوعيين قائلاً: «أنتم المسؤولون عن مصائب هذا البلد (فهو معوزٌ ومفلس) وعن خسارته لاستقلاله (فهو واقع تحت سيطرة الروس) وعن الاغتيالات القضائية!».

أما المتَّهمون فكانوا يجيبون: لم نكن عارفين! لقد خُدعنا! كنا مؤمنين بالقضية! نحن أبرياء في قرارة قلوبنا.

كان الجدال يتمحور حول هذا السؤال: هل كان صحيحاً أنهم لم يكونوا عارفين؟ أم أنهم كانوا يتظاهرون فقط بأنهم غير عارفين؟

كان توماس يتابع هذا الجدال (كمثل حال عشرة ملايين من التشيكيين) وكان يفكر بأنه يوجد بالتأكيد بين الشيوعيين أُناس لم يكونوا على أية حال جاهلين إلى هذا الحد (كان يفترض بهم على الأقل أن يكونوا قد سمعوا الكلام على الفظائع التي ارتكبت والتي لا تزال تُرتكب في روسيا ما بعد الثورة). ولكن كان من المحتمل أيضاً ألا تكون أغلبيتهم مطّلعة فعلاً على مجريات الأمور.

وكان يفكر أن السؤال الأساسي ليس: هل كانوا عارفين؟ بل: هل هم أبرياء لأنهم غير عارفين؟ إن غبياً جالساً على العرش، أهو منزّه عن كل مسؤولية فقط لأنه غبي؟.

فلنُسلّم جدلاً بأن القاضي التشيكي الذي كان يطالب، في بداية الخمسينات، بعقوبة الإعدام لرجل بريء، لنُسلّم أنه كان مخدوعاً من الشرطة الروسية السرية ومن نظام بلاده. ولكن الآن، قد عرف الجميع أن التهم باطلة وأن المحكومين أبرياء، كيف بإمكان القاضي نفسه أن يحتشد للدفاع عن براءة ذمته وأن يلطم صدره قائلاً: ضميري لا تشوبه شائبة، لم أكن أعرف هكذا كنت أعتقد! ولكن ألا تكمن غلطته التي تعوّض هنا بقوله: «لم أكن عارفاً، هكذا كنت أعتقد!»؟.

عندها تـذكر تـوماس حكـاية أُوديب. أُوديب أيضـاً لم يكن عارفـاً بأنـه يضاجع أمـه، ومع ذلـك فإنـه عندمـا عرف بـالأمر لم يجـد نفسه بـريئاً. ولم يستـطع تحمل مشهـد الشقاء الـذي سببه جهله ففقـأ عينيه وغـادر «ثيب» وهو أعمى.

كـان تومـاس يسمع زعيق الشيـوعيين وهم يدافعـون عن بـراءة ذمتهم، ويفكر: بسبب جهلكم فقد هـذا البلد حريته لقـرون عديـدة مقبلة وتزعقـون قـائلين بأنكم أبـريـاء؟ كيف تجـرؤون بعـد على النـظر حواليكم؟ كيف، ألم تصابوا بالهلع؟ أو لا عيون لديكم لتبصروا! لو كانت عندكم عيون حقـاً لكنتم فقأتموها وغادرتم «ثيب»!

كانت هذه المقارنة تروق له إلى حد أنه كان يستعملها مراراً في أحاديثه مع أصدقائه، وكان يعبّر عنها بعبارات أكثر لذعاً وأكثر فصاحة.

كان يقرأ في تلك الفترة، مثل كل المثقفين، مجلة أسبوعية يطبـع منها ثلاثمائة نسخة وينشرها اتحاد الكتّاب التشيكيين الـذي اكتسب استقلالاً ذاتيـاً لا يستهان به في ظلال النظام والذي كان يتكلم أشياء لا يجرؤ الآخرون على التفوّه بها علانية. كانت المجلة الخاصة بهؤلاء الكتّاب تنشر مقالات يسـألون فيها أسئلة على نمط «من هو المذنب، أو إلى أي حدّ ارتكبت جرائم قضائية خلال المحاكمات السياسية في السنوات الأولى للنظام الشيوعي»؟

كان السؤال ذاته يتكرر دائماً في كل هذه المجـادلات وهو: هـل كانـوا عارفين أم لم يكونوا عارفين؟ وبما أن توماس كان يعتبر هـذه المسألـة ثانـوية، كتب في ذات يوم خواطـره عن أُوديب وأرسلها إلى المجلة الأسبـوعية. بعـد شهـر تلقى جـوابـاً من مسؤولي المجلة يتـوسلون إليــه فيـه أن يمــر بمكتب التحرير. وعندما ذهب إلى هنـاك، استقبله صحافي قصيـر القامـة وفي غايـة الاستقامة. ثم اقترح عليه أن يغيّـر من تركيبـة إحدى الجمـل. وظهر المقـال فيما بعد في الصفحة ما قبل الأخيرة في زاوية «رسائل القراء».

لم يكن توماس راضياً إطلاقاً عن المقال. كانوا قد ارتأوا استدعاءه إلى المجلة لكي يجعلوه يـوافق على تغييـر في تـركيبـة إحـدى الجمـل، ولكنهم

اقتطعوا جزءاً كبيراً من المقال، فصارت خواطره تقتصر على فكرة رئيسية (مبسطة أكثر مما ينبغي وتعسفية) ولم تعد تعجبه إطلاقاً.

حدث ذلك أثناء ربيع ١٩٦٨. كان ألكسندر دوبتشك مستلماً سدة الحكم ومحاطاً بالشيوعيين الذين كانوا يحسون أنهم مذنبون ومستعدون لعمل شيء ما من أجل إصلاح خطئهم. ولكن الشيوعيين الآخرين الذين كانوا يزعقون بأنهم أبرياء، كانوا خائفين من أن يحيلهم الشعب الغاضب إلى المحاكمة. وكانوا يذهبون كل يوم ليشكوا أمرهم إلى السفير الروسي ويستمنحوا دعمه. وعندما نُشرت رسالة توماس، أطلق هؤلاء الصرخة: هل وصل الأمر إلى هذا الحد! يتجرأون على الكتابة علانية يجب فقء عيوننا!

بعد شهرين أو ثلاثة قرر الروس عدم السماح بالجدال الحرّ في أريافهم واحتل جيشهم في غضون ليلة واحدة بلد توماس.

3

كان توماس بعد رجوعه من زوريخ قد وجد وظيفة له في المستشفى نفسه الذي كان يعمل فيه في براغ. ولكن، بعد قليل من الوقت استدعاه رئيس القسم.

قال له: «يا زميلي العزيز، في النتيجة أنت لست كاتباً ولا صحافياً ولا منقذ الشعب، بل أنت طبيب ورجل علم. وأنا لا أود أن أخسرك وسأفعل كل ما في وسعي للاحتفاظ بك هنا. ولكني أرى أنه يجب أن ترجع عن هذا المقال الذي كتبته بخصوص «أوديب». هل أنت متمسك به إلى حد بعيد؟

فقال توماس وهو يتذكر أن ثلث نصه قد اقتُطع: «أستاذي، إنه آخر شيء يمكن أن أتمسك به في هذا العالم».

قال رئيس القسم: «هل لديك فكرة عن مجريات الأمور؟».

كان يدرك أن هناك أمرين في الميزان: من جهة شرفه (الذي كان يقضي بألا يتراجع عما كتبه) ومن جهة ثانية هناك الأمر الذي تعوّد على اعتباره هدف حياته (أي عمله كرجل علمي وكطبيب).

أردف رئيس القسم: «تلك عادة قروسطية أن نفرض على رجل ما أن يرجع عن كلامه. لكن ماذا تعني عبارة «رجع عن كلامه»؟ في أيامنا هذه، ليس في إمكاننا أن نرجع عن قول فكرة، بل في إمكاننا فقط أن ننقضها من الأساس. وبما أن الرجوع عن الكلام أمر مستحيل يا زميلي العزيز، لا بل كلاميّ بحث وشكلي ووهمي وسحري، فإنّي لا أفهم لماذا لا تنفذ لهم ما يطلبون منك. ففي مجتمع يحكمه الإرهاب، ما فائدة البيانات وهي مبتزة إكراهاً! لذلك يجدر برجل شريف ألّا يعيرها اهتماماً وألّا يصغي إليها. أقول لك ذلك يا زميلي العزيز من أجل مصلحتي ومصلحة مرضاك. يجب أن تبقى في وظيفتك».

فقال توماس والتعاسة تبدو على وجهه: «أستاذي، من المؤكد أنك محق في ما تقول».

ـ «ولكن؟» قال رئيس القسم وهو يجهد لقراءة أفكاره.

ـ «أنا خائف من أن أشعر بالخجل؟».

ـ لكن مِنْ مَن؟ أتولي اعتباراً كبيراً للناس الذين يحيطون بك حتى تهتم لما يفكرون؟

ـ لا، قال توماس. لا أولي اعتباراً كبيراً للناس.

أضاف رئيس القسم: «على كل حال، لقد أكّدوا لي أن الإفادة لن تكون علنية. فهُم بيروقراطيون ويحتاجون لأن يضعوا في ملفّاتهم شيئاً يثبت أنك لست ضد النظام. وهذا ليتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم في حال أُخِذَ عليهم إبقاؤك في وظيفتك. لقد وعدوني بأن تبقى إفادتك سراً بينك وبين السلطات، دون أن تكون لهم نية في نشرها».

فقال توماس مُنهياً الحديث: «أعطني مهلة أسبوع لأفكر».

4

كان توماس يُعدّ أفضل جرّاح في المستشفى. وكان يُشاع حينها أن

رئيس الخدمة الذي كان يقترب من سن التقاعد، سيترك له منصبه عما قريب. وعندما سرى الخبر بأن السلطات العليا كانت تفرض عليه تقديم إفادة نقد ذاتية، لم يشك أحد في أنه سيمتثل للأمر.

وهذا أول أمر فاجأه: أن يراهن الجميع على عدم استقامته مع أنه لم يقم بشيء يبرهن على صحة هذا الافتراض، بدلَ أن يراهنوا على استقامته.

والشيء الآخر هو ردة فعلهم أمام تصرفه المفترض. ويمكنني بالإجمال أن أقسم ردة الفعل إلى فئتين:

فالنموذج الأول لردّة الفعل يتضمن هؤلاء الذين كانوا هم أنفسهم (هم أو أقاربهم) قد تنكّروا لشيء ما، والذين أُجبروا على التصريح علانية أنهم على وفاق مع نظام الاحتلال، أو هؤلاء الذين كانوا يتحضرون للقيام بذلك (على مضض طبعاً، لأن لا أحد يقوم بذلك عن طيبة خاطر).

كان هؤلاء الناس بالذات يوجهون إليه ابتسامة غريبة لم يكن له عهد بها من قبل: الابتسامة الخجولة لتواطؤ سري، كمثل ابتسامة رجلَيْن يتلاقيان صدفة في المبغى فيعتريهما في البداية شعور بالخجل. ولكنهما فيما بعد يُسرّان لكون شعورهما بالخجل متبادلاً، فينشأ بينهما ما يسمّى رابطاً أخوياً.

وكانوا يبتسمون له بتحبب متزايد لا سيما وأنه لم يكن يُعدّ امتثالياً في وقت من الأوقات. لذلك، ستكون موافقته المفترضة على عرض رئيس القسم شاهداً على أن الجبن آخذ في أن يتحول ببطء ولكن بِيَقين إلى عادة في السلوك. وسيكف في وقت قصير عن أن يُحسب كذلك. فأدرك توماس بشيء من الهلع أنه لو كتب حقاً هذه الإفادة التي يملونها عليه، لا شك في أنهم عندئذ سيدعونه لتناول كأس في بيوتهم وسيسعون إلى اكتساب صداقته.

أما النموذج الثاني لردة الفعل فيتضمن هؤلاء الذين كانوا هم أنفسهم (هم أو أقاربهم) مضطهدين والذين كانوا يرفضون الموافقة على أية مساومة مع السلطة المحتلة، أو هؤلاء الذين لم يكن أحد ليطالبهم بمساومة أو بإفادة (ربما لأنهم كانوا أحداثاً ولم يكونوا بعد قد تورّطوا في شيء) لأن لا أحد كان مقتنعاً بأنهم سيقبلون بذلك.

س. . . هـو أحد هؤلاء وهـو طبيب شاب ومتفـوق فضلاً عن ذلـك. . سأل توماس ذات يوم: «ماذا، هل كتبت لهم «ذاك الشيء؟»».

ـ «عمّ تتكلم، لو سمحت؟».

ـ «عن رجـوعك عمـا قلتـه»، قـال س. . . ولم يكن يقـول ذلـك عن خبث بل حتى كان مبتسمـاً. وكانت هـذه 'لابتسامـة مختلفة تمـاماً عن أنـواع الابتسامات الأخرى، ابتسامة الفوقية الأخلاقية الراضية عن نفسها.

قال توماس: «إسمع، ماذا تعرف بشـأن إفادة الـرجوع عمـا قلته؟ هـل قرأتها؟

ـ «لا»، أجاب س. . .

فقال توماس: «ماذا تقول إذاً؟».

كان س. . . يبتسم الابتسامة الراضية نفسها: «هيا، نعرف كيف تجري الأمـور. فهذه الإفـادات تكتب على شكل رسـالة مـوجهة إلى المـدير أو إلى الوزير أو إلى تارتمبيون الـذي يَعِدُ بـأن الرسـالة لن تُنشـر كي لا يشعر كـاتبها بالمذلة. هذه هي الحال، أليس كذلك؟».

رفع توماس كتفيه مستهزئاً وانتظر أن يُكمل.

«وبعـد ذلـك، تُوضـع الإفــادة في الملف، ولكن كـاتبهـا يعـرف أن بإمكانهم أن ينشروها في أية لحظة. من هنا، فإنـه لن يعود بـإمكانـه أن يقول شيئاً ولا أن ينتقد أي أمر ولا أن يعارض، لأنّ إفادته ستنشر حينئذ وسيُفْتَضـح أمره أمام الجميع. وفي نهاية الأمر، إنهـا طريقـة لطيفـة نوعـاً ما. فبـالإمكان تصور طرقٍ أسوأ منها بكثير.

قال توماس: «أجل، تلك طريقة لـطيفة جـداً. ولكني متحرّق لأعـرف من قال لك أنني وافقْتُ».

رفع الزميل كتفيه هازئاً ولكن الابتسامة لم تتلاشَ عن وجهه.

فَفَهِم تـوماس أمـراً غريبـاً. لقد كـان «الجميـع» يبتسمـون لـه، وكـان «الجميع» يتمنون أن يكتب إفادته، لأنه لو رجع عن كلامـه فسيُدخـل السرور

إلى قلوب الجميع. كان بعضهم مغتبطين لأنّ تضخم الجُبن يعمّم سلوكهم الخاص ويُرجع لهم الشرف المفقود. وكان آخرون قد اعتادوا على أن يجدوا شرفهم امتيازاً خاصاً لا ينوون التخلي عنه مطلقاً. لذلك، فإنهم يكنّون للجبناء محبة سرية، فلولاهم لما كانت شجاعتهم إلا مجرد جهدٍ غير مجدٍ وغير مثير للإعجاب.

لم يكن توماس قادراً على تحمل هذه الابتسامات، وكان يتخيل أنها تلاحقه في كل مكان، وحتى على وجوه المارّة المجهولين في الشارع. كما وأنه لم يعد قادراً على النوم. ماذا؟ هل كان يعير هؤلاء الناس أهمية إلى هذا الحد؟ إطلاقاً. فهو لم يكن يبالي بأمرهم وكان يأخذ على نفسه أنه سمح لنظراتهم بأن تشوّش على أفكاره. فهل يمكن لمن كان لا يقيم أي اعتبار للآخرين أن يجعل مصيره مرتبطاً إلى حدٍ بعيد بحكمهم عليه؟

ربما ارتيابه المتأصّل بالناس (أي شكه فيما يختص بحقهم في تقرير مصيره أو الحكم عليه) قد لعب دوراً في اختياره لمهنة تُثنيه عن أن يكون قبلة الأنظار. فذلك الذي يختار مثلاً مهنة الرجل السياسي يجعل عن طواعية من الجمهور حكماً له مؤمِناً إيماناً ساذجاً وصريحاً بأن عليه أن يكسب ودّه. وكما أنّ احتمال معاداة الجموع له يحثه بالتالي على القيام بمآثر أكثر فأكثر تطلباً، كذلك فإن صعوبة تشخيص مرض ما تثير توماس بالطريقة نفسها.

إن الطبيب (بخلاف الرجل السياسي أو الممثل) لا يحكم عليه إلا مرضاه وزملاؤه المقربون، وهؤلاء يحكمون عليه مباشرة وصراحة ودون وسائط وبين أربعة حيطان. وهو يمكنه، في مواجهته لعيون هؤلاء الذين يحكمون عليه، أن يردّ مباشرة وأن يوضح رأيه مدافعاً عن نفسه. ولكن توماس الآن (وللمرة الأولى في حياته) كان يجد نفسه محط أنظار كثيرة لا عدَّ لها ولا يستطيع إحصاءها. وهو حيالها لم يكن يستطيع أن يرد لا بنظراته ولا بكلمات، بل كان متروكاً تحت رحمتها. كانوا يتحدثون عنه في كل مكان، في المستشفى وخارج المستشفى (فَبْراغ كانت تعيش على أعصابها، وكانت أخبار هؤلاء الذين يستسلمون ويَشون ويتعاونون مع النظام تنتشر بسرعة مدهشة مشابهة لسرعة مطنطنة أفريقية)، وكان يعرف هذا الأمر دون أن

يستطيع القيام بشيء حياله. كان هو نفسه مدهوشاً من رؤيته إلى أي حدّ كان هذا غير محتمل، وفي أي ذعر كان يغرقه. كان الاهتمام الذي يوليه إياه الجميع يجعله معتكر المزاج كمثل تدافع حشود أو كمثل التلامس مع أشخاص يقتلعون لنا ثيابنا في كابوس.

ذهب للقاء رئيس القسم وأبلغه أنه لن يوقّع على شيء.

شدّ رئيس القسم على يده بقوة أكبر من المعتاد بكثير، وقال إنه كان يتوقع أن يتخذ هذا القرار.

فقال توماس: «أستاذي، ربما بإمكانك أن تُبقيني في عملي حتى ولو لم أعطِ إفادتي». وكأنه كان يود أن يلمح له بأنه يكفي، في حال أُجبر على الرحيل، أن يهدد جميع زملائه بتقديم استقالاتهم.

ولكن أحداً لم يفكر بالتلويح باستقالته. مما اضطُرّ توماس بعد ذلك بوقت قصير، (شدَّ رئيس القسم على يده بقوة أكبر ممّا في المرة السابقة، إلى درجة أن جلد يده صار مزرقاً) إلى ترك منصبه في المستشفى.

5

وجد، أوّل الأمر، عملاً له في عيادة ريفية تقع على بُعد أربعة وعشرين كيلومتراً من براغ. كان يذهب إليها كل يوم في القطار ويعود منهكاً من التعب. ثم بعد مرور سنة، وُفِّق إلى إيجاد عمل له أكثر راحة ولكن غير هام البتة، في مستوصف في الضواحي. هناك، لم يعد يستطيع أن يكرّس نفسه للجراحة بل كان يعمل بصفته طبيباً عاماً. كانت صالة الانتظار تكتظ بالمرضى، وكان بالكاد يستطيع أن يخصص خمس دقائق لكلّ مريض. كان يصف لهم حبوباً من الإسبيرين أو يكتب شهادات مَرَضيّة ليقدموها لأرباب عملهم، أو يرسلهم لمشاورة أطباء في الأقسام المختصة. وهكذا لم يعد يعتبر نفسه طبيباً بل موظفاً في مكتب.

ثم، في ذات يوم، وعند انتهاء الخدمة، جاء لزيارته رجل خمسيني كانت تمنحه سمنته مظهراً جدياً. عرّف الرجل عن نفسه بصفته رئيس مجلس

الإدارة في وزارة الداخلية. ثمَّ دعا توماس للجلوس في المقهى المقابل.

طلب قنينة نبيذ فاعترض توماس قائلاً: «أقود سيارة وإذا أوقفتني الشرطة، ستأخذ منّي رخصة السير». فابتسم عندها رجل وزارة الداخلية: «إذا حدث لك شيء، يمكن الاستشهاد بي»، ثم أعطى توماس بطاقة كتب عليها اسمه (المزيّف طبعاً) ورقم هاتف الوزارة.

ثم استفاض يشرح لتوماس عن مقدار الاحترام الذي يكنّه له. فالجميع في الوزارة ليسوا راضين على أن تقتصر مهمة جرّاح في مثل مكانته، على وصف حبوب للأسبيرين في مستوصف الضاحية. وأفهمه أيضاً بطريقة غير مباشرة بأن الشرطة، وإن لم تكن تستطيع التصريح عن ذلك، كانت تأسف أن يُطرد الاختصاصيون من مناصبهم بمثل هذه الوقاحة.

وبما أن زمناً طويلاً قد مرَّ ولم يسمع توماس أحداً يُحسن الثناء عليه، فإنه كان يستمع إذاً بانتباه كلي إلى الرجل القصير المتكرش، ويكتشف لدهشته أنه كان مطّلعاً كلّياً وبالتفاصيل على نجاحاته في حقل الجراحة لَكَم نحن ضعفاء أمام المديح! لم يكن في مستطاع توماس إلا أن يأخذ على محمل الجدّ ما كان يقوله رجل الوزارة.

ولكن ذلك لم يكن بسبب الغرور فقط بل لانعدام الخبرة خاصة. فَحين يجد المرء نفسه في حضرة شخص متودد ومراعٍ ومؤدّب، يصعب عليه كثيراً أن يُقنع نفسه في كل دقيقة بأن لا شيء مما كان يقوله صحيح، أو أن لا شيء حقيقي. ولكي ينجح في «ألّا يصدّق» (بطريقة مستمرة وجذرية ومن دون دقيقة تردد) يلزمه جهد خارق ودُربة أيضاً، أي محاضر استجواب بوليسية متكررة. وهذه الدربة بالذات هي التي كان يفتقر إليها توماس.

ثم تابع رجل الوزارة: «دكتور، نعرف أن مركزك كان رفيعاً في زوريخ. ونحن نقدر كثيراً رجوعك إلى هنا. تلك مبادرة جيدة من قبلك. فأنت تعرف أن مكانك هنا». ثم أضاف وكأنه يريد توجيه ملامة لتوماس: «ولكن مكانك الحقيقي في غرفة العمليات!».

فقال توماس: أشاطرك الرأي.

بعد صمت قليل، أردف الرجل بصوت يُدمي الفؤاد: «ولكن، قلْ لي يا دكتور، أفي اعتقادك حقاً أنه يجب فَقْءُ عيون الشيوعيين؟ ألا ترى أنه أمر مستغرب أن يكون هذا الكلام صادراً عنك أنت بالذات؟ أنت الذي أرجعْت العافية لأناس كثيرين؟

فاعترض توماس قائلاً: ولكن هذا لا معنى له. إقرأْ جيداً ما كتبتُ.

قال رجل الوزارة بلهجة تفتعل الأسف: «قرأْتُه».

ـ وهل عساي كتبت أنه يجب فقء عيون الشيوعيين؟

فقال رجل الوزارة وصوته يزداد تحسراً: «هذا ما فهمه الجميع».

ـ لو أنك قرأت النص كاملاً، كما كنت قد كتبته، لما أمكنك قط أن تفكّر بشيء مماثل. لقد اختُصر النص قليلاً..

فقال رجل الوزارة وقد أرهف السمع: «ماذا؟ ألم ينشروا مقالك كما كتبته؟

ـ اختصروا منه.

ـ كثيراً؟

ـ الثلث تقريباً.

كان رجل الوزارة يبدو وكأنّه صادق في سخطه: «واضحٌ أن هذا لم يكن نزيهاً من قِبلهم».

هزّ توماس كتفيه هازئاً.

ـ «كان يُفترض بك أن تدافع عن حقوقك! كان يُفترض بك أن تطالب فوراً بتصويبٍ ما!».

فقال توماس: ماذا تريدين أن أفعل! قَدِم الروس بعد ذلك بوقت قصير، فانشغل الجميع بهموم أخرى.

ـ لكن لماذا تجعل الآخرين يعتقدون بأن طبيباً في مكانتك يتمنّى أن

يفقد أناس معيّنون بصرهم؟

ـ لكنْ مهلاً! لقد ظهر مقالي في مكان ما في آخر المجلة وسط رسائل أخرى. وهو لم يثر انتباه أحد، إلا السفارة الروسية، طبعاً لأنه كان يلائمهم.

ـ لا تقل هذا يا دكتور! لقد تجادلت بنفسي مع أناس كثيرين حدثوني عن مقالك وكانوا كلهم مدهوشين من أن تكون قادراً على كتابته. ولكن، عندما قلت لي بأن مقالك لم ينشر بالضبط كما كتبته، صار كل شيء أكثر وضوحاً بالنسبة لي. هل أوحوا لك إذاً بكتابته؟

قال توماس: لا، أرسلته من تلقاء ذاتي.

ـ هل كنت على معرفة بهؤلاء الناس؟

ـ أيهم؟

ـ هؤلاء الذين نشروا مقالك.

ـ لا.

ـ ألم تكلمهم من قبل؟

ـ لم أرَهم سوى مرة واحدة. عندما طلبوا مني أن أمرّ بقسم التحرير.

ـ ولأي غرض؟

ـ بسبب ذاك المقال.

ـ ومع مَنْ تحدثتَ؟

ـ مع صحافي.

ـ وما كان اسمه؟

أدرك توماس أخيراً أن هذا كان استجواباً. فقال في نفسه إن كلمة واحدة يقولها يمكنها أن تضع أحدهم في خطر. كان يعرف بكل تأكيد اسم الصحافي ولكنه أنكر: «لا أعرف».

ـ فقال الرجل بنبرة مفعمة بالسخط على انعدام الصدق هذا: «ولكن

هيّا يا دكتور! يُفترض به أن يكون قد عرّف عن نفسه!».

إنه لمن المضحك ـ المبكي أن تصير أخلاقنا الحسنة بالتحديد في صالح الشرطة، والسبب أننا لم نتعلم الكذب. فصيغة الأمر: «قل الحقيقة!» التي رسّخها آباؤها وأمهاتنا في أذهاننا، تجعلنا نشعر بطريقةٍ آلية بالعار حين نكذب حتى ولو كنا أمام الشرطي الذي يستجوبنا. وإنه لأسهلَ علينا أن نتخاصم معه وأن نشتمه (وهذا لا معنى له) من أن نكذب عليه صراحة (فيما هذا هو الأمر الوحيد الذي يجدر القيام به).

عندما سمع توماس رجل الوزارة يأخذ عليه انعدام الصدق، أحسّ بأنه مذنب تقريباً. ووجب عليه أن يقهر جداراً أخلاقياً لكي يتمكن من الاستمرار في كذبه: «لا شك في أنه قد عرّف عن نفسه، ولكن بما أن اسمه لم يكن يعني لي شيئاً، فقد نسيته في الحال».

ــ كيف كان شكله؟

كان الصحافي الذي ذهب لمقابلته، آنذاك، قصير القامة. وكان شعره أشقر وقصيراً جداً ومنتصباً. فحاول توماس أن يجد صفات مناقضة له تماماً فقال: «كان طويل القامة وكان شعره طويلاً أسود».

قال رجل الوزارة: آه صحيح؟ وهل كانت ذقنه طويلة ومعقوفة؟

فقال توماس: أجل، تماماً.

ــ ومحني الظهر قليلاً؟

وردّد توماس مرة أخرى بعد أن فهم أن رجل الوزارة كان يشتبه بشخص ما: «أجل تماماً». إنّ توماس لم يشِ بصحافي تعيس فحسب بل إن وشايته كانت فوق ذلك كاذبة.

ــ «ولكن لماذا استدعاك؟ وعمَّ تحدثتم؟».

ــ كانوا يريدون أن أغيّر في تركيبة إحدى الجمل.

بدا هذا الجواب وكأنه ذريعة تافهة. فاغتاظ رجل الوزارة من جديد لأن

توماس يرفض أن يقول الحقيقة: «هيا يا دكتور! لقد أكّدت لتوّك بأنهم حذفوا من النص ثلثه، والآن تقول لي بأنكما تحدثتما بخصوص تغيير جملة! ألا ترى أن هذا ليس منطقياً البتّة!».

وجد توماس على الفور وبسهولة أكبر جواباً، والسبب أن ما قاله كان الحقيقة عينها فقال وهو يضحك: «هذا ليس منطقياً، ولكن هذا هو بالضبط ما حصل. لقد طلبوا مني أن أسمح لهم بالتغيير في تركيبة إحدى الجمل لكنهم فيما بعد اقتطعوا ثلث المقال».

من جديد هزَّ رجل الوزارة رأسه هازئاً وكأنه لم يكن في مستطاعه أن يستوعب تصرفاً لا أخلاقياً إلى هذا الحد، ثم قال: «لم يكن هؤلاء الناس نزيهين معك».

افرغ كأس النبيذ مستنتجاً: «دكتور، لقد كنت ضحية التلاعب إنه لأمر يدعو إلى الأسف أن تدفع الثمن أنت ومرضاك. نعرف تماماً ما تتحلى به من مزايا يا دكتور. وسنرى ما في وسعنا أن نفعل».

مدّ يده إلى توماس مصافحاً ثم استأذن بالانصراف بمحبة قلبية. ثم خرجا من المقهى وتوجّه كلّ منهما إلى سيارته.

6

عكّر هذا اللقاء من مزاج توماس. فهو كان يأخذ على نفسه استسلامه للنبرة الجذلى للحديث. ما دام قد قبل بالتحدث مع الشرطي (لم يكن مستعداً في الأساس لموقف كهذا ولم يكن عارفاً ماذا يبيح القانون وماذا يحظّر) كان يجدر به على الأقل أن يرفض الذهاب معه إلى المقهى ومشاركته في شرب كأس وكأنه يشارك صديقاً! ماذا لو رآه أحد ما، أحد يعرف ذلك الرجل! بالطبع سيكون على استعداد لأن يستنتج بأن توماس مستخدم لدى الشرطة! ثم لماذا قال لهذا الشرطي بأن مقاله قد اجتُزىء منه! لماذا أوقفه على هذا الخبر وليس هناك سبب يدعوه إلى ذلك؟ شعر عندها بأنه مستاء من نفسه كل الإستياء.

بعد مرور خمسة عشر يوماً، رجع رجل الوزارة. واقترح عليه الذهاب إلى المقهى المقابل كما في المرة السابقة. ولكن توماس فضّل البقاء في حجرة المعاينة.

فقال الآخر وهو يبتسم: «دكتور، أفهمك».

فصدمت توماس هذه الجملة. لأن رجل الوزارة كان يتكلم مثل لاعب شطرنج يؤكد لخصمه بأنه سجَّل خطأ في النقلة السابقة.

كانا جالسين على كرسيهما وجهاً لوجه تفصل بينهما طاولة توماس. ثم أخذا يتحدثان لمدة عشر دقائق عن انتشار وباء الزكام الذي كان يجتاح البلاد آنذاك. ثم قال الرجل: «لقد فكرنا في وضعك يا دكتور. لو كان الأمر يتعلق بك وحدك، لكانت الأمور أكثر سهولة. ولكن علينا أن نحسب حساباً للرأي العام. إن مقالك، شئت أم أبيت، ساهم في إحياء الهستيريا المعادية للشيوعية. ولا أخفيك القول إنهم أوحوا لنا بمقاضاتك بسبب هذا المقال. فهناك شرعة قانونية تتعلق بذلك ومفادها تحريض الشعب على أعمال العنف».

توقف رجل وزارة الداخلية للحظة محدّقاً في عيني توماس، فرفع توماس كتفيه هازئاً. ثم تكلّم الرجل بنبرة مطمئنة: «لقد تخلينا عن هذه الفكرة. أيّاً تكن مسؤوليتك فإن مصلحة المجتمع تقضي بأن تكون في المكان حيث يمكن أن توظّف قدراتك بالشكل الأفضل. رئيس قسمك القديم يقدرّك جلَّ تقدير كما وأننا سألنا عنك مرضاك. أنت اختصاصي كبير يا دكتور. لا يمكن لأحد أن يطالب طبيباً بأن يتعاطى السياسة. لقد جعلت من نفسك هزأة يا دكتور، وعليك أن تصلح الأمر. من أجل هذا نود أن نقترح عليك نصاً لإفادة لكي تضعها حسب رأينا في تصرف الصحافة. ثم بعد ذلك نبذل كل ما في وسعنا لكي تُنشر في الوقت المناسب». ثم مدّ ورقة إلى توماس.

وعندما قرأ توماس ما جاء فيها، أصيب بالذهول. كان الأمر أسوأ بكثير مما التمس منه رئيس قسمه القديم أن يفعل منذ سنتين. إذ لم تكن الإفادة

رجوعاً بسيطاً عن مقال «أُوديب»، بـل كانت تتضمن جمـلاً عن حبّه لـلاتحاد السوڤياتي ووفائه للحزب الشيوعي وتتضمن أيضاً اتهاماً للمثقفين الذين كانوا، حسب ما جاء في الإفادة يريدون أن يقودوا البلاد إلى الحرب الأهلية. ولكنها كـانت تتضمن على الأخص تشهيـراً بمحـرري المجلة الأسبـوعيـة الخـاصـة بالكتّاب وباسم الصحافي طويل القامة والمحني الـظهر (لم يكن تـوماس قـد قابله من قبل ولكنه كان يعرف اسمه، وقد شاهد صورته) الذي استغلّ توماس عن قصد فشوّه معنى المقال وجعل منه نداءً معادياً للثـورة. والسبب أن هؤلاء كـانوا، استنـاداً إلى مـا ورد في النص، أجبن من أن يكتبـوا بـأنفسهم مقـالاً مماثلاً مفضّلين الاختباء خلف طبيب ساذج.

كان رجل الوزارة يقرأ الهلع في عينيّ توماس. انحنى إلى الأمام وربَّت بمودة على ركبة توماس تحت الطاولة: «دكتـور، هذه مجـرد مسوّدة. ستفكـر مليّاً في الأمر وإذا ارتأيت أن تغيّر عبـارة أو أخرى فسيكـون بإمكـاننا التفـاهم بشأن ذلك، طبعاً. فالنص «نصّك» بعد كل حساب».

أعاد توماس الورقة إلى الشرطي وكأنه خاف أن يحتفظ بها في يده ثانية واحدة بعد. كان يتخيل، لوهلة، أنهم سيتحققون من بصمات أصابعه.

وبدل أن يستردّ رجل الوزارة الورقة، أبعد ذراعيه بدهشة مصطنعة (مثل إشارة البابا وهو يبارك الجموع من أعلى شـرفته) ثم قـال: «ولكن يا دكتـور، لماذا تعيدها إليّ؟ يجب أن تحتفظ بها لتفكر في الأمر مليّاً في البيت».

هزّ توماس رأسه نفياً، ثم أمسك الورقة بصبرٍ في يده الممـدودة. وكفّ رجل الوزارة عن تقليد البابا الأعظم وهو يبارك الجمـوع، واقتنع أخيـراً بأخـذ الورقة.

كان توماس يريد أن يقول له بلهجة حازمة إنه لن يكتب شيئاً ولن يـوقّع على شيء.. ولكنـه غيَّر لهجتـه في اللحظة الأخيـرة وقال بهـدوء: «أنا لست أميّاً. لماذا ينبغي علي أن أوقع على شيء لم أكتبه؟

ـ جيد جداً يا دكتور. يمكننا أن نسلك طريقاً معاكسـاً: تكتب في أول الأمر شيئاً بنفسك ومن ثمَّ نتباحث في شأنه سوية. أما الورقة التي قرأتها الآن

فيمكنك على الأقل أن تستخدمها كنموذج».

لكنْ لماذا لم يرفض توماس حالاً وبشكل جذري اقتراح الشرطي؟.

لأنه اعتمد هذه الفكرة بأسرع ما يمكن: زدْ على أن إفاداتٍ من هذا النوع ترمي إلى إفساد أخلاق أمة بكاملها (فالتعبئة السوفياتية كانت تسير في هذا الاتجاه) فإن الشرطة كانت تلاحق في وضع كوضعه هدفاً محدداً: إذ ربما كانوا يستعدون لإقامة محاكمة ضد صحافيي المجلة الأسبوعية التي كان توماس بعث بمقاله لها. وفي هذه الحالة، ستكون إفادة توماس بمثابة وثيقة إثبات يستخدمونها في الحملة الصحافية التي ستُشنّ على الصحافيين المذكورين.. لو أنه رفض حالاً وبطريقة حازمة لا رجوع فيها، فهو سيخاطر إذاً بقيام الشرطة بنشر هذا النص المعدّ مسبقاً وترفقه بتوقيعه المزوّر. وعندها لن تنشر أية صحيفة إطلاقاً نفيه للخبر! ولن يصدق أحد من الناس أنه لم يكتب المقال بنفسه ولم يوقعه. ألم يسبق له أن فهم أن الناس هم شديدو التلذذ بتحقير الآخرين حتى يفسدوا هذه المتعة بالشروح والتفسيرات!

وإذا كان قد أعطى الشرطة أملاً بأنه سيكتب النص بنفسه، فهذا لكسب الوقت لأنه كتب رسالة استقالته في اليوم التالي. كان يَفترض (وافتراضه في محله) أنه فيما لو هبط عن عمد إلى أسفل درجة في السلم الاجتماعي (والتي تَوجّب حينها على آلاف المثقفين ومن مختلف الفئات، الهبوط إليها) فإن الشرطة لن يكون في مستطاعها أن تملك أي وسيلة للضغط عليه، فتكف عن الاهتمام بأمره. ولن يقدروا أيضاً على نشر إفادة تدعي أنها موقعة باسمه لأن الأمر ساعتَها لن يعود قابلاً للتصديق. والسبب أن الإفادات الدنيئة العلنية تترافق عادة مع ترقيات موقّعيها وليس مع تدنيهم.

ولكنّ الأطباء في بوهيميا هم مجرد موظفين وبإمكان الدولة تسريحهم من وظائفهم ساعة تشاء، ولكنها غير مضطرة إلى ذلك. حاول الموظف الذي قدّم له توماس استقالته أن يقنع توماس بالعدول عن ترك وظيفته. فهو كان مطّلعاً على شهرته ويحترمه. ففهم توماس فجأة بأنه غير واثق من أنه قام بالاختيار المناسب. ولكنه شعر مع ذلك بأنه ملتزم بقراره هذا وكأنه عهد على

الوفاء. فأصر عليه بعناد، وهكذا أصبح مُنظِّف زجاج.

7

لسنوات خَلَتْ، عندما كان توماس يقود سيارته من زوريخ إلى براغ، كان يردد قائلاً: «ليس من ذلك بدٌّ» وهو يفكر بحبه لتيريزا. وحين عبر الحدود ساوره الشك وبدأ يفكر فيما إذا كان قراره لا بدّ منه فعلاً: فَفَهِم حينئذٍ أن سلسلة الصدف التافهة التي حصلت قبل سبع سنوات هي التي دفعته باتجاه تيريزا (كانت هذه الصدف قد بدأت بمرض ألم عرق النَّسا الذي أصاب رئيس القسم) واقتادته إلى قفص لا وسيلة للفرار منه.

هل يجب الاستنتاج من هذا أنه لم يكن في حياته «ما ليس منه بدٌّ»، إنه لم يكن في حياته ما يُسمّى ضرورة قصوى؟ حسب رأيي، ثمة ضرورة قصوى في حياته. وهي لا تتمثل في الحب بل في المهنة. فالشيء الذي دفعه للطب لم يكن الصدفة ولا القرار المنطقي وإنما رغبة داخلية دفينة.

لو وُجدت وسيلة ما لتصنيف الكائنات إلى فئات فسيجري هذا التصنيف بالطبع وفقاً لتلك الرغبات الدفينة التي تقودهم باتجاه هذا النشاط أو ذاك، الذي يمارسونه طيلة حياتهم. فكل فرنسيّ مثلاً مختلف عن الآخر، ولكن جميع ممثلي العالم متشابهون سواء كانوا في باريس أم في براغ أم في المسرح الأكثر تواضعاً في أحد الأرياف. لأن الممثل هو ذاك الذي يقتنع منذ الطفولة بأن يقدم عروضاً أمام الجمهور المجهول. فمن دون هذه الموافقة الجوهرية التي لا علاقة لها بالموهبة، بل هي شيء أعمق من الموهبة، لا يمكن للواحد أن يصير ممثلاً. كذلك، فإن الطبيب هو ذلك الذي يقبل أن يكرس نفسه للجسد البشري متحملاً جميع العواقب، طيلة حياته. إن هذا العهد الأساسي (لا الموهبة أو البراعة) هو الذي يسمح له، في خلال سنته الدراسية الأولى، بالدخول إلى غرفة التشريح ليتخرجَ طبيباً بعد ذلك بست سنوات.

الجراحة ترفع المبدأ الإلزامي لمهنة الطب إلى حده الأقصى حيث يلامس البشريُّ الإلهيَّ. عندما يُضرَب أحدهم بعنف على جمجمته بالهراوة،

فإنه ينهار ويتوقف عن التنفس إلى الأبـد. ولكنَّه في جميـع الأحوال سيتـوقف يوماً عن التنفس. لا أهمية لهذه الجريمة سوى أنها عجّلت بما سيقوم بـه الله آجـلاً. فهو لم يكن يشـك في أن يجرؤ الإنسـان يـومـاً على إدخـال يـده في أحشـاء الجسم التي خلقها مغلّفـة بعنايـة بـالجلد ومختـومـة ومحجـوبـة عن الأنظار. عندما وضع تـوماس، لأول مـرة، المبضع على جلد مـريض خامـد تحت تأثير المخدّر وعندمـا شق هذا الجلد بضـربة قـوية محكمـة وفتّقه تبعـاً لخط مستقيم ودقيق (كـأنه قـطعة لحم ميّتـة أو كأنـه رداء أو تنـورة أو ستـارة) أحسّ حينئذ بشعور وجيـز لكن حاد وبـأنه يخـرق المقدسـات. وهذا الشعـور بالضبط كان يشـدّه في آن! هذه الضـرورة، هذا الـذي «لا بدّ منـه» المتجذر عميقـاً في داخله والـذي لم يـدفعه إليـه لا الصدفـة ولا ألم عرق النَّسـا الذي أصاب رئيس القسم، ولا أي شيء خارجي.

إذاً، كيف تمكن في هـذه الحالّـة من أن يتخلَّص بهذه السـرعة وبهـذا الإصرار وبهذه السهولة من شيء متجذر في أعماقه إلى هذا الحد؟

ربمـا سيكون جـوابه بـأنه تصـرّف على هذا النحـو ليمنع الشـرطـة من استغـلاله. ولكن، ولنكن صـريحين، حتى ولو كـان هـذا الأمـر ممكنـاً على الصعيد النظري (فهناك حالات من هـذا النوع حصلت فعـلاً) فإنـه قلَّما كـان محتملاً أن تقوم الشرطة بنشر إفادة مزورة مرفقة بتوقيعه.

من البديهي أن يملك الواحد منا الحق في أن يخاف حتى من المخاطر القليلة الاحتمال. فلنقبل بذلك. ولنسلِّم أيضاً بأنه كان غاضباً من نفسـه ومن رعونته بالذات وبأنه كان يريد أن يتحاشى علاقات جديدة مع الشرطة لا فائدة تُرجى منها سوى أنها تزيد من حـدة شعوره بـالضعف. ولنسلّم أيضاً بـأنه قـد خسر وظيفة فعـلاً من زمان لأن عمله الآلي في المستـوصف حيث كان يصف حبوباً من الأسبيرين لا علاقة له بـالفكرة التي كـان يكوّنهـا عن مهنة الـطب. ومع ذلك كله، فإن فجائيـة قراره قـد بدت لي غـريبة. ألا تـظنون معي أنهـا تخفي في طياتها شيئاً ما أكثر غموضاً، شيئاً يتعدى مجال تفكيره المنطقي؟

8

كان توماس قد شرع يحب بيتهوفن ليدخل السرور إلى قلب تيريزا. ولكنه لم يكن مولعاً بالموسيقى، لذا أشك في أن يكون عارفاً بالحكاية الحقيقية لِلاَزِمة بيتهوفن الشهيرة: «أليس من ذلك بدّ؟ ليس من ذلك بدّ».

لقد جرت الحكاية على هذا النحو: كان هناك رجل يدعى دمبشر وكان مديناً لبيتهوفن بخمسين فوراناً. وذات يوم جاء المؤلِّف الذي كان مفلساً باستمرار يطالب دمبشر بها، فتنهد هذا المسكين قائلاً: «أليس من ذلك بدّ؟» وردّ عليه بيتهوفن وهو يضحك من كل قلبه: «ليس من ذلك بدّ!». ثم دوّن هذه الكلمات مع أنغامها على مفكرة وألّف انطلاقاً من هذه اللاّزمة الواقعية قطعة صغيرة من أربعة أصوات: ثلاثة أصوات فيها تغني «ليس من ذلك بدّ، نعم، نعم، نعم». ويضيف الصوت الرابع: «أخرج صرّة نقودك!».

ثم، بعد أربع سنوات، أصبحت اللاّزمة ذاتها نواة العبارة الموسيقية الرابعة من الرباعية الأخيرة في مجموعة القطع الموسيقية رقم ١٣٥. لم يعد بيتهوفن يفكر إطلاقاً في صرّة نقود دمبشر. فصارت الكلمات «ليس من ذلك بدّ» تتخذ طابعاً احتفالياً متزايداً، وكأن القدر كان يتفوه بها شخصياً. في لغة «كانت»، حتى عبارة «صباح الخير» الملفوظة حسب الأصول ترتدي طابعاً ميتافيزيقياً. فاللغة الألمانية هي لغة الكلمات الثقيلة. «ليس من ذلك بدّ» لم تعد مجرد مزحة بل صارت «القرار المفكّر فيه بخطورة».

كان بيتهوفن قد حوّل إذاً إلهاماً فكهاً إلى رباعية جدية. ومزحة إلى حقيقة ميتافيزيقية. إنه لَمثَل هام على الانتقال من الخفيف إلى الثقيل (إذاً مثل على التبدل من الإيجابي إلى السلبي، حسب رأي بارمينيد). لكنّ الغريب في الأمر أن هذا التحوّل لا يفاجئنا. فلو أنَّ بيتهوفن انتقل من رباعيته الجدية إلى اتباع المزحة الخفيفة للأصوات الأربعة المتعلقة بصرّة نقود دمبشر، لكان الأمر يثير سخطنا. بيدَ أن بيتهوفن لو فعل ذلك لكان تصرف تماماً من وجهة نظر بارمينيد: لكان انتقل إذاً من الثقيل إلى الخفيف، ومن السلبي إلى الإيجابي! ففي البداية، ستكون هناك حقيقة ميتافيزيقية كبرى (تحت شكل عمل غير منجز) وفي النهاية مزحة ولا أخف! (على شكل

مقطوعة منجزة). ولكننا لم نعد نتقن التفكير مثل بارمينيد.

أعْتَقِدُ أنَّ توماس كان، في صميم أعماقه، حانقاً منذ زمن بعيد على نغمة «ليس من ذلك بدٌّ» لعدائيتها واحتفاليتها الصارمة. وكانت تراوده رغبة عميقة في أن يبدّل تمشياً مع وجهة نظر بارمينيد، الثقيل إلى خفيف. فلنتذكر بهذه المناسبة أن لحظة واحدة كانت كافية في السابق ليمتنع إلى الأبد عن رؤية زوجته وابنه. وأنه قد تلقّى بارتياح تام قطع علاقة والديه به. فهل كان الأمر شيئاً آخر سوى ضربة عنيفة وقلّما كانت منطقية، يدفع بها ما يَفرض نفسه عليه كمثل واجب ثقيل، كمثل «ليس من ذلك بدّ».

جلَيّ أن الأمر حينئذاك كان يتعلق بـ «ليس من ذلك بدّ» خارجي تمليه الأعراف الاجتماعية، فيما «ليس من ذلك بدّ» المتعلق بحبه للطب، فكان ضرورة داخلية. لذلك، فإن الأمر الآن كان أسوأ من السابق. لأن الضرورة الداخلية أكثر قوة وتحث بشكل أكثر عنفاً على التمرد.

أنْ يكون المرء جرّاحاً، فمعنى ذلك أن يَشرطَ ظاهر الأشياء ليرى ما الذي يختبىء داخلها. ربما هذه الرغبة هي التي حَدَتْ بتوماس للذهاب لرؤية «ما وراء» «الذي ليس منه بدّ». وبكلمة أخرى، للذهاب لرؤية ماذا يبقى من الحياة حين يتخلى الإنسان عن كل ما كان اعتبره حتى الآن رسالته.

بيد أنه، حين جاء للمثول أمام المديرة اللطيفة لمؤسسات تنظيف الزجاج والواجهات في براغ، بدت له نتيجة قراره فجأة في كامل حقيقتها فكاد يرتعب منها. وعاش في جو الرعب هذا، الأيام الأولى من تسلّمه وظيفته الجديدة. ولكن بعدها اجتاز (في خلال أسبوع تقريباً) الغرابة المخدّرة لحياته الجديدة، اكتشف أنّه كان يجد نفسه فجأة في عطلة طويلة الأمد.

كان يقوم بأعمال لا تعني له شيئاً وكان الأمر جميلاً. أخذ يتفهم شعور الناس (الذين كان دائماً يشعر بالشفقة حيالهم، حتى ذلك الحين) الذين يمارسون مهنة لم يدفعهم إليها «ما ليس منه بدّ»، بل يقدرون على نسيانها ما أن ينتهوا من عملهم. لم يكن قد عرف هذه اللاّمبالاة السعيدة من قبل. وهو من كان في السابق حين لا تنجح عملية جراحية كما يتمنى، يتملكه اليأس

ولا يعود قادراً على النوم، ويفقد شهيته للنساء حتى كان «ما ليس منه بدّ» المتعلق بمهنته أشبه بِعَلوق يمتص له دمه.

أما الآن، فها هو يجوب براغ حاملاً عصاه الطويلة التي ينظف بها الواجهات. كان متعجباً من اكتشافه أنه يحس نفسه أصغر بعشر سنوات. كانت بائعات المخازن الكبرى ينادينه بالدكتور (فالمطنطنة في براغ كانت تسير على الوجه الأكمل) ويستشرْنه بشأن زكامهن أو آلامهن الحقوية أو تأخر عادتهن الشهرية. كن يشعرن بالخجل وهن يرينه يرش الواجهات بالماء ومن ثم يُثبت فرشاة في نهاية عصاه ويشرع في التنظيف. لو كان في وسعهن ترك الزبائن في المخزن لكُنَّ بادرن إلى أخذ الفرشاة من يده وتنظيف ألواح الزجاج بدلاً عنه.

كان توماس يعمل بخاصة في المخازن الكبرى، ولكن المؤسسة كانت ترسله أيضاً إلى عند أشخاص معينين. كان الناس في ذلك الحين يعيشون الاضطهاد الممارس على المثقفين التشيكيين في حالة من التضامن المتباهي. عندما عرف مرضى توماس القدامى بأنه كان يعمل منظفاً للزجاج، اتصلوا بالمؤسسة للبعث في طلبه. كانوا يستقبلونه بقنينة شمبانيا أو قنينة من العرق ويسجلّون على ورقته أنه قام بتنظيف ثلاث عشرة نافذة. ثم يمضون برفقته ساعتين وهم يثرثرون أو يقرعون الكؤوس. وعندما كان يغادرهم ذاهباً إلى أشخاص آخرين أو مخزن آخر، كان يشعر أنه رائق المزاج كليّاً. كانت عائلات الضباط الروس تتوافد للإقامة في البلاد. كان الراديو يبث الخطابات الإرهابية لموظفي وزارة الداخلية الذين كانوا يحلّون محل الصحافيين المسرّحين. أما هو فكان يترنح سكران عبر شوارع براغ وفي حالة رجل ينتقل من فرحة إلى فرحة. كانت هذه أيام عطلته الطويلة الأمد.

كان يرجع إلى عهد حياته كرجل عازب. فهو وَجد نفسه فجأة دون تيريزا التي لم يكن يراها سوى في الليل حين ترجع من الحانة، فيفتح عيناً في بداية نومه. وفي الصباح حين كانت هي غارقة في النوم فيما هو معجّل للذهاب إلى عمله. كان يملك في متناول يده ست عشرة ساعة وكانت هذه فسحة حرية منحت إليه بطريقة مباغتة. وفسحة الحرية تعني له، مذ كان في مطلع الصبا، النساء.

9

عندما كان أصدقاؤه يسألونه كـم يبلغ عدد النساء اللواتي حظي بهن في حياته، كانت إجابته مراوغـة. وحين كانـوا يصرّون، كـان يقول: «مـا يقارب المئتين». كان بعض الحاسـدين يؤكدون أنـه يبالـغ فيدافـع عن نفسه قـائلاً: «هذا ليس بالعدد الكبير. إن علاقاتي بالنساء بدأت من خمسة وعشرين عامـاً تقـريباً. أقسمـوا مئتين على خمس وعشـرين فيكـون الحـاصـل ثمـاني نسـاء جديدات كل عام. وهذا ليس بكثير».

ولكنه مذ كان يعيش مع تيريزا ونشاطه الجنسي يصطدم بصعوبـات في التنظيم. لم يكن في مستطاعه أن يخصص له (بين عمله في غرفة العمليـات الجراحية وبين بيته) إلا حيّزاً ضيقاً من الوقت ليستغله قدر الإمكان طبعاً (كما يعتني المزارع الجبلي بقطعة أرضه بدأب متواصـل). ولكن لا يمكن مقارنـة ذلك بفسحة الست عشـرة ساعـة التي نزلت عليـه فجأة نعمتهـا غير المتـوقعة (أقول ست عشرة لأن السـاعات الثمـاني التي كان ينـظف خلالهـا الزجـاج، كـانت هي أيضاً تمنحـه ألف فـرصـة للتعـرف إلى بائعـات جـديـدات أو إلى موظفات أو إلى مدبّرات منازل، ولأخذ موعد منهن).

عمَّ كـان يبحث لدى كـل هؤلاء النساء؟ مـا الـذي كـان يشـدّه إليهن؟ أليست العلاقة الجنسية إعادة دائمة للشيء نفسه؟

إطلاقاً. تبقى هناك دائماً نسبـة صغيرة من «المتعـذّر تصوره» فهـو حين كان يرى امرأة في كامل ثيابها، كان في وسعـه أن يتخيل تقـريباً كيف ستبـدو وهي عارية (هنا كانت خبرة الطبيب تكمل خبرة العاشق). ولكن بيـن مقاربـة الفكرة ودقة الواقع تبقى دائماً هناك ثغرة صغيرة، ثغرةُ المتعذِّرِ تصـورُه. وهذه الثغـرة بالـذات هي التي لم تكن تتركـه في سلام. ثم وأنَّ مـلاحقة المتعـذر تصوره لا تكتمل باكتشاف العـري وحده بـل تتعداه: كيف ستكـون حركـاتها وهي تخلع مـلابسها؟ مـاذا ستقول عنـدما يضـاجعهـا؟ وكيف ستكـون نغمـة تنهداتها؟ وأي تكشيرة سترتسم على وجهها حين وصولها إلى لحظة النشوة؟

إنَّ تفرد الأنا يكمن بالذات في هذا الجزء من «المتعـذر تصوره» الـذي يملكه كل إنسان. ليس في الإمكان تخيـل إلا ما هـو مشترك بين الكـائنات.

أما «الأنا» الفردية التي تتميز عن ما هو عام، فهي تلك التي لا تدعنا نتكهن بها أو نحدسها. وهي أول ما يجب نزع الحجاب عنه لاكتشافه وامتلاكه لدى الآخر.

كان توماس قد اهتمّ في السنوات العشر الأخيرة من نشاطه الطبي بالدماغ الإنساني على وجه أخص. كان يعرف أن لا شيء أكثر صعوبة من الاستحواذ على «الأنا». فبين هتلر وأينشتاين، أو بين بريجنيف وسولجنستين هناك تشابه أكثر مما هناك اختلاف. وإذا أردنا أن نعبّر عن ذلك حسابياً نقول إنه يوجد فيما بينهم جزء من المليون من الاختلاف، وتسعمائة وتسعة وتسعون ألفاً وتسعمائة وتسعة وتسعون بالمليون من التشابه.

وتوماس يسكنه هاجس اكتشاف هذا الجزء من المليون والاستحواذ عليه. وهو هكذا يحدّد معنى هوسه بالنساء. فهو ليس مهووساً بالنساء بل بما تملكه كل واحدة منهن من «المتعذّر تصوره». وبكلمة أخرى، بهذا الجزء من مليون من الاختلاف الذي يميّز امرأة عن سواها.

(ربما كان شغفه بالجراحة يتلاقى وشغفه بالجري وراء النساء. لذلك لم يكن يتخلى عن المبضع الوهمي حتى عندما يكون مع عشيقاته. كان يرغب في الاستحواذ على شيء ما، كان دفيناً في أعماقهن، شيء يجب أن تُمزَّق في سبيله القشرة الخارجية).

يحق لنا بالطبع أن نتساءل لماذا لم يكن يفتش إلا من خلال الجنس عن هذا الجزء من مليون من الاختلاف. ألم يكن قادراً مثلاً على إيجاده في مشيتهن أو في ذوقهن في المآكل، أو في ميولهن الفنية؟

بطبيعة الحال، هذا الجزء من مليون من الاختلاف موجود في جميع مجالات الحياة الإنسانية. ولكنه ظاهر علانية أينما كان ولا تدعو الحاجة إلى اكتشافه ولا يحتاج الأمر إلى مبضع. فأن تفضّل امرأة الجبنة في الحلويات، أو ألاَّ تتحمل واحدة أخرى الأرضي ـ شوكي، فهذه بالطبع علامة تمايز. ولكننا ندرك تلقائياً أن التمايز هذا تافه وغير مُجدٍ وأن اهتمامنا به وتفتيشنا فيه عن قيمة ما، إنما هو مضيعة للوقت.

ولكن في الجنس وحده يظهر هذا الجزء وكأنه شيء ثمين. لأنه لا يمكن إدراكه علانية بل يجب امتلاكه. منذ نصف قرن، كان هذا النوع من الامتلاك يتطلب الكثير من الوقت (أسابيع وربما أشهراً في بعض الأحيان!) لأن قيمة المحظية العاطفية كانت تقاس بالمدة التي اقتضاها امتلاكها. ولكن، اليوم، وبالرغم من أن المدة التي يستغرقها الامتلاك قد تقلصت بشكل محسوس، فإن الجنس يبدو دائماً وكأنه الخزينة التي يختبىء في داخلها سر «الأنا» الأنثوية.

إذاً، لم تكن الرغبة في المتعة الجنسية (مع أن المتعة تأتي تقريباً في الطليعة) هي التي تدفع توماس لمطاردة النساء، بل الرغبة في الاستيلاء على عالم (في شرْطِ حسدِ العالم المسجّى بالمبضع).

10

في الإمكان قسم الرجال الذين يلاحقون النساء بكثرة إلى قسمين: القسم الأول يبحث لدى كل النساء عن حلمه الخاص وعن فكرته الذاتية عن المرأة. والقسم الآخر تحركه رغبة الاستحواذ على الاختلاف اللامتناهي للعالم النسائي الموضوعي.

هوس الأولّين هوس رومنطيقي: فالشيء الذي يفتّشون عنه عند النساء هو أنفسهم ومثالهم الأعلى. وهم دائماً وأبداً خائبون لأن المثال كما نعرف يستحيل إيجاده. وبما أن الخيبة هي التي تدفعهم للتنقل من امرأة إلى امرأة أخرى، فإنها تعطي تقلّبهم ذريعة ميلودرامية. وهناك الكثير من النساء العاطفيات اللواتي يجدن تعددية عشيقاتهن المستمرة مؤثّرةً في النفس.

أما الهوس الآخر فهَوسٌ إباحي، والنساء لا يجدنه مُؤثّراً إطلاقاً: فبما أنَّ الرجل في هذه الحالة لا يُسقط على النساء مثالاً ذاتياً فإن كلَّ شيء عندئذ يثير اهتمامه ولا شيء يمكن أن يجعله خائباً في آن.. وهذا العجز عن الخيبة بالذات يحمل في حدّ ذاته شيئاً مخزياً. فبالنسبة للجميع هوس المُقبِّل الرومنطيقي لا يكلّ (لأنه لا يُكفَّر عنه من خلال الخيبة).

وبما أنَّ المُقبِّل الرومنطيقي يلاحق دائماً النموذج عينه من النساء، فإننا

لا نلاحظ أنه يغيّر عشيقاتـه، ويسبب له أصـدقاؤه خـلافات بستمـرة لأنهم لا يلاحظون فرقاً بين عشيقاته وينادونهن كلهن بالاسم نفسه.

أمـا المُقبّلون الإباحيـون (بالإمكـان تصنيف تومـاس طبعـاً ضمن هـذه الفئة) فإنهم يبتعدون، أثناء سعيهم وراء المعرفة، عن معايير الجمـال الأنثوي المتعارف عليها (والتي يأنفونها سريعاً) ويتحولون في نهاية المطاف حتماً إلى هـواةٍ للغرائب. وهم يعـرفون هـذا الأمر ويشعـرون بقليل من الخجـل. لـذا فإنهم لا يظهرون برفقة عشيقاتهم أمام الملأ لئلا يزعجوا أصدقاءهم.

كان ينظّف الزجاج منذ سنتين عندما استدعَتْه زبونة جديدة. ما أن رآها لأول مرة عند عتبة الباب حتى أسرته غـرابتها للحـال. كانت غـرابتها متكتمـة ومتحفّظة وتبقى في حدود التفاهة المرحة (كـان ميل تـوماس إلى الغـرائب لا يمت بصلة لـلإعجاب الفللّيني بـالنساء المخيفـات ببشاعتهن): كـانت طويلة القامة فوق العادة، أطول منه بكثير. كان أنفها دقيقاً وطويلاً جداً ووجهها غريباً جداً إلى درجة يستحيل معها أن نقول إنها جميلة (فالجميع سـوف يعارضـون ذلك) ولكنّها لم تكن خالية من أي جمال (على الأقل، حسب رأي توماس). كانت ترتدي بنطلونـاً وقميصاً بيضـاء. ويخيّل للنـاظر أنهـا مزيـج عجيب من صبي ضامر وزرافة ولقلق.

كـانت ترمقـه بنظرات طـويلة متيقـظة ومستقصيـة، ولا تخلو أيضـاً من شعاع سخرية ذكية.

قالت: «أدخل يا دكتور».

ففهم عنـدئـذ أن المـرأة تعـرف من يكـون. فسـأل دون أن يُـظهـر أي تعجب: «أين يمكنني أن أستعمل الماء؟

فتحت باب غرفة الحمام. فرأى أمامه المغسلة والمغطس والمرحاض. وأمـام المغطس والمغسلة والمـرحاض كـانت هناك سجـادات صغيرة زهـريـة اللون.

كانت المرأة التي تشبه زرافة ولقلقاً تبتسم غامزة بعينها، وكل ما كـانت تقوله كان يلمّح إلى معنى وسخرية خفيين.

قالَتْ: «غرفة الحمّام هي تحت تصرفك يا دكتور. إفعل هناك ما يحلو لك».

ـ «هل أستطيع أن أستحم أيضاً؟».

فسألته:

ـ «هل تحب الاستحمام؟».

ملأ دلواً من المياه الساخنة ورجع إلى الصالون ثم قال: «من أين أبدأ؟».

قالت وهي ترفع كتفيها هازئة:

ـ «هذا متوقف عليك».

ـ هل يمكنني رؤية نوافذ الغرف الأخرى.

ـ هل ترغب في مشاهدة شقتي؟ كانت تبتسم كما لو أن تنظيف النوافذ إنما هو نزوة من نزوات توماس، من غير أن تثير هذه النزوة اهتمامها إطلاقاً.

دخل إلى الغرفة المجاورة. كانت نوافذها كبيرة وفيها سريران ملتصقان بعضهما ببعض ولوحة تمثل مشهداً خريفياً عبارة عن أشجار السندر المشعّة بالشمس الغاربة.

. عندما رجع، كانت هناك على الطاولة قنينة نبيذ مفتوحة وكأسان. سألَتْ: «ألا تريد أن تشد من عزمك قليلاً قبل البدء بعملك المضني؟».

قال توماس وهو يجلس: «بكل سرور».

قالت: «لا بدّ أنه أمر مثير للاهتمام أن تذهب إلى بيوت الناس؟».

فقال توماس: «ليس بالأمر السيء».

ـ «تلتقي في كل مكان بنساء أزواجهن في العمل».

فقال توماس: «ومرات كثيرة بجدّات وحموات».

ـ «وعملك القديم، ألا تحنّ إليه؟».

ـ «قولي لي أولاً أين سمعتهم يتحدثون عن عملي السابق؟».

فقالت المرأة: ـ اللقلق: مستخدِمك فخور بك جداً.

ـ الآن أيضاً؟ قال توماس متعجباً.

ـ «اتصلت بهم ليرسلوا لي أحداً لتنظيف الزجاج، فسألوني هل كنت أرسل في طلبك أنت. يبدو أنك كنت جراحاً كبيراً طردوه من المستشفى. وأعتقد أن هذا يثير اهتمامي!».

ـ أنتِ فضولية بشكل غريب.

ـ وهل هذا واضح؟

ـ نعم، من الطريقة التي تنظرين فيها.

ـ وكيف هي طريقتي في النظر؟

ـ تطرفين بعينيك وتطرحين الأسئلة دون توقف.

ـ لماذا؟ ألا تحب الإجابة؟

كان الحديث يتحول بفضلها إلى دعابة. ولم تكن أي كلمة قالتها تتعلق بالعالم الخارجي. بل كانت كلماتها كلها تتوجه إليهما وحدهما. وبما أن كليهما نصّب الحوار كموضوع رئيسي فلم يكن أسهل عندئذ من تكملة الكلمات بالملامسات. فَبينما كان توماس يتحدث عن عينيها اللتين تطرفان، أخذ يداعبهما. وكانت هي ترد على كل ملامسة منه بمداعبة منها. لم تكن تتصرف بطريقة عفوية وإنما بدأب متعمّد. كانا وكأنهما يريدان أن يلعبا لعبة «أفعل لك ما تفعله لي». كانا جالسين وجهاً لوجه ويدا كلٍّ منهما موضوعتان على جسد الآخر.

ولكنّها بدأت أخيراً تتمنع عندما حاول توماس أن يضع يده بين فخذيها. لم يكن قادراً على التمييز فيما إذا كانت تتمنع بجدية. ولكنّ وقتاً طويلاً قد مرّ، ودقائق عشر تفصله عن موعده مع الزبون القادم.

فنهض شارحاً أن عليه الرحيل. كان خدّاها محمرين.

قالت: انتظر لأوقع لك على ورقة الحساب.

اعترض قائلاً: ولكنّي لم أفعل شيئاً.

قالت: «هذه غلطتي». ثم أضافت بلهجة رقيقة وبطيئة وبريئة: «يجب أن أستدعيك من جديد لكي تتمكن من إنجاز ما لم تتمكن من البدء به بسببي أنا».

وبما أن توماس كان يرفض إعطاءها الورقة لتوقعها، قالت بعذوبة وبلهجة من يتوسل خدمةً: «أرجوك، أعطني هذه الورقة». ثم أضافت: «أنا لا أدفع بل زوجي. وأنت لا تقبض بل مؤسسة الدولة. هذه الصفقة لا تخصنا، لا أنت ولا أنا».

11

كان اللاتناسق الغريب للمرأة الشبيهة بالزرافة واللقلق يثيره لمجرد التفكير فيه: الدلال المقرون بالرعونة، والرغبة الجنسية المصرّح بها بسذاجة مصحوبةً بابتسامة ساخرة والتفاهة المبتذلة للشقة مقارنةً مع تفرد صاحبتها. تُرى كيف ستكون هيئتها وهما يمارسان الحب؟ كان يحاول أن يتخيل ذلك، ولكن الأمر لم يكن سهلاً. وأصبح هذا شغله الشاغل لأيام عديدة.

عندما دعته لزيارتها في المرة الثانية، كانت هناك قنينة نبيذ تنتظر على الطاولة مع كأسين. ولكن هذه المرة حدث كل شيء بسرعة. وجدا نفسيهما بعد قليل متواجهين في الغرفة (كانت الشمس تغيب فوق مشهد أشجار السندر البيضاء) فتعانقا. قال كعادته: «اخلعي ثيابك» ولكنها بدل أن تطيعه أمرته قائلة: «لا، أنت أولاً».

لم يكن معتاداً على ذلك فاضطرب قليلاً. أما هي فأخذت تزرر له بنطلونه. «اخلعي ثيابك!»، أمرها بذلك عدة مرات (ولكن بفشل مُضحك) فلم يجد من وسيلة عندئذ إلا القبول بتسوية، فمشى تبعاً لقوانين اللعبة التي فرضَتْها في المرة السابقة («أفعل لك ما تفعل لي»). نزعت عنه بنطلونه فنزع عنها تنوّرتها. ثم جردته من قميصه فجرّدها من قميصها. وهكذا حتى وجدا

نفسيهما أخيراً عاريين وجهاً لوجه. وضع يده على فرجها الرطب ثم أنزل أصابعه باتجاه الثقب الشرجي وهو المكان الأحب عند النساء جميعهن. كان ثقبها ناتئاً للغاية مما يوحي بوضوح بأن الجهاز الهضمي الطويل ينتهي في هذا المكان بحدبة صغيرة. تحسّس الحلقة الصلبة السليمة، ذلك الخاتم الأجمل بين الخواتم جميعها، والذي يسمّى في لغة الطب «الصَّارة». عندها، أحسَّ فجأة بأصابع المرأة تستقر في المكان نفسه من مؤخرته. فهي كانت تعيد حركاته كلها بدقة المرآة.

ومع أنه، كما قلت آنفاً، قد عرف في حياته مئتي امرأة، (ومذ أصبح منظّف زجاج، كان عددهن قد زاد كثيراً) لم يحدث له من قبل أن رأى امرأة أطول منه تنتصب أمامه وتطرف بعينيها وتتحسس شرجه. فدفعها بقوة إلى السرير لكي يتغلب على إحساسه بالانزعاج.

غَدَرَتْها فجائيةُ هذه الحركة فتهاوى جسدها الكبير على ظهره. كان وجهها المكسو بلطخات حمراء أشبه بالهيئة المذعورة لأحدٍ فقد التوزان. وبما أنه كان واقفاً أمامها أمسكها من تحت ركبتيها ورفع ساقيها المنفرجتين قليلاً عالياً. فبدت له ساقاها فجأة وكأنهما ذراعان مرفوعتان لجندي مذعور يستسلم أمام سلاح يُشهر عليه.

كانت الرعونة المرفقة بالحماس والحماس المرفق بالرعونة، يثيران توماس بشكل رائع. تحابّا طويلاً جداً. كان يراقب وجهها المكسو بلطخات حمراء مفتشاً فيه عن الهيئة المرتعبة لامرأة يتعمد أحدهم إيقاعها فتسقط. كان هذا التعبير الذي لا يضاهى يُصعّد تيار الإثارة المتدفق إلى رأسه.

عندما انتهيا، ذهب للاغتسال في غرفة الحمام. فلحقت به وشرحت له مطوّلاً عن مكان الصابون وكفّ الحمّام وكيف عليه أن يتصرف للحصول على المياه الساخنة. فاستغرب أن تشرح له هذه الأمور البسيطة بهذا الإسهاب. فقال لها إنه فهم وإنه يرغب في البقاء وحيداً في غرفة الحمام.

قالت له بنبرة متوسلة: «ألا تريدني أن أشاهدك وأنت تغتسل؟».

لكنّه نجح أخيراً في إخراجها. كان يغتسل ويبول في المغسلة (وهذه

عادة شائعة عند الأطبّاء التشيكيين. كان يشعر أنها تتجول بنفاذ صبر أمام غرفة الحمام، مفتشةً عن ذريعة تمكنها من الدخول إلى هناك. عندما سكّر الحنفيات، لاحظ أن السكون تام في الشقة، فخيّل إليه أنها كانت تراقبه، كان شبه متأكد بأنها تلصق عينها الجميلة الطارفة في ثقب الباب.

عندنا غادر، شعر أنه رائق المزاج. كان يحاول أن يتذكر الأساسيّ، وأن يكثّف هذه الذكرى في صيغة كيمائية تسمح له بتحديد التفرد (أي هذا الجزء من مليون من الاختلاف) الخاص بهذه المرأة. فتوصل في النهاية إلى صيغة تتألف من ثلاثة عناصر:

١ ـ الرعونة المقرونة بالحماس.

٢ ـ الوجه المذعور لأحد ما يفقد توازنه ويسقط.

٣ ـ الساقان المرفوعتان الشبيهتان بذراعي جندي يستسلم أمام سلاح يُشهر عليه.

عندما كان يتلو على نفسه هذه الصيغة، كان يغمره شعور مشرق، شعور بأنه تمكن مرة أخرى من الاستحواذ على جزء من عالم، بأنه اقتطع بمبضعه الوهمي قطعة رقيقة من نسيج القماشة اللامتناهية للكون.

12

هاكُم ما جرى معه في الفترة نفسها تقريباً: كان يلتقي مراراً بامرأة شابة في شقة كان يعيره إياها صديق حميم كل يوم حتى منتصف الليل. بعد مرور شهر أو شهرين ذكَّرتْه بأحد لقاءاتهما: كانا يمارسان الحب فوق السجّادة أمام النافذة، وكانت البروق تلتمع والرعود تزمجر. مارسا الحب في أثناء هبوب العاصفة.. وكان الأمر، كما كانت تقول، جميلاً لا يُنسى.

كان توماس يسمعها متعجباً: نعم، كان يتذكر أنهما تضاجعا فوق السجادة (إذ لم يكن في شقة صديقه الصغيرة سوى سرير واحد ضيّق لا يُشعره بالارتياح) ولكنه نسي تماماً أمر العاطفة! يا للعَجَب! فهو كان قادراً

على تـذكر اللقـاءات القليلة التي جمعته بهـا، حتّى أنه كـان يتذكـر بـالضبط الطريقة التي كانا يتضاجعان فيها (فهي كانت تـرفض أن يلجها من الخلف)، وكـان يتذكـر أيضاً الجمـل القليلة التي تتفوه بهـا أثناء المـواقعة (فهي كـانت تطلب منه أن يضمّ وركيها بقوة، وكانت تعارض إذا نظر إليها» ويتذكر كـذلك «تفصيلة» ثيابها الداخلية ـ ولكنه لم يعد يتذكر إطلاقاً العاصفة.

لم تكن ذاكرته تسجّل من مغامـراته العـاطفية غيـر الممرّ الضيّق الـوعر للامتلاك الجنسي: الكلام المثير الأوّل، والمـلامسة الأولى والعبـارة الفاجـرة الأولى التي قالها لها والتي قالتها له وكل الممارسـات المتهتكة الصغيـرة التي كان يفرضها عليها شيئاً فشيئاً، أو حتى تلك التي كانت ترفض القيام بها. أما البقية فكانت مستبعدة (وبعناية تقارب الادعاء) من ذاكرته. كان يتغـافل أيضـاً عن المكان الذي التقى فيه هذه المرأة أو تلك، لأن هذه اللحظة حدثت قبـل الامتلاك الجنسي.

كانت المرأة الشـابة تتحـدث عن العاصفـة فيما تغمـر وجههـا ابتسـامـة حالمة. وكـان هو ينـظر إليها متعجبـاً وبشيء من الخجل: فهي عـاشت شيئاً جميلاً لم يشاركهـا فيه: كـانت ردة الفعل الثنـائية لـذاكرتهمـا تجاه العـاصفة الليلية تعبّر عن كل الاختلاف الذي يمكن أن يوجد بين الحب واللاّحب.

لا أقصد باللاّحب، أن توماس قد تصرف ببذاءة مـع المرأة الشـابة، أو أنه لم يكن يرى فيهـا إلا أداة جنسية. على العكس، فهـو كان يحبهـا وكأنهـا صـديقة ويقـدّر شخصيتها وذكـاءها، لا بـل كان مستعـداً لمسـاعـدتهـا كلمـا احتـاجت لذلـك. لم يكن هو الـذي يتصرف معهـا بسوء وإنمـا ذاكرتـه التي أقصَتْها بعيداً عن دائرة الحب دون أن يكون له هو دخل في الأمر.

يبـدو أن في الدمـاغ منطقـة خاصـة تمامـاً ويمكن تسميتها بـ «الـذاكرة الشعرية»، وهي التي تسجّل كل الأشيـاء التي سحرتنـا أو التي جعلتنا ننفعـل أمامها، وكل ما يعطي لحياتنا جمالها. مذ تعرّف تومـاس إلى تيريـزا، لم يعد لأي امرأة الحق في أن تترك أثراً ولو عابراً في هذه المنطقة من دماغه.

كانت تيريزا تحتل ذاكرته الشعرية باستبداد مكنّسةً منها كـل أثر للنسـاء الأخريات. لم يكن هذا عادلاً لأن المرأة الشابة التي مارس الحب معهـا مثلاً

فوق السجادة أثناء العاصفة لم تكن أقل جدارة من تيريـزا بذاكـرته الشعـرية. كانت تصرخ له: «أغمض عينيك وامسكني من وركيّ ثم ضمّني بقـوة!». لم تكـن تستطيع أن تتحمل عيني توماس مفتوحتين، ومتيقظتين ومتفحصتين أثناء الجمـاع. ولم تكن تتحمل أيضـاً أن يكون جسـده الـذي يعتلي جسدهـا غير ملتصق به تماماً. لم تكن تريد أن يتفحصها توماس بل كانت تريد أن تجـذبه إلى بحر السحر الذي لا يمكن الولوج فيه إلا بعينين مغمضتين. كانت ترفض أن تدبّ على الأربع لأن جسديهما في هذه الوضعية يتلامسـان بالكـاد، ولأنه كان يستطيع مراقبتها عن مسافـة تقارب الخمسين سنتمتـراً. وهي كانت تكـره هذه المسافة. لذلك، كانت تؤكد أمامه بأصـرار، وهي تنظر إلى عينيـه، أنها لم تكن تستمتع بذلك، مع أنّ السجادة كلها تبلّلت من متعتها. كانت تقول: «لا أفتش عن المتعـة بـل أفتش عن السعـادة. والمتعـة دون السعــادة ليست بمتعة». وبكلمة أخرى، كانت تـدق على باب ذاكـرته الشعـرية ولكن البـاب كان مقفلاً. لم يكن هناك من مكان لها في ذاكرة تـوماس الشعـرية. لم يكن هناك من مكان لها إلا فوق السجادة.

ابتدأت مغامرة توماس مع تيريزا في المكـان الذي تنتهي عنـده بالضبط مغـامراتـه الأخرى مـع النساء. كـانت المغامـرة مع تيـريزا تجـري في الجهة الأخرى من الضرورة التي تدفعه لامتلاك النساء. فهـو لم يكن ينوي نـزع أي حجاب عند تيريزا. لقد وجدها منزوعـة الحجاب. ومـارس معها الحب دون أن يصرف وقتاً في الأخذ بمبضعه الوهمي الذي كـان يشرط بـه جسد العـالم المسجّى. وقع في حبها دون أن يصرف وقتاً في التسـاؤل كيف ستكون أثنـاء الجماع.

حكاية الحب بدأت فيما بعـد: كانت الحمى تنتـابها ولم يكن يستـطيع أن يرجعها إلى بيتهـا كما كـان يفعل مـع النساء الأخـريات. كـان راكعاً أمـام سريرها عندما خطرت له فكرة بـأنها أُرسلت إليـه في سلة مع مجـرى المياه. سبق لي أن قُلْتُ آنفـاً إن الاستعارات خـطيرة وإن الحب يبـدأ من استعـارة. وبكلمـة أُخرى: الحب يبـدأ في اللحظة التي تسجّـل فيها امـرأة دخولهـا في ذاكرتنا الشعرية من خلال عبارة.

13

ما لبثت تيريزا أن جدّدت مكانتها في حياته: ذهبت لشراء الحليب كما في كل صباح، وعندما فتح لها الباب رآها تضم طائر زاغٍ ملفوفاً بالمنديل الأحمر إلى صدرها، كما تحمل الغجريات أطفالهن بين أذرعتهن. لن يكون في إمكانه أن ينسى أبداً منقار الزاغ الضخم البازغ من وجهه وكأنه اتهام.

وجدته شبه مدفون كما كان يعامل القوزاقيون أعداءهم قديماً. «إنهم أطفال، الذين فعلوا به هذا»، كان في هذه الجملة شيء أكثر من مجرد تقرير. كانت التعبير عن القرف الذي تملّكها فجأة من الجنس البشري. فتذكر أنها قالت له مؤخراً: «صرت أشعر بالامتنان لك لأنك لم ترغب قط في إنجاب الأطفال».

البارحة، كانت تشتكي من أن أحدهم شتمها في الحانة التي تعمل فيها. ثم أمسك عقد اللؤلؤ الذي تضعه حول عنقها مؤكّداً أنها كسبته من الدعارة. كانت مضطربة تماماً، أكثر مما ينبغي، فكّر توماس. وفجأة أزعجته فكرة أنه لا يراها إلا قليلاً منذ سنتين، ولا تتسنّى له الفرصة ليضم يديها طويلاً إلى يديه ويمنعهما من الارتجاف.

كانت تراوده هذه الأفكار فيما هو ذاهب صباحاً إلى المكتب ليأخذ من الموظفة برنامج عمله اليومي. فوجد أن زبوناً قد طلب استدعاءه هو بالتحديد لينظف له النوافذ. ذهب إلى العنوان المكتوب معتكر المزاج خائفاً من أن يكون الزبون امرأة أُخرى تبعث في طلبه. كان الآن مستغرقاً كلياً في أفكاره عن تيريزا ولم تكن المغامرات تستهويه.

عندما فُتح الباب، أحسّ بالارتياح. رأى أمامه رجلاً طويل القامة محني الظهر. ثم أنَّ ذقن الرجل طويل ومعقوف يذكّره بأحدهم.

ثم قال مبتسماً: «تفضل يا دكتور» وأدخله إلى الصالون.

كان هناك شاب في انتظارهم. كان واقفاً محمرّ الوجه، ينظر إلى توماس وهو يحاول جاهداً أن يبتسم.

قال الرجل: لا أرى هناك من داعٍ لأن أعرّفكما بعضكما على بعض.

قال توماس دون أن يبتسم: «لا»، ثم مدّ يده إلى الشاب مصافحاً. كان ابنه.

ثم عرّف الرجلُ ذو الذقن الطويل المعقوف عن نفسه.

فقال توماس: كنت واثقاً من أنك تذكّرني بأحدٍ ما. كيف لا! بالطبع أعرفك! بالاسم فقط.

توزّعوا على كنبات تفصل بينها طاولة واطئة. فكّر توماس بأن الرجلين الجالسين قبالته كانا من صنيعه هو دون أن ينوي ذلك أو يرغب فيه: فهو قد صنع طفلاً تحت ضغط زوجته وصورة هذا الرجل الطويل المحني الظهر تحت ضغط الشرطي.

ولكي يبعد عنه هذه الأفكار، قال: «طيّب، بأية نافذة عليّ أن أبدأ؟».

فضحك الرجلان قبالته دون تردد.

نعم، كان الأمر واضحاً وهو لا يتعلق إطلاقاً بتنظيف النوافذ. فهو لم يُستدعَ إلى هنا من أجل تنظيفها بل ليُجتذَب إلى كمين. لم يكن قد تحدث مع ابنه من قبل. وهذه هي المرة الأولى التي يصافحه فيها. لم يكن يعرفه إلا بالنظر ولا نيّة له في أن يعرفه بشكل آخر. وهو لم يكن يريد أن يعرف عنه شيئاً آملاً أن يعامله ابنه بالمثل.

ثم قال الصحافي وهو يشير إلى رسم كبير مؤطر معلّق على الجدار قبالة توماس: «ملصق جميل، أليس كذلك؟».

رفع توماس عينيه للمرة الأولى مذ دخل. كانت الجدران مكسوة بلوحات مُلفتة للنظر وبصور وملصقات كثيرة. كان الرسم الذي أشار إليه الصحافي قد ظهر في أحد الأعداد الأخيرة من المجلة الأسبوعية قبل أن يمنعها الروس من الصدور. كان الملصق اقتباساً عن ملصق شهير ظهر سنة ١٩١٨ خلال الحرب الأهلية الروسية، وكان يدعو الشعب للانضمام إلى الجيش الأحمر. كان يمثل جندياً يرتدي قبعة مزدانة بنجمة حمراء، ونظرته

المفرطة في الصرامة تنظر إليك مباشرة، وكان يصوّب يده نحوك شاهراً سبّابته. كان النص الروسي الأصلي يقول: «أيها المواطن ألم تنضم بعد إلى الجيش الأحمر؟» فاستُبدل بالجملة التشيكية التالية: «أيها المواطن، ألم توقّع أنت أيضاً على «الألفيْ كلمة»؟».

كانت تلك مزحة موفقة جداً! فالألفا كلمة هي أول بيان كبير ظهر في ربيع ١٩٦٨ وكان يطالب بنشر جذري للديمقراطية في النظام الشيوعي. وقّع هذا البيان حشد من المثقفين ثم وقع عليه أناس عاديون. وبدأت تتدفّق التواقيع حتى لم يعد بالإمكان إحصاؤها. وعندما اجتاح الجيش الروسي بوهيميا وبدأت عمليات التطهير السياسية، كان هناك سؤال موجّه إلى المواطن يقول: «هل وقّعت أنت أيضاً على بيان الألفيّ كلمة؟» فَصُرِفَ هؤلاء الذين اعترفوا بأنهم وقّعوا من وظائفهم في الحال.

قال توماس: رسم جميل، أتذكَّرُهُ.

ابتسم الصحافي قائلاً: «لنأمل ألا يكون جندي الجيش الأحمر سامعاً ما نقول».

ثم أضاف بنبرة جادة: «لكي يكون كل شيء واضحاً من البداية يا دكتور. هذا البيت ليس بيتي بل هذه شقة لصديق. إذاً، لست أكيداً من أن تكون الشرطة تسمعنا الآن. الأمر محتمل فقط. ولكن، لو أني دعوتك إلى بيتي، لكان الأمر أكيداً.

ثم تابع من جديد بلهجة أكثر مرحاً: «ولكني أنطلق من مبدأ أنه ليس هناك ما يستوجب أن نخفيه على أحد. على أية حال، تصوّر المنفعة التي ستعود على المؤرخين التشيكيين في المستقبل! سيجدون حياة المثقفين كلهم موضوعة في ملفات الشرطة ومسجّلة على شرائط كاسيت! هل عندك فكرة عن الجهد الذي يقوم به المؤرخ الأدبي لو أراد مثلاً إعادة كتابة الحياة الجنسية لفولتير أو بلزاك أو تولستوي؟ أمّا في حالة الكتّاب التشيكيين، فلن يكون لديهم أدنى شك. فكل شيء مسجّل، حتى وأقلّ تنهيدة.

ثم التفت ناحية آلات التسجيل الوهمية المخفية في الجدران، وقال

بصوت عالٍ: أيها السادة، أريد في مناسبة كهذه أن أشجعكم كالعادة على عملكم، وأن أقدّم لكم الشكر باسمي وباسم مؤرخي المستقبل».

فضحك ثلاثتهم، ثم أخذ الصحافي يتكلم بإسهاب عن الظروف التي أحاطت بمنع مجلته من الصدور. وأخذ يتكلم أيضاً عمّا يفعله الآن الرسام الذي خطرت له الفكرة بأن يرسم هذا الكاريكاتور، وعمّا يفعله الآن غيره من الرسامين والفلاسفة والأدباء التشيكيين. فبعد الاجتياح الروسي، سُرّحوا جميعاً من أعمالهم وصاروا إمّا منظفي زجاج وحرّاساً في مواقف للسيارات أو حرّاساً ليليين، وإما وقّادين للمراجل في الأبنية الشعبية، أو كانوا وفي أحسن الحالات، سائقي تاكسي، لأن هذا الأمر بالذات يحتاج إلى دعم مسبق.

لم يكن ما يقوله الصحافي غير مثير للاهتمام، ولكن توماس كان عاجزاً عن التركيز في معنى كلماته. كان يفكر في ابنه ويتذكر أنه التقاه في الشارع منذ بضعة أشهر. ولم يكن الأمر صدفة بالطبع. ولكن ما يفاجئه الآن هو أن يراه برفقة صحافي مضطهد من قبل السلطات. وهو من كان يحسب أن ابنه واقع لا بدّ تحت تأثير زوجته الأولى التي كانت شيوعية متصلبة. كان بإمكانه الآن أن يسأله كيف تسير الأحوال مع أمه، ولكن السؤال بدا له في غير موضعه خصوصاً في حضرة رجل غريب.

ثم وصل الصحافي أخيراً إلى صلب الموضوع. فقال إن عدد الناس الموقوفين بسبب تمسكهم بآرائهم يتزايد باطّراد. ثم أنهى حديثه بهذه الكلمات: «فقررنا أخيراً أن نقوم بعمل ما».

فسأل توماس: «وماذا تريدون أن تفعلوا؟».

في هذه اللحظة، تدخّل ابنه. كانت هذه هي المرة الأولى التي يسمعه يتكلم فيها. فتعجّب من اكتشافه بأنه كان يتأتىء.

فقال: «استناداً إلى ما نعرفه، فإن المساجين السياسيين يعامَلون معاملة سيئة، وإن وضع بعضهم خطير فعلاً. لذا قرّرنا أنّ كتابة عريضة موقّعة من المثقفين التشيكيين، والذين لا يزال لاسمهم وزن معيّن، ستكون أمراً جيداً.

لا، لم تكن هذه تأتأة وإنما حازوقة تجعل كلماته أكثر بطئاً، بحيث إن

كل كلمة يلفظها تبدو وكأنها موقّعة ومنوّه بها رغماً عنه. لا شك في أنه كان متنبهاً لهذا الأمر، لأنّ خديه، بعد أن كان رجع إليهما لونهما الطبيعي، عادا للإحمرار من جديد.

سأل توماس: هل تريدون أن أدلكم على أناس ينتمون إلى حقلِ اختصاصي وبإمكانهم مساعدتكم؟

ضحك الصحافي قائلاً: لا، لا نريد منك نصيحة. بل توقيعك!».

مرةً أخرى أحسّ أنه موضع مديح! مرةً أخرى كان سعيداً لأن أحدهم لم ينسَ بعد أنه كان جرّاحاً! فَمَانعَ من باب التواضع: «اسمعوا جيداً! إذا كانوا قد طردوني فهذا لا يعني أنني طبيب مشهور!».

قال الصحافي وهو يبتسم لتوماس: «لم ننسَ المقال الذي كتبته في مجلتنا الأسبوعية».

وبحماس لم يفهمه توماس ربما، هتف ابنه: «نعم!».

قال توماس: «لا أفهم ماذا يستطيع أسمي أن يفعل: إذا كان على عريضة من أجل المساجين السياسيين. فهؤلاء الذين يُفترض بهم أن يوقّعوا، يجب ألا يكون مغضوباً عليهم، وأن يكونوا قد حافظوا على حدّ أدنى من التأثير على الناس المتسلمين زمام السلطة. ألا تعتقدون ذلك؟».

ـ «آه، بالطبع، يُفترض بهؤلاء أن يوقعوا!»، قال الصحافي وهو يضحك».

ثم أطلق ابن توماس ضحكة رجل عارفٍ الكثير من الأشياء. وقال: «إلا أنّ هؤلاء لن يوقّعوا أبداً!».

وأضاف الصحافي قائلاً: «لكن هذا لا يعني أننا لن نسعى لمقابلتهم، فنحن لسنا طيبين إلى درجة أننا سنوفّر عليهم تشنج عضلات وجوههم. وأود لو تسمع اعتذاراتهم، فهي رائعة».

فضحك الابن ضحكة مستصوبة.

وأضاف الصحافي: «بالطبع، سيؤكدون جميعاً أنهم مُتَّفقون معنا على

جميع النقاط. ولكننا لو أصغينا إلى قولهم فعلينا أن نتصرف بطريقة أُخرى: علينا أن نكون خبراء بالتعبئة بطريقة أكثر تعقلاً وأكثر تكتماً. فهم خائفون من التوقيع وخائفون في الوقت نفسه من أن نفكر عنهم بالسوء إن لم يوقعوا».

ضحك الابن والصحافي معاً.

قدّم الصحافي ورقة لتوماس كُتب عليها نص وجيز حيث يُطلب من رئيس الجمهورية، وبلهجة مؤدبة نسبياً، أن يُصدر عفواً شاملاً عن المساجين السياسيين.

حاول توماس أن يجول الأمر في رأسه سريعاً: العفو عن المساجين السياسيين؟ جيد جداً. ولكن هل سيتم العفو عنهم فقط لأن أناساً ينبذهم النظام (إذاً سجناء سياسيين محتملين) يطالبون به رئيسَ الجمهورية؟ النتيجة الوحيدة التي يمكن أن تصدر عن عريضة من هذا النوع هي أنه لن يتم العفو عن السجناء السياسيين، حتى ولو اتفق أنهم كانوا يتهيأون فعلاً للعفو عنهم!

ثم قطع عليه الابن هذه الأفكار: «المهمّ هو أن نجعلهم يعرفون أنه لا تزال في هذا البلد حفنة من الناس الذين لا يهابون شيئاً. وأن نُظهر مَنْ مع مَنْ. وأن نفصل القمح الجيد عن الزؤان».

كان توماس يفكر: نعم، هذا صحيح. ولكن ما علاقة هذا بالمساجين السياسيين! فهناك أمر من أمرين: إمَّا الأمر يتعلق بالحصول على العفو، وإما يتعلق بفصل القمح الجيد عن الزؤان. والأمران مختلفان.

سأل الصحافي: هل أنت متردد يا دكتور؟

نعم. كان متردداً. ولكنه كان خائفاً من أن يقول هذا. كانت هناك على الحائط قبالته صورة الجندي الذي يشهر إصبعه مهدداً وهو يقول: «هل ما زلت متردداً للانضمام إلى الجيش الأحمر؟» أو يقول: «ألم توقع بعد على الألفيْ كلمة؟» أو بالأحرى: «هل وقّعت أنت أيضاً على الألفيْ كلمة؟ أو أيضاً: «ألا تريد أن توقّع على العريضة لالتماس العفو؟». وأياً يكن جوابه، كان الجندي يهدده.

كان الصحافي يشرح لتوّه عمّا كان يفكر بشأن هؤلاء الناس الذين على الرغم من أنهم كانوا مقتنعين بضرورة العفو عن المساجين السياسيين، يتذرعون في الوقت نفسه بألف حجة لكي لا يوقعوا على العريضة. وتلك الحجج كانت، حسب ما يقوله الصحافي، مجرد ذرائع يخفون خلفها جبانتهم. ماذا بإمكانه إذاً أن يقول عن توماس؟

امتدّ الصمت طويلاً ولكن توماس قطعه هذه المرة ضاحكاً. ثم أشار إلى الرسم المعلق على الجدار وقال: «انظروا إلى هذا الرجل الذي يهددني سائلاً هل سأوقّع أم لا. يصعب علينا التفكير تحت وطأة نظرته».

ضحك ثلاثتهم طويلاً.

ثم قال توماس: حسناً. سأفكر في الأمر. ألا يمكننا أن نلتقي في الأيام المقبلة؟

قال الصحافي: يسرني جداً أن أراك. ولكن لم يعد هناك متسع من الوقت لإنجاز هذه العريضة. إذ إننا سنسلّمها غداً إلى رئيس الجمهورية.

«غداً؟».

كان توماس يفكّر في الشرْطي السمين الذي أعطاه الورقة حيث كان يتوجب عليه بالتحديد أن يشي ضمنها بالرجل ذي الذقن الطويل والمعقوف. كان الجميع إذاً يريدون إجباره على توقيع نصوص لم يكتبها بنفسه.

قال ابنه: «في هذه الحالة لن يكون هناك داعٍ للتفكير».

كانت الكلمات فظة ولكن النبرة يشوبها شيء من التوسل. نظرا هذه المرة بعضهما إلى بعض مباشرة. فلاحظ توماس أن ابنه كان يرفع قليلاً الزاوية اليسرى من شفته العليا، حين يمعن النظر. كانت هذه التكشيرة تشبه تكشيرته هو حين كان يتحقق بدقة أمام المرآة ما إذا كانت حلاقة لحيته جيدة. لذلك فإنه لم يستطع أن يكبت شعوره بالانزعاج لدى رؤيته هذه التكشيرة بالذات على وجه شخص آخر.

عندما يعيش المرء باستمرار مع أولاده فإنه يعتاد إذاً على مثل هذه

الخصال ويجدها أمراً طبيعيّاً. وإذا حدث له ولاحظها فإن الأمر قد يُمتعه ربما. ولكن، كانت هذه المرة الأولى في حياته التي يرى توماس ابنه! ولم يكن معتاداً على الجلوس قبالة تكشيرته هو بالذات.

افرضوا أن يداً بُترت منكم لكي تجري زراعتها لشخص آخر. ثم جاء أحدهم ذات يوم، وجلس قبالتكم وأخذ يشوّر بهذه اليد بالذات وجهاً لوجه. لا شك أنكم ستخالونها فزاعة. مع أنكم تعرفون هذه اليد حقّ المعرفة، وستخافون من لمسها مع أن هذه يدكم.

أخذ الابن يتابع قائلاً: «أنت، كما آمل، في جانب المضطهَدين!».

طيلة الحوار، كان توماس يتساءل هل سيخاطبه ابنه مع رفع الكلفة أو دونها؟ وهو حتى الآن كان يصوغ جمله بطريقة تجنبه هذا الاختيار. ولكنه هذه المرة اختار أخيراً. كان يخاطبه دون كلفة، وتيقّن توماس فجأة من أن هذه التمثيلية بأكملها لم تكن تتعلق إطلاقاً بالتماس العفو للسجناء السياسيين، بل كان موضوع الرهان يتعلق بابنه: لو أنه يوقع على العريضة فإن مصيرهما سيتلاقيان وسيُضطر توماس إلى التقرب منه. أما إذا لم يوقّع فإن علاقتهما بعضهما ببعض ستكون معدومة كما سبق لها أن كانت على الدوام.. ولكن الفرق هذه المرة أنها لن تكون معدومة بإرادته هو، بل بإرادة ابنه الذي سيتنكر لأبيه بسبب جبانته

كانت حاله كمثل حال لاعب الشطرنج الذي لم يعد يستطيع فعل شيء لينجو من الهزيمة فيجد نفسه مضطراً للانسحاب من المباراة، على كل حال، إن وقّع أو لم يوقّع فالأمران سيّان تماماً. وهذا لن يغير شيئاً في مصيره ولا في مصير السجناء السياسيين.

ثم قال: «أعطني هذه الورقة»، وأخذها.

14

وكما لو أنه أراد أن يكافئه على اتخاذه هذا القرار، قال الصحافي: «المقال الذي كتبته عن «أوديب» كان ممتازاً».

ناوله ابنه قلماً وقال: «مِنَ الأفكار ما يشبه جريمة اعتداء».

كان ثناء الصحافي يطربـه ولكن استعارة ابنـه بدت لـه مبالغـاً فيها وفي غيـر موضعهـا. فقال: «لسـوء الحظ، فإن هـذه الجريمـة لم توقـع إلا ضحية واحـدة: أنا. فبسبب هـذا المقال لم أعـد أستطيـع القيام بعمليـات جراحيـة لمرضاي».

كان لهذه الكلمات وقع بارد يشوبه شيء من العدائية.

ولكي يمحو الصحافي هـذا النشاز الصغيـر، استدرك (بـدا أشبه بـأحد يقدّم اعتذاره) قائلاً: «ولكن مقالك ساعد أناساً كثيرين».

كانت عبارة «مساعدة الناس» تعني لتوماس منذ الطفولة نشاطـاً واحداً: الطب. ثم هل حدث لمقال في صحيفة أن ساعـد أناسـاً من قبل؟ مـاذا كان هذان الإثنان يريدان إفهامه؟ أنهما يردان حياته كلها إلى خواطـر تعيسة كتبهـا عن «أوديـب»، لا بل إلى أقل من هذا أيضاً: إلى كلمـة «لا» وحيدة سـاذجة كان تلفظ بها في وجه النظام!

ثم قـال (ودائماً بـالنبرة البـاردة نفسها ولكن دون أن يتعمـد ذلك): «لا أعرف حقاً مـا إذا كان هـذا المقال قـد ساعـد أحداً مـا. ولكني خلال عملي كجرّاح أنقذت حياة أناس كثيرين».

ساد صمت جديـد ثم قطعـه قائـلاً: «الأفكـار أيضـاً يمكنهـا أن تنقـذ الحياة».

كان توماس يرى فمه هو بالذات في وجـه ابنه، قـائلاً في نفسـه: «أمر مضحك أن نرى فمنا يتأتىء أمامنا».

وتـابع الابن بجهـد ملحوظ: «ثمـة أمـر رائـع في مقـالـك وهـو رفض المسـاومة. فهـذه القدرة، والتي نحن في طـريقنـا إلى خسـارتهـا، هي التي تميّـز بوضـوح الخير من الشـر. لم نعد نعـرف ما معنى أن نكـون مذنبين. فالشيوعيون وجدوا لأنفسهم ذريعة مفادها أن ستالين هـو الذي خـدعهم. كما عندما يبرر القاتل نفسه متـذرعاً بـأن أمه لم تكن تحبـه وأنه كـان محرومـاً من العطف. ولكّنك جئت أنت فجـأة وقلت: لا مكان للتبـرير. إذ لم يكن أحـد

في روحه وضميره أكثر براءة من «أوديب». ومع ذلك فقد عاقب نفسه بعد أن رأى فعلته».

حاول توماس جاهداً أن يشيح ببصره عن الشفة التي كان يراها في وجه ابنه، فأخذ يولي انتباهه للصحافي. كان متضايقاً ويشعر برغبة في معاكستهما، فقال: «كما تعلمون، كل هذا لم يكن إلا سوء تفاهم. فالحدود بيْن الخير والشر حدود ملتبسة بشكل لا يوصف.. لم أكن أطالب بالعقاب لأحد ولم يكن هذا هدفي. فأن نعاقب أحداً لا يدرك ماذا يفعل أمر بربري. أسطورة «أوديب» أسطورة جميلة. ولكن استخدامها بتلك الطريقة...». كان على وشك أن يضيف شيئاً ما ولكنه تذكر أنه من المحتمل أن يُسجَّل قوله. وهو لم تكن لديه أدنى رغبة في أن يستشهد به مؤرّخو العصور المقبلة. أو أنه كان يخاف بالأحرى من أن تستشهد به الشرطة. فالأمر الذي كانت طالبته به هو بالضبط هذه الإدانة لمقاله. فأن يتمكن أخيراً من سماعه من فمه هو بالذات أمر يقززه. فهو يدرك أن كل جملة يتلفظ بها المرء في هذا البلد يمكن أن تبثَّ ذات يوم على الراديو. فَصَمت.

سأل الصحافي: «ما الذي دفعك إلى تغيير رأيك؟».

فقال توماس: «بل إني أتساءل بالأحرى ما الذي دفعني إلى كتابة هذا المقال». ثم تذكر على الفور: كانت قد جنحت إلى ضفة سريره مثل طفل متروك داخل سلة في مجرى المياه. نعم، هذا هو السبب الذي دفعه للتفتيش عن هذا الكتاب، راجعاً إلى عهد حكايات روميلوس وموسى وأوديب. وفجأة رآها أمامه تضم إلى صدرها الزاغ الملفوف بالمنديل الأحمر. كانت هذه الصورة تريحه وكأنها تريد أن تقول له إن تيريزا لا تزال حية وإنها كانت في هذه اللحظة في المدينة نفسها التي يقطن هو فيها، وأن لا شيء غير ذلك يهم.

قطع الصحافي الصمت قائلاً: «أتفهم موقفك يا دكتور. أنا أيضاً لا أحب أن يجازيني أحد. ولكننا لا نطالب بالعقاب لأحد بل نحن نطالب بتوقف العقاب».

ــ «أعرف» قال توماس. كان يتقبل الفكرة بأنه سيقوم في خلال ثوانٍ

بعمل نبيل ربَّما ولكن بالتأكيد غير مجدٍ إطلاقاً (لأنه لن يساعد بشيء المساجين السياسيين)، بعمل كان يستكرهه شخصياً (فهو كان يتصرف وفق شروط مفروضة عليه).

قال ابنه مرةً أخرى (وبلهجة شبه متوسلة: «إنه لمن واجبك أن توقع!».

واجبه؟ وهل سيكون ابنه من يذكره بواجبه؟ لا، هذا أسوأ ما يمكن أن يقال له! مثلَثْ أمام عينيه من جديد صورة تيريزا وهي تحمل بين ذراعيها الزاغ. فتذكر أنها قالت له: إن شرطياً جاء البارحة إلى الحانة وراح يضايقها. كانت يداها تبدآن بالارتجاف من جديد. لقد كَبُرت. لا شيء كان ذا أهمية بالنسبة له، عداها. هي وحدها تهمه، هي المتحدرة من صُدَفٍ ست، هي الزهرة النابتة من ألم النَّسا الذي أصاب رئيس القسم، هي التي كانت في الجانب الآخر من كل أنواع «المحتمات»، هي الشيء الوحيد الذي كان متمسكاً به فعلاً.

فلماذا عليه إذاً أن يتساءل بعد هل يجدر به أن يوقّع أم لا؟ فهناك معيار واحد يزين به جميع قراراته وهو: ألَّا يفعل شيئاً يمكنه أن يؤذي تيريزا. لم يكن توماس قادراً على إنقاذ المساجين السياسيين ولكنه كان قادراً على إسعاد تيريزا. لكن لا، كان غير قادر أيضاً على تحقيق هذا الأمر. ولكنه كان على يقين من أنه في حال وقّع على العريضة فستأتي الشرطة لمضايقته أكثر من ذي قبل، وستبدأ يدا تيريزا بالارتجاف أكثر من ذي قبل.

قال: «إن إنقاذ زاغٍ مدفون حيّاً لَهُو أكثر أهمية بكثير من إرسال عريضة إلى رئيس الجمهورية».

كان يعرف أن لا أحد سيفهم حرفاً مما يقوله، وكان هذا الأمر خاصة يزيده رضى. كان يشعر بنشوة مفاجئة وغير متوقعة. تلك النشوة السوداء نفسها حين أعلن لزوجته بأنه لم يعد راغباً في رؤيتها، لا هي ولا ابنها. تلك النشوة السوداء نفسها حين رمى الرسالة التي ضمّنها تخلّيه إلى الأبد عن مهنة الطبيب، في صندوق البريد. لم يعد واثقاً إطلاقاً من أنه يتصرف بشكل

حسن، إنما كان واثقاً من أنه يتصرف حسب ما كان يرغب.

فقال: «أعذراني، لن أوقّع».

15

بعد مرور بضعة أيام، أخذت الجرائد كلها تتحدث عن العريضة.

بالطبع، لم يجرِ الحديث على أن العريضة كانت مجرد التماس بسيط لصالح المساجين السياسيين، أو أنها كانت مطالبة لإعتاقهم من السجن. لا، لم ترد في أية صحيفة جملةٌ من هذا النوع. وإنما كانت موضوعات الصحف ستتحدث مطوّلاً وبعبارات غامضة ومتوعدة عن دعوة مخربة لا بدّ أنها تشكل ذريعة لإشعال فتيل حرب جديدة ضد الاشتراكية. كانت أسماء الموقعين منشورة بحذافيرها ومصحوبة بشتائم وكلمات لاذعة تقشعر لها الأبدان.

كان الأمر متوقعاً بالطبع. فكل نشاط علني (تجمعاً كان أو عريضة أو تظاهرة في الشارع) لا ينظمه الحزب الشيوعي يُعتبر غير قانوني ويعرض للخطر كل من يشارك فيه. الجميع كانوا على علم بهذا الأمر. وربما هذا هو السبب الذي حدا بتوماس لأن يلوم نفسه أشد الملامة، لعدم توقيعه العريضة. فما الذي منعه بجدّ من توقيعها؟ ما عاد يفهم بوضوح الحوافز الكامنة وراء هذا الرفض.

وها إني أراه مرة ثانية كما بدا لي في أول هذه الرواية: أمام النافذة، ينظر عبر الباحة إلى حائط البناية المقابل.

إنه وليد هذه الصورة. فكما سبق وقلت لكم، أشخاصي لا يولدون من أجساد أمهاتهم كما تولد الكائنات الحية، ولكنهم يولدون من حالة أو من جملة أو من استعارة تحوي في داخلها برعم احتمالٍ إنساني صميم يُخيَّل للكاتب أنه لم يتسنَّ له اكتشافه بعد أو أنه لم يكتب عنه شيئاً يستحق الذكر حتى الآن.

ولكن، ألا يجري التأكيد دائماً على أن الكاتب لا يسعه أن يتحدث إلا عن ذاته؟

فالنظر بعجز عبر الباحة وعدم التوصل إلى قرار، وسماع القرقرة المعاندة للبطن أثناء لحظة احتدام عاطفي، والخيانة والعجز عن التوقف على متابعة الطريق الرائعة للخيانات، ورفع القبضة في موكب المسيرة الكبرى، وعرض النكات أمام آلات التسجيل التي أخفتها الشرطة، كل هذه الحالات عرفتها وعشتها بنفسي، لكنّ أيّاً من هذه الشخصيات لا تتحدر من هذه الشخصية التي هي أنا والموجودة في بيان سيرتي. فشخصيات روايتي هي إمكاناتي الشخصية التي لم تتحقق. هذا ما يدفعني لأن أحبهم كلهم ولأن أرتعب منهم في الوقت نفسه. ذلك أن كل واحد منهم عَبَر حدوداً ليس في مستطاعي سوى الالتفاف حولها. وهذه الحدود التي عبروها (والتي بعدها تنتهي «أناي») هي ما يشدني إليهم. لأن في هذا الجانب الآخر وحده يبدأ السر الذي تسبر غوره الرواية. فالرواية ليست اعترافاً ذاتياً للكاتب، وإنما تنقيب عمّا تصيره الحياة الإنسانية في الفخ الذي يسمّى العالم. ولكن هذا يكفي. فلنعدْ إلى توماس.

توماس أمام النافذة ينظر عبر الباحة إلى الحائط المتسخ للبناية المقابلة، ويشعر بنوع من الحنين إلى ذلك الرجل طويل القامة ذي الذقن الطويل والمعقوف، وإلى أصدقائه الذين لم يعرفهم والذين لا ينتمي إليهم. كمن يلتقي بجميلة مجهولة على رصيف المحطة وقبل أن يتسنى له الوقت للدنو منها، تكون قد صعدت إلى عربة ـ نوم في قطار متجه نحو ليشبونة أو إسطنبول.

أخذ يفكر من جديد: ماذا كان يجدر به أن يفعل. حتى عندما كان يطرح جانباً كل ما له علاقة بالمشاعر، (مثلاً الإعجاب الذي كان يبديه بالصحافي والغضب بسبب ابنه) فهو لم يكن يتوصل إلى معرفة هل كان عليه أن يوقع على النص الذي عُرض عليه أم لا.

هل صحيح أنه يجب علينا أن نرفع صوتنا حين يُسكت أحدهم رجلاً؟ نعم.

ولكن من جهة ثانية: لماذا كانت الصحف تعلّق أهمية كبيرة على هذه العريضة. ألم يكن بإمكان الصحافة (وهي تقع بأكملها تحت إشراف الدولة)

ألا تنبس بكلمة فيما يتعلق بالقضية من الأساس فلا يعلم شيئا عنها؟ إذا كانت قد تحدثت عنها فهذا يعني أن الأمر يلائم أسياد البلاد! وأن هذه أعطية من السماء يستخدمونها من أجل تبرير حملة جديدة من الاضطهادات.

إذاً، ماذا كان يجدر به أن يفعل؟ التوقيع أو عدمه؟

بالإمكان أيضاً صوغ السؤال على الشكل التالي: أيهما أفضل، الصراخ والتبجيل في نهايتنا، أم السكوت والحَوْز على احتضار أكثر بطئاً؟

أيوجد جواب واحد لهذه الأسئلة؟

ومن جديد خطرت له فكرة سبق لنا أن عرفناها وهي: الحياة الإنسانية لا تحدث إلا مرة واحدة، ولن يكون في وسعنا أبداً أن نتحقق أي قرار هو الجيد وأي قرار هو السيء، لأننا في كل الحالات لا يمكننا إلا أن نقرر مرة واحدة. لأنه لم تعطَ لنا حياة ثانية أو ثالثة أو رابعة حتى نستطيع أن نقارن بين قرارات مختلفة.

وحال التاريخ كحال الإنسان. فالتشيكيون يملكون حكاية تاريخ واحدة. وذات يوم ستنتهي هذه الحكاية مثل حياة توماس دون أن يقدَّر لها أن تتكرر مرة ثانية.

ففي سنة ١٦١٨، تشجّع نبلاء بوهيميا وقرروا أن يدافعوا عن حرياتهم الدينية. ومن شدة حنقهم على الأمبراطور الجالس على عرشه في ڤيينا، ألقوا من نافذة هرادشين باثنين من ممثّليه الرفيعي المستوى. وهكذا ابتدأت حرب الثلاثين عاماً التي أدّت إلى إباحة شبه تامة للشعب التشيكي. فهل كان التشيكيون يحتاجون آنذاك إلى الحذر أكثر مما كانوا في حاجة إلى الشجاعة؟ قد يبدو الجواب سهلاً ولكنه ليس كذلك.

بعد ثلاثمائة وعشرين سنة من هذا التاريخ، أي في سنة ١٩٣٨ وعلى إثر مؤتمر ميونيخ، قرر الشعب بأكمله أن يتخلى عن بلاده لهتلر. إذْ هل من المعقول أن يقاتلوا آنذاك لوحدهم عدوّاً يفوقهم عدداً بثماني مرات؟ لقد أظهروا إذاً، خلافاً لما فعلوا في سنة ١٦١٨، من الحذر أكثر مما أظهروا من الشجاعة. إن استسلامهم هذا أرّخ لبداية الحرب العالمية الثانية التي انتهت

بخسارتهم الكاملة لحريتهم كأمة مستقلة لعشرات السنين ولعدة قرون ربما، فهل كانوا عندها يحتاجون إلى الشجاعة أكثر مما كانوا في حاجة إلى الحذر؟ ماذا كان عليهم أن يفعلوا؟

لو كان بإمكان التاريخ التشيكي أن يعيد نفسه، لكانت التجربة للاحتمال الآخر أمراً مهماً بالطبع، لأنه إذ ذاك يمكن المقارنة بين النتيجتين. ولكن، بانعدام وجود هذه التجربة، فإن هذه البراهين كلها تبقى لعبة افتراضات.

مرة واحدة ليست في الحسبان، مرة هي أبداً. تاريخ بوهيميا لن يتاح له أن يتكرر مرة ثانية ولا تاريخ أوروبا أيضاً. فتاريخ بوهيميا وتاريخ أوروبا هما محاولتان خطّهما انعدام الخبرة المحتم للبشرية. فالتاريخ خفيف بقدر ما هي الحياة الإنسانية خفيفة، خفيفة بشكل لا يطاق، خفيفة مثل الوبر، مثل غبار متطاير، مثل شيء سيختفي غداً.

فكّر توماس بشيء من الحنين أو من الحب ربّما في الصحافي الطويل القامة والمحني الظهر. كان ذلك الرجل يتصرف وكأن كل ما يفعله سوف يتكرر مرات لا عدّ لها في سياق العود الأبدي. كان توماس متأكداً من أنه لا يشك في أعماله، ومقتنعاً بأنه كان على حق. وهو لا يرى في يقين الرجل هذا دليلاً على بلادة الذهن بل علامة على فضيلة. كان يعيش في حكاية مختلفة عن حكاية توماس، في حكاية لم تكن محاولة أولية (أو لم تكن تعي نفسها على أنها كذلك).

16

بعد ذلك بوقت قصير، خطرت له أيضاً هذه الفكرة. وأُنوِّه بها لألقي ضوءاً على الفصل السابق: لنفرض أن هناك كوكباً آخر في الكون حيث يمكن أن نولد مرة ثانية، وحيث يمكن أيضاً أن نتذكر تماماً ما حصل لنا في حياتنا السابقة على الأرض وكل التجربة التي اكتسبناها في هذه الدنيا.

ولنفرض أن هناك ربما كوكباً ثالثاً حيث يستطيع كل منا أن يبصر النور

مرة ثالثة مزوّداً بالخبرة التي اكتسبها خلال الحياتين السابقتين اللتين عاشهما.

وأن هناك أيضاً وأيضاً كواكب أُخرى حيث يمكن للجنس البشري أن يلد من جديد مرتقياً في كل مرة درجةً (أي حياة) على سُلَّم الكمال.

تلك هي الفكرة التي يكوّنها توماس عن العَوْد الأبدي.

نحن أيضاً سكان هذه الأرض (أي الكوكب رقم واحد، كوكب انعدام الخبرة)، ليس في إمكاننا طبعاً إلا أن نكوّن فكرة غامضة جداً عما سيصير بحال الإنسان في الكواكب الأخرى. تُرى هل سيكون أكثر ثقلاً؟ هل سيكون الكمال في متناول يده؟ وهل سيتمكن من الوصول إليه بواسطة التكرار؟

ضمن أفق هذه اليوطوبيا وحده، يمكن لمفهومي التشاؤم والتفاؤل أن يكون لهما معنى: فالمتفائل هو ذلك الذي يتصور أن التاريخ الإنساني سيكون أقل ديمومة على الكوكب رقم ٥. والمتشائم هو ذلك الذي لا يصدّق هذا الأمر.

17

لجول ڤيرن رواية شهيرة كان يحبها توماس كثيراً عندما كان طفلاً وتدعى «سنتان من العطلة». وهذا صحيح، فإن الحد الأقصى لعطلة ما هو سنتان. وها قد انقضت ثلاث سنوات تقريباً وتوماس لا يزال منظّفاً للزجاج.

خلال هذه الأسابيع الأخيرة، أخذ يكتشف (بحزن ولكن أيضاً بفرح غامض) أنه بدأ يتعب جسدياً (كان يشن كل يوم معركة وأحياناً معركتين جنسيتين) وأنه، دون أن يفقد شيئاً من شهيته للنساء، لم يكن في استطاعته ممارسة الجنس معهنّ إلّا لقاء شحن كامل لقواه كلها (لا أعني قواه الجنسية وإنما قواه الجسدية، فهو لم يكن يعاني صعوبات مع قضيبه بل مع نَفَسه. وهذا بالضبط ما كان يبدو له مضحكاً).

كان يحاول ذات يوم أن يعيّن موعداً لفترة ما بعد الظهر. ولكن، وكما

يحدث أحياناً، لم تردّ أي صديقة من صديقاتـه على الهاتف فـأوشك مـا بعد الظهر أن يكون قاحلاً. كان يشعـر باليأس. حاول أن يتصـل عشرات المـرات بامرأة شابة كانت طالبـة في معهد التمثيـل وجميلة جداً. كـان جسدهـا الذي ذهّبته الشمس على أحد شواطىء العراة في مكان ما من يـوغوسـلافيا يـزدهي بسمرة متسقة تماماً وكأنه قُلّب على شيش يدور بحركة عجيبة دقتها.

خابرهـا من كل المخـازن حيث كان يعمـل ولكن دون جدوى. ونحـو الساعة الرابعة، عندما كان راجعاً بعد انتهاء جـولته إلى المكتب ليقـدم لوائـح الحساب الموقّعة، نادته واحدة في شارع وسط براغ. كـانت تبتسم له قـائلة: «دكتور، أين كنت تختبىء! لقد سهوْتَ عن بالي تماماً!».

كان تومـاس يبذل جهـداً ليتذكـر من أين كان يعـرفها. هـل هي إحدى مريضاتـه القديمـات؟ كانت تتصـرف معه وكـأنها صـديقة حميمـة فحاول أن يجيبها بطريقـة لا تُظهـر أنه لا يعـرف مَنْ تكون. وعنـدما كـان يتسـاءل كيف سيقنعها بمرافقتـه إلى شقة صـديقه الصغيـرة والتي يملك مفتاحهـا في جيبه، كشفت لـه ملاحـظة مفاجئـة عمّن تكون هـذه المرأة: إنهـا الطالبـة في معهد التمثيل، صاحبة الجسد البرونزي الرائع التي كـان يخابـرها دون تـوقف طيلة النهار.

أمتعه هذا الحادث المزعج وأرعبه في الوقت نفسه: فهو لم يكن منهكاً جسدياً فحسب بل عقلياً أيضاً. فَسَنتا العطلة لا يمكن إطالتهما إلى غير أمد.

18

كانت العطلة دون طاولة العمليـات عطلة أيضـاً دون تيريـزا: فإن أيـاماً بكاملها كانت تمر دون أن يتقابلا. وحين يجتمعان أخيراً في يوم الأحد، كـانا يمثلان رغبة واحدهما للآخر ولكن يظلّان بعيدين كمـا في ذلك المسـاء حين رجع توماس من زوريخ وتوجَّب عليهما أن يجتازا طريقاً طويلة قبـل أن يقدرا على التلامس أو المعانقة. كانت العلاقة الجنسيـة تمنحهما المتعـة ولكنها لا تمنحهما أية مؤاساة. فهي لم تعد تصرخ كما كانت تفعل من قبـل حين كانت تصل إلى لحظة النشوة، بل كانت تبدو تكشيـرتها وكـأنها تعبّـر عن الألم وعن

غياب غريب. لم يكونا متحدين بحنان إلاّ في الليل أثناء النوم. كانا يمسكان دائماً بأيديهما فتَنسى عندئذ الهاوية (هاوية ضوء النهار) التي كانت تفصل بينهما. ولكن هذه الليالي لم تكن تعطي توماس لا الوقت ولا الوسيلة لحمايتها والاعتناء بها. لذلك فهو عندما كان يراها في الصباح ينقبض قلبه ويرتجف خوفاً من أجلها: كانت تبدو حزينة ومتوعكة.

ذات يوم اقترحت عليه أن يركبا السيارة وينطلقا إلى مكان ما في الريف. ذهبا إلى مدينة المياه المعدنية حيث اكتشفا أن جميع الشوارع هناك قد تغيرت أسماؤها وأصبحت روسية، وحيث التقيا بأحد مرضى توماس القدامى. أثَّر فيه هذا اللقاء. فها إن أحداً يتحدث معه فجأة كما يجري التحدث مع طبيب. لقد اعتقد لوهلة أنه استعاد حياته السابقة بنظاميتها المريحة وساعات المعاينة ونظرات المرضى الواثقة التي كان يتظاهر بأنه لا يعيرها اهتماماً فيما هي تمنحه حقاً الرضى الذي يفتقر إليه.

أخذ توماس إذاً يردد في نفسه، وهو يقود السيارة أثناء عودتهما، أن رجوعهما من زوريخ إلى براغ كان خطأ فادحاً. كان يُبقي عينيه مسمّرتين باتجاه الطريق كي يتحاشى رؤية تيريزا. كان حضورها إلى جانبه ينكشف له في كل احتماليته التي لا تطاق. فلماذا كانت إلى جانبه؟ ومن ذا الذي وضعها في سلة وتركها لتجري مع المياه؟ ولماذا قُدّر لها أن ترسو على سرير توماس؟ ولماذا هي بالذات دون سواها؟

كانا يسيران في السيارة ممتنعين من الكلام طيلة الطريق.

كان الصمت ينتصب بينهما كالشقاء، ويثقل في كل دقيقة. ولكي يتخلصا منه ذهبا بعجلٍ إلى النوم. وأثناء الليل أيقظها ليخلّصها من نحيبها فأخبرته: «كنت مدفونة. منذ زمن بعيد. وكنت تأتي لزيارتي كل أسبوع. كنت تقرع على السرداب فأخرج. كانت عيناي ممتلئتين تراباً».

كنت تقول: «أنتِ لا تستطيعين أن تري شيئاً». ثم أخذْتَ تزيل التراب عن عينيَّ.

وكنتُ أرد عليك: لكني في جميع الأحوال لن أرى شيئاً. فهناك فجوات مكان العينين.

ثم ذهبْتَ مدة طويلة وكنتُ أعرف أنك برفقة امرأة أُخرى. كانت الأسابيع تمر وأنت لا تعود. وأنا لم أعد أنام إطلاقاً، لأنني كنت أخاف من أن أفوّت عودتك. وذات يوم رجعت أخيراً وقرعت على السرداب، ولكني كنت منهكة لأنني لم أنم من شهر كامل، فبالكاد كانت لي القوة لأخرج من السرداب. وعندما تمكنْتُ من ذلك أخيراً، كنتَ تبدو وكأنك خائب. كنت أعرف أنني لا أروق لك وأن خديَّ متجوفان وأنني أقوم بحركات فظة وغير متماسكة.

ولكي أعتذر إليك، قلت: سامحني لم أنم منذ ذلك الوقت.

فقلْتَ لي بصوت مطمئن، لكن خادع: أرأيتِ، يجب أن ترتاحي، أن تأخذي عطلة شهر.

وكنت أعرف جيداً ماذا تقصد وأنت تتحدث عن العطلة! كنتُ أعرف أنك تريد أن تبقى شهراً كاملاً دون أن تراني لأنك ستكون برفقة واحدة أُخرى. ذهبْتَ ونزلْتُ أنا من جديد إلى عمق القبر. كنت أعرف أنني سأبقى شهراً آخر دون نوم لأني لا أريد أن أفوّت عودتك. وأعرف أيضاً أنك حين ستعود بعد شهر، سأكون أشد قبحاً وستكون أكثر خيبة من قبل».

لم يكن قد سمع في حياته حكاية مزّقت قلبه كهذه الحكاية. أخذ يضم تيريزا وجسدها يرتعش بين ذراعيه. كان يفكر أنه لم تعد لديه القوة ليتحمل الحب الذي يكنّه لها.

بإمكان الكوكب أن يتهاوى على أثر تفجير القنابل. ويمكن للوطن أن ينهبه كل يوم مختلس جديد، ويمكن لسكان الحي جميعهم أن يُساقوا إلى كتيبة الإعدام. يمكنه أن يتحمل كل هذا بسهولة أكبر مما يجرؤ على القول، ولكنه غير قادر على تحمل الحزن الذي يسببه حلم واحد من أحلام تيريزا.

كان يرجع إلى داخل الحلم الذي أخبرته به لتوّها: كان يراها أمامه: كان يداعب وجنتيها ثم يزيل التراب، بحذرٍ شديد لئلا تلاحظ شيئاً، من فجوتي عينيها. ويسمعها تقول هذه الجملة، الجملة الأكثر إيلاماً بين الجمل كلها: «لكني في جميع الأحوال لن أرى شيئاً. هناك فجوات مكان العينين».

كان قلبه ينقبض ويشعر أنه على شفير أن يصاب بالسكتة القلبية.

عادت تيريزا إلى النوم من جديد. ولكنه هو لم يستطع النوم. كان يتخيلها ميتة وترى أحلاماً رهيبة. ولم يكن في استطاعته إيقاظها لأنها ميتة. نعم، هذا هو الموت: أن تنام تيريزا وترى أحلاماً فظيعة دون أن يتمكن من إيقاظها.

19

خمس سنوات قد مرّت على اجتياح الجيش الروسي لبلاد توماس وبراغ كانت تتغير كثيراً: لم يكن الناس الذين يصادفهم توماس في الشارع هم أنفسهم الذين كان يراهم في السابق وكان نصف أصدقائه قد هاجروا والنصف الآخر الذين لم يهاجروا، ماتوا. وهذا الحدث لن يدوّنه أي مؤرخ. كانت السنوات التي أعقبت الاجتياح الروسي، سنوات مآتم، إذ لم يسبق أن حدثت وفيّات بهذه الكثرة. لا أتكلم فقط عن الحالات (وهي نادرة على كل حال) حيث طُورد أناس حتى الموت كما حصل ليان بروشازكا. فبعد مرور خمسة عشر عاماً على إذاعة أحاديثه الخاصة المسجّلة عبر الراديو يومياً، أُدخل إلى المستشفى. لا شك أن السرطان الذي كان يرقد سراً داخل جسده منذ فترة طويلة بدأ يتفتح مثل وردة. أجريت العملية له بحضور الشرطة. وعندما اكتشفت هذه الأخيرة بأن ليس هناك من أمل في شفائه، كفّت عن الاهتمام به وتركته يموت بين ذراعي زوجته. ولكن الموت كان ينزل أيضاً بهؤلاء الذين لم يكونوا مضطهدين مباشرة. كان اليأس الذي ضرب البلاد مستأثراً بالأجساد وزارعاً الذعر فيها ينفذ أيضاً إلى الروح. كان البعض يتهربون من النِعَم التي كان النظام يريد أن يغدقها عليهم لإجبارهم علانية على الظهور إلى جوار القادة الجدد. هكذا حصل مع الشاعر فرانتزك هروبين الذي مات وهو يتهرب من محبة الحزب. فلحقه وزير الثقافة، وهو الذي كان حاول بكل ما أوتي من قوة الفرار منه، حتّى النعش وألقى على قبره خطبة ضَمَّنها محبة الشاعر للاتحاد السوفياتي. ربما تلفظ بهذا الكلام الشنيع لعلّه يُقيم الميت من رقاد. ولكن العالم كان من البشاعة بحيث أن لا أحد كان يريد

أن يُبعث من بين الأموات.

ذهب توماس إلى محرقة الجثث لحضور مأتم عالم إحياء شهير كان قد طُرِدَ من الجامعة ومن أكاديمية العلوم. ولكي يتجنبوا أن تنقل الجنازة إلى تظاهرة، كانوا يحظّرون الإشارة إلى ساعة الدفن على أوراق النعي. ولم يبلّغوا الأقارب إلا عند آخر لحظة بأن الفقيد سيتم إحراقه في الساعة السادسة والنصف صباحاً.

عندما دخل توماس إلى صالة مَحْرقة الجثث، وجد صعوبة في فهم ماذا كان يجري. كانت الصالة مضاءة وكأنها صالة أستوديو. نظر حواليه مدهوشاً فلمح آلات التصوير في ثلاث زوايا من الصالة. لا، ليس موظفو التلفزيون هم الذين يقومون بالتصوير. بل كانت الشرطة تصور حفل الجنازة لكي تتحقق من هوية المشتركين فيه. ثم اجترأ زميل قديم للفقيد، وهو كان لا يزال عضواً في أكاديمية العلوم، على إلقاء بضع كلمات أمام النعش. لم يكن يفكر أنه سيصير بهذه السهولة نجماً سينمائياً.

بعد الجنازة وبعد أن صافح الجميع عائلة الفقيد، لمح توماس في إحدى زوايا الصالة جماعة صغيرة فتَعرّف فيها إلى الصحافي صاحب القامة الطويلة والمحنية. شعر من جديد بالحنين إلى هؤلاء الناس الذين لا يهابون شيئاً والذين تربطهم بعضهم ببعض صداقة قوية. اقترب منه وابتسم له هامّاً بأن يقول صباح الخير ولكن الرجل ذا الجسد الفارع والمنحني قال له: «احذر يا دكتور، من الأفضل ألّا تقترب».

كانت هذه الجملة غريبة. فهو كان يرى فيها إنذاراً صادقاً ومحباً («احترس، إنهم يصوروننا، لو توجهت إلينا بالكلام ستكون عندها نافعاً في استجواب جديد»). ولكنه لم يكن يستبعد في الوقت نفسه أنها كانت تتضمن نبرة ساخرة («لم تتسنَّ لك الشجاعة لتوقع على العريضة. كن منطقياً إذاً ولا تتعاطَ معنا»). أيّاً كان التأويل الصائب لهذه الجملة، فإن توماس امتثل وانسحب. كان يشعر أن تلك الجميلة المجهولة التي صادفها على رصيف المحطة كانت تصعد إلى عربة نوم في قطار سريع. ثم في اللحظة التي أراد أن يُسرّ لها بإعجابه، وضعت إصبعها على شفتيها لتمنعه من الكلام.

وفي فترة ما بعد الظهر أيضاً جرى له لقاء هام. كان يقوم بتنظيف واجهة أحد محلات الأحذية عندما توقّف رجل شاب على بعد خطوتين منه. انحنى الرجل فوق الواجهة ليتفحص الأسعار.

«كل شيء يزداد ثمناً»، قال توماس دون أن يكف عن تمرير اسفنجته على الزجاج المبلّل.

التفت الرجل. كان ذلك الزميل في المستشفى الذي دعوْتُه س. . . والذي كان يبتسم ساخطاً على توماس معتقداً أن هذا الأخير كتب رسالة النقد الذاتية. سُرَّ توماس لهذا اللقاء (إنها المتعة الساذجة التي تجلبها لنا الصدفة) ولكنه ما لبث أن لمح في نظرة زميله (فهو لم يتسنَّ له في الثانية الأولى الوقت ليتحكم بردة فعله) تعبيراً عن مفاجأة لا تروق له.

ــ كيف الحال؟ سأل س. . .

وقبل أن يصوغ جوابه فهم توماس أن س. . . كان خجلاً من سؤاله. . كان جلياً أنه تصرف أحمق أن يبادر طبيب لا يزال يمارس مهنته إلى أن يسأل طبيباً ينظف الواجهات، عن حاله.

«في أحسن ما يكون». أجاب توماس وهو يتصنّع المرح لكي يخفف عن الطبيب انزعاجه. لكنه أحس فوراً أن عبارة «في أحسن ما يكون» يمكن أن تؤول رغماً عنه (وبسبب النبرة الفكهة التي لجأ إليها بالذات).

لذلك استعجل يقول: هل هناك من جديد في المستشفى؟

فأجاب س. . . : لا، كل شيء، لمّا يزلْ على حاله.

ولكن هذا الجواب والذي كان يتظاهر بأنه محايد كلياً، كان في غير موضعه تماماً. وكلّ منهما يعرف ذلك ويعرف أن الآخر يعرف: إذ كيف بإمكان كل شيء أن يكون على حاله فيما أحد الطبيبيْن منظّف زجاج؟

ثم قال توماس متحرياً: «ورئيس القسم؟».

ـ ألا تراه؟ سأل س. . .

فقال توماس: «لا».

كان هذا صحيحاً. فهو منذ رحيله عن المستشفى لم يرَ قط رئيس القسم ثانية، مع أنهما كانا في السابق معاونين ممتازين وحتى أنهما كانا يميلان تقريباً إلى أن يعدّا نفسيهما صديقين. ومهما يكن، فإن «اللاّ» التي تلفَّظ بها لتوه كان فيها شيء من الحزن. فأخذ توماس يشك بأن س. . . قد استاء منه لأنه طرح عليه هذا السؤال ذلك أن س. . . بالذات ورئيس القسم لم يأتيا قط إلى زيارة توماس والسؤال عن أحواله أو عمّا إذا كان محتاجاً لشيء.

كان الحوار بين الزميلين القديمين يصير مستحيلاً، ولو أن كليهما يأسف لذلك وخصوصاً توماس. فتوماس لم يكن يحمل أي ضغينة لأصدقائه بسبب أنهم نسوه. وكان في نيته أن يشرح ذلك في الحال إلى الطبيب الشاب. كان راغباً في أن يقول له: لا تكلّف نفسك هذا الانزعاج. فأمْرٌ طبيعي أنك لم تحاول التردد لزيارتي، فهذا يسير وفق المجرى المعروف للأمور لا داعي لأن تحمل نفسك أي شعور بالخجل! فهذا من دواعي سروري أن ألتقيك!» ولكنه لم يجرؤ على هذا القول، لأن أيّاً من كلماته لم يتضمن هذا المعنى الذي يحمّلها إياه الآن. وفوق ذلك، يمكن لزميله القديم ساعتها أن يشتبه بأنه يُضمر سخريةً وراء جملة صادقة على كل حال.

وأخيراً قال س. . . «اعذرني، إني مستعجل». ثم صافحه وقال: «سأتصل بك».

في السابق، حين كان زملاؤه يحتقرونه بسبب جبانته المفترضة كانوا يتبسمون له كلهم. أما الآن، وفيما لم يعودوا قادرين على احتقاره، لا بل صاروا مرغمين على احترامه، فقد بدأوا يتحاشونه.

وفضلاً عن ذلك، فإن مرضاه القدامى لم يعودوا يدعونه إلى عبّ الشمبانيا احتفالاً به. والسبب أن وضع المثقفين المبعدين لم يعد استثنائياً بل صار حالة مستمرة وغير مستحبّة.

21

رجع إلى البيت ثم اندسَّ في الفراش ونام بسرعة أكثر من المعتاد. بعد نحو ساعة تقريباً، أيقظه ألم في معدته. كان هذا ألمه القديم الذي يعاوده في لحظات الإحباط. فتح خزانة صيدليته، لا توجد هناك أدوية. شتم. . لقد نسي أن يتزود منها، فحاول أن يخمد نوبة الألم بقوة الإرادة ووُفِّق إلى ذلك تقريباً، ولكنه لم يستطع الرجوع إلى النوم. عندما عادت تيريزا عند الواحدة والنصف صباحاً، رغب في أن يتحدث إليها. أخبرها عن الدفن وعن الصحافي الذي رفض التحدث معه وعن لقائه بزميله س. . .

قالت تيريزا: براغ تصير بشعة.

قال توماس: هذا صحيح.

بعد فترة قصيرة، قالت تيريزا بصوت منخفض: الأفضل هو أن ترحل عن هنا.

قال توماس: أجل. لكن ليس في إمكاننا الذهاب إلى أي مكان.

كان يجلس على السرير مرتدياً بيجامته. جاءت وجلست قربه ثم طوّقته بذراعها.

قالت تيريزا: إلى الريف.

قال مدهوشاً: إلى الريف؟

ـ هناك سنكون لوحدنا. لن نلتقي لا الصحافي ولا زملاءك القدامى. هناك سنلتقي أناساً مختلفين والطبيعة التي ما زالت على عهدها.

عندها أحسّ توماس من جديد بألم غامض في معدته. كان يشعر أنه عجوز وأن لا رغبة له في شيء آخر عدا قليل من الطمأنينة والسلام.

ثم قال بعد جهد، لأنه يتنفس بصعوبة عندما يكون مريضاً: «ربما أنت على حق».

أردفت تيريزا: سيكون عندنا كوخ وحديقة صغيرة وستمضي كارينين

هناك أوقاتاً ممتعة جداً.

ــ نعم. قال توماس.

ثم حاول أن يتصور ماذا سيحدث لو أنهما ذهبا حقاً للعيش في الريف. هناك سيجد صعوبة في أن يحظى بامرأة جديدة كل ثمانية أيام. هناك ستكون إذاً خاتمة مغامراته الجنسية.

كان الألم يزداد، ولم يعد في استطاعته الكلام. فكّر أن مطاردته للنساء كانت هي أيضاً «ما ليس منه بدٌّ» وضرورة تستعبده. كان راغباً حقاً في أن يأخذ عطلة. ولكن عطلة تامة وتسريحاً من الضرورات كلها. إذا كان قد استطاع في السابق أن يطلب تسريحاً من طاولة العمليات في المستشفى، فلماذا لا يكون في إمكانه أيضاً أن يطلب تسريحاً من طاولة عمليات العالم حيث كان يفتح بمبضعه الخيالي خزنة «الأنا» الأنثوية فيكتشف هذا الجزء من مليون من الاختلاف؟

وأخيراً لاحظت تيريزا: هل معدتك تؤلمك؟

ردَّ بالإيجاب.

ــ هل حقنت نفسك بإبرة؟

أجاب نفياً برأسه، ثم أضاف: نسيت أن أشتري أدوية.

لامته على إهماله وداعبت جبينه العرِق.

قال: أنا الآن أحسن حالاً.

قالت: «تمدد» ثم دثّرته بالعطاء. ذهبت إلى غرفة الحمام ثم عادت بعد قليل لتتمدد إلى جانبه.

أدار رأسه نحوها على الوسادة فأصيب بالذهول: كان الحزن المنبعث من عيني تيريزا غير محتمل.

قال: اسمعيني يا تيريزا! ماذا بك؟ أنتِ غريبة الأطوار منذ فترة. أشعر بذلك وأعرفه.

هزت رأسها: لا، ليس بي شيء.

ـ لا تنكري!

قالت: إنه الأمر نفسه دائماً.

«الأمر نفسه دائماً»، هذا يعني إذاً أنها كانت تشعر بالغيرة وأنه كان خائناً باستمرار.

ولكن توماس كان يُصر: لا يا تيريزا، هذه المرة، الأمر مختلف. فأنا لم أركِ في مثل هذه الحالة من قبل.

احتجت تيريزا قائلة: حسناً، ما دمت تريد أن أقول لك: قم واغسلْ رأسك!

لم يكن يفهم.

قالت بحزن ودون عدائية وبشيء من الحنان: لشعرك رائحة نفّاذة منذ عدة أشهر. تفوح منه رائحة فرْج. لم أكن أريد أن أقول لك ذلك. ولكن ها إني لا أعرف كم من الليالي جعلتني أتنشق رائحة فرج إحدى عشيقاتك.

وعلى إثر هذه الكلمات، عاودته تشنجات معدته. كان الأمر ميؤوساً منه. فهو كان يغتسل بإفراط ويفرك جسمه كله يديه ووجهه بعناية فائقة كي لا يترك أي أثر لرائحة غريبة. كان يتحاشى في حمّامات النساء الأخريات أن يستعمل الصابون المعطّر. بل كان يتزود دائماً بصابونه الخاص المستورد من مرسيليا. لكن غاب عن باله أن يغسل شعره. أما الشعر فلا، لم يكن يفكر في الأمر!

تذكّر عندئذ المرأة التي كانت تفرشخ فوق رأسه وتأمره بأن يضاجعها بواسطة وجهه وأعلى جمجمته. كما كان يكرهها الآن! ويكره هذه الأفكار البلهاء! كان يجد أنه لا توجد وسيلة لأن ينكر. فهو لا يسعه إلا أن يضحك بسذاجة ويتحضر للذهاب إلى غرفة الحمام ليغسلَ رأسه.

أخذت تداعب جبينه من جديد. «إبقَ في سريرك. لا تحمّل نفسك هذا العناء. لقد تعودت الآن على الأمر».

كانت معدته تؤلمه ولم يكن راغباً إلا في الهدوء والسلام.

قال: سأكتب رسالة إلى ذلك المريض الذي التقيناه في مدينة المياه المعدنية. هل تتذكرين في أي منطقة توجد قريته؟

قالت تيريزا: لا.

كان توماس يشعر بمشقة في الكلام. كان يوفّق فقط إلى تلفظ بعض الكلمات: «غابات... تلال...».

ـ «أجل، هذا ما عنيت. فلنرحل عن هنا». ولكن توقَّفْ عن الكلام الآن. كانت لا تزال تداعب جبينه. كانا متمددين جنباً إلى جنب دون أن يقولا شيئاً. أخذ الألم ينحسر ببطء. وبعد قليل، استسلم كلاهما إلى النوم.

22

استيقظ في ساعة متأخرة من الليل متعجباً من اكتشافه أنه رأى أحلاماً جنسية في منامه. كان لا يتذكر بوضوح إلا الحلم الأخير: كانت هناك امرأة عملاقة تسبح عارية في بركة للسباحة. كانت أطول منه بخمس مرات وبطنها مكسواً بشعر كثيف يمتد من بين فخذيها وحتى السرّة. كان يراقبها من عند الحافة وهو في أشد الهياج.

كيف أمكنه أن يكون مهتاجاً في الوقت الذي كانت تهدُّ جسدَه آلامُ معدته؟ كيف أمكنه أيضاً أن تهيجه رؤية امرأة لا يسعها إلا أن تشعره بالقرف فيما لو كان مستيقظاً؟

فقال في نفسه: هناك عجلتان مسننتان تدوران في اتجاه مخالف داخل آلات ساعة الدماغ. على واحدة منهما الرؤى وعلى العجلة الثانية ردّات فعل الجسد. فالسن الذي انطبعت عليه صورة امرأة عارية يتشابك في الجهة المقابلة مع السن الذي سجّلت عليه ضرورة الانتصاب. فلنفترض أن العجلة قفزت سناً واحداً لسبب أو لآخر. وأن سنّ التهيّج اتصل صدفة بالسنّ الذي رسمت عليه صورة لسنونوة في عزّ طيرانها، عندها سينتصب قضيبنا لمرأى هذه السنونوة.

من جهة ثانية، كان توماس قد اطلع على دراسة أجراها أحد زملائه وهو اختصاصي في مجال النوم. كان يؤكّد فيها أن الرجل الذي يحلم، هو في حالة انتصاب دائمة أياً يكن حلمه، ارتباط الانتصاب بصورة امرأة عارية ليس إذاً إلا طريقة تعيير اختارها الخالق من بين آلاف الاحتمالات ليضبط بها حركة آلات الساعة في رأس الرجل.

أما ما علاقة كل ذلك بالحب؟ فلا شيء. إذا دارت عجلة سناً واحدة في رأس توماس فتهيج لمرأى سنونوة، فهذا لن يغيّر شيئاً في حبه لتيريزا.

إذا كان الهياج الجنسي آلية يتسلى بها الخالق، فإن الحب، خلافاً لذلك لا ينتمي إلا إلينا ويمكننا من خلاله الإفلات من قبضة الخالق. فالحب هو حريتنا. الحب هو ما وراء كل «ما ليس منه بد».

ولكن هذا أيضاً لا يعطي فكرة كاملة عن الحقيقة. حتى ولو كان الحب مختلفاً عن آلية ساعة الجنس التي ابتدعها الخالق ليتسلّى، فهو مع ذلك موثوق إلى الجنس كما توثق امرأة غضة عارية إلى رقّاص ساعة هائلة.

قال توماس في نفسه: إن ربط الحب بالجنس هو إحدى الأفكار الأكثر غرابة للخالق.

وقال في نفسه أيضاً ما معناه: الوسيلة الوحيدة لإنقاذ الحب من غباء الجنس قد تكون في تعيير الساعة بطريقة مختلفة في رأسنا فنتهيّج لرؤية السنونوة.

وعلى هذه الفكرة العذبة، أخذه النعاس. وإذ هو على عتبة النوم، هناك في المساحة الساحرة للرؤى المشوشة، تيقن فجأة من أنه كان يكتشف حلّ الألغاز كلها ومفتاح السرّ ويوطوبيا جديدة، بل الجنة: كان يكتشف عالماً حيث نتهيج لرؤية سنونوة وحيث بإمكانه أن يحب تيريزا دون أن يضايقه الغباء الأرعن للجنس.

ثم نام من جديد.

23

كـان وسط نساء شبـه عاريـات يحمنَ حولـه وكان يشعـر بالتعب. ثم، لكي يتمكن من الإفلات منهن، فتح باباً يؤدي إلى غرفة مجاورة. رأى قبالتـه امـرأة شابـة مستلقية على أريكـة. كانت هي أيضـاً شبه عـاريـة وفي سـروال داخلي فقط. كـانت مستلقية على جنبهـا ومتكئة إلى مـرفقها وتنـظر إليه وهي تبتسم وكأنها عارفة أنه سيأتي.

اقترب منها فانتشرت سعادة قصوى في حنايا جسده. فها قد عثر عليهـا أخيـراً وأصبح في مستـطاعه الاختـلاء بهـا. جلس قـربهـا وهمس لهـا بضـع كلمات فأسرّت له بدورها ببضع كلمات. كانت تشع هـدوءاً وحركـات يديهـا بطيئة ناعمة. طيلة حياته حلم بمثل هذه الحركات الناعمة. طيلة حياته افتقـد هذا الهدوء الأنثوي بالذات.

ولكن، في هذه اللحظة، انزلق من النعاس إلى الـوعي الجزئي. كـان في تلك المنطقة المحايدة حيث لا نكون في حالة النوم ولا في حـالة اليقـظة أيضاً. كان يـائساً من أنـه رأى تلك المرأة تختفي، وكـان يقول في نفسـه: يا إلهي! يجدر ألا أفقدها. كان يحاول أن يستجمع قواه ليتذكـر أين التقى بها وأي حيـاة عاش معهـا. هل من المعقـول أن يتـذكـر هـذا وهـو يعـرفهـا حق المعرفة؟ عزم على أن يتصل بها باكراً. ولكنه ارتجف خوفاً لساعته عندما فكر أنه لن يتمكن من الاتصال بهـا والسبب أنه لا يتـذكر اسمهـا. كيف أمكنه أن ينسى اسم شخص يعرفه حق المعرفة؟ ثم عنـدما استفـاق تمامـاً، فتح عينيـه وقال في نفسه: أين أنا؟ عرفْتُ، أنا في براغ. ولكن تلك المـرأة هل هي من براغ أيضاً؟ ألم ألتقيها في مكان آخر؟ أو لعلّني تعرفت إليهـا عندمـا كنت في سويسرا؟ لزمه بعض الوقت ليفهم أنه لم يكن يعرف هذه المرأة وأنها لم تكن لا من زوريـخ ولا من براغ، بـل من منطقـة الحلم، من لا مكـان آخـر غيـر الحلم.

كان مضطرباً إلى حد بعيد فاستـوى على حافـة السريـر. كانت تيـريزا تأخذ نَفَسـاً عميقاً إلى جـواره. كان يقـول في نفسه إن امـرأة حلمه الشـابة لا

تشبه أي امرأة من النساء اللواتي عرفهن في حياته. تلك المرأة الشابة التي بدت أليفة للغاية، كانت غريبة عنه تماماً. ولكنها هي من رغب بها على الدوام. لو أنه وجد ذات يوم جنّته الخاصة، هذا فيما لو افترضنا أن هناك جنة، لا بدّ أنه كان سيعيش فيها إلى جانب هذه المرأة. كانت المرأة الشابة لحلمه هي «ما ليس منه بدّ» لحبه!

تذكر عندها أسطورة أفلاطون الشهيرة «المأدبة»: ففي السابق كان البشر مزدوجي الجنس فقسّمهم الله إلى أنصاف تهيم عبر العالم مفتشة بعضها عن بعض. الحب هو تلك الرغبة في إيجاد النصف الآخر المفقود من أنفسنا.

فلنفترض أن هذا صحيح وأن كل واحد منا يملك في مكان ما من العالم شريكاً كان يؤلّف معه فيما مضى جسداً واحداً. إذاً، النصف الآخر لتوماس هو المرأة الشابة التي رآها في منامه. ولكن لن يتسنّى لأحد أن يصادف النصف الآخر من ذاته. لقد أرسلت له تيريزا عوضاً عن المرأة في سلة عبر مجرى المياه. ولكن ما الذي سيحدث لو أنه التقى فعلاً في وقت لاحق المرأة التي قُدّرت له، أي بالنصف الآخر من ذاته؟ لمن ستكون الأفضلية؟ للمرأة التي وجدها في سلة أم للمرأة الطالعة من أسطورة أفلاطون؟

أخذ يتصور بأنه يعيش في عالم مثالي إلى جوار امرأة حلمه. وها إن تيريزا تمرُّ بالقرب من الشبابيك المفتوحة لدارتهما. ها إنها تتوقف وحيدة على الرصيف وتُلقي نحوه من بعيد نظرة حزينة حزينة. عندها، سوف يشعر مرة أخرى بألم تيريزا في قلبه! مرة أخرى سيكون فريسة الشعور بالشفقة وسيغور في روح تيريزا. وعندها، سوف يقفز من النافذة فيُفاجأ بأنها تقول بمرارة ما عليه إلّا أن يبقى حيث يشعر بالسعادة. ثم تقوم بتلك الحركات العصبية وغير المتماسكة التي أثارت حنقه على الدوام والتي وجدها مزعجة على الدوام. فيمسك بيديها المرتجفتين ويضمهما إلى يديه بقوة ليهدّىء من روعهما. عندها أيضاً سيعرف أنه مستعد لأن يترك في أية لحظة بيت سعادته، وأنه مستعد لأن يترك في أية لحظة الجنة التي يعيش فيها مع امرأة حلمه،

وأنه سيخون «ما ليس منه بدّ» لحبّه في سبيل الرحيل مع تيريزا، هذه المرأة المولودة من ستّ صُدَفٍ مضحكة.

كان جالساً على السرير ينظر إلى المرأة النائمة إلى جواره والتي كانت تمسك بيده أثناء نومها: كان يشعر نحوها بحب لا يفسر. لا شك أنها في هذه اللحظة غارقة في نوم هش جداً لأنها فتحت عينيها وألقت نحوه نظرات مذعورة.

ثم سألته: إلامَ تنظر؟».

كان يعرف أنه لا ينبغي عليه أن يوقظها بل أن يعيدها إلى النوم من جديد. حاول أن يجيبها بكلمات يمكن أن تبعث في فكرها شرارة حلم جديد.

فقال: أنظر إلى النجوم.

ـ لا تكذب، أنت لا تنظر إلى النجوم بل تنظر أرضاً.

ـ ولكن بما أننا في الطائرة، فإن النجوم تحتنا.

ـ «آه، حسناً» قالت تيريزا. كانت تشد على يد توماس بقوة أكبر، ثم ما لبثت أن استرسلت في النوم. كان توماس يعرف أن تيريزا كانت تنظر الآن عبر كوة طائرة تحلّق عالياً جداً فوق النجوم.

القسم السادس

المسيرة الكبرى

1

لم يتسنّ لنا أن نعرف الظروف التي مات فيها ابن ستالين إلاَّ من خلال مقال نشرته مجلة «السانداي تايمز» عام ١٩٨٠. فبعد أن أسره الألمان خلال الحرب العالميه، أُدخِل في معسكر الاعتقال نفسه مع ضباط إنكليز أسرى. كانت مراحيضهم مشتركة في المعسكر وكان ابن ستالين يتركها دائماً متّسخة. والإنكليز، لم يكونوا يحبون رؤية مراحيضهم ملطخة بالبراز، حتى ولو كان ذلك البراز يخص ابن الرجل الأكثر نفوذاً في العالم آنذاك. كانوا يلومونه على ذلك فاستاء منهم. ثم عاودوا تأنيبه وأجبروه على تنظيف المراحيض. فغضب ثم تخاصم وتعارك وإياهم، وطلب في النهاية مقابلة آمر المعسكر. كان يريده أن يحكم في نزاعهم ولكن الألماني كان أكثر اعتزازاً بنفسه من أن يتجادل بخصوص البراز. فأطلق ابن ستالين شتائم روسية شنيعة ثم انقضّ باتجاه الأسلاك الشائكة المحيطة بالمعسكر والمزودة بتيار من التوتر العالي. ترك نفسه يتهاوى فوق الأسلاك. وجسده الذي لن يلوث المراحيض البريطانية بعد الآن، بقي معلقاً هناك.

2

لم تكن حياة ابن ستالين سهلة. فلقد أنجبه والده من امرأة كان كل شيء يؤكد بأنه سيقتلها يوماً. كان ستالين الإبن إذاً إبناً للإلٰه (لأن أباه كان جليلاً وكأنه إلٰه) وملعوناً في الوقت نفسه من الإلٰه. كان الناس يهابونه لسببين: الأول، لأنه كان بإمكانه أن يؤذيهم بسلطته (فهو على كل حال ابن

ستالين) وبصداقته (لأن الأب كان يمكنه معاقبة الصديق بدلاً من الإبن المنبوذ).

اللعنة والنعمة، السعادة والشقاء، لا أحد أحسَّ مثله فعلاً إلى أي حد هذه التناقضات قابلة للتبادل فيما بينها، وإلى أي حد ضيّقة هي الحافة التي تفصل بين قطبيْ الوجود البشري.

في بداية الحرب أسره الألمان وسجنوه إلى جانب أسرى آخرين ينتمون إلى أمة كان يشعر نحوها دائماً بكره عميق وجامح بسبب تحفظها الغريب. وفوق ذلك كانوا يتهمونه بأنه وسخ، هو الذي كان يحمل فوق كتفيه المأساة الأكثر عظمة التي قُدّر لها أن توجد (كان في الوقت نفسه كأنه ابن إله وملاكاً ساقطاً) فهل يجب أن يُدان بسبب أشياء غير عظيمة (لا تخص الله والملائكة) وإنما بسبب البراز؟ هل المأساة الأكثر عظمة والمأساة الأكثر ابتذالاً هما قريبتان بهذا الشكل المدوّخ؟ قريبتان بشكل مدوّخ؟ هل يمكن للتقارب إذاً أن يسبّب الدوار؟

بالطبع، غداً عندما سيقترب القطب الشمالي من القطب الجنوبي إلى حد التلامس تقريباً، فسيختفي الكوكب حينها وسيجد الإنسان نفسه في فراغ مدوّخ مما يجعله يستسلم لإغواء السقوط.

فإذا كانت اللعنة والنعمة شيئاً واحداً، إذا لم يكن هناك فرق بين العظيم والحقير، إذا كان بالإمكان إدانته بسبب البراز، فإن الوجود الإنساني يفقد معناه ويصبح ذا خفة لا تطاق. عندها ينقض ابن ستالين باتجاه الأسلاك الشائكة المكهربة، لكي يرمي هناك بجسده، كأنما على كفة ميزان، فتصعد الكفة مدفوعة بالخفة غير المتناهية لعالم صار دون أبعاد.

ابن ستالين قضى في سبيل البراز. ولكن الموت في سبيل البراز ليس موتاً مجرداً من المعنى. فالألمان الذين ضحّوا بحياتهم من أجل توسيع أمبراطوريتهم أكثر باتجاه الشرق، والروس الذين ماتوا لكي تمتد سلطة بلادهم أكثر صوب الغرب. أجل، كل هؤلاء ماتوا من أجل بلاهة، وموتهم مجرّد من أي معنى ومن أي مغزى عام. أما موت ابن ستالين فكان بالمقابل، الموت الميتافيزيقي الوحيد وسط البلاهة العالمية للحرب.

3

عندما كنت صغيراً، وفيما كنت أتصفح كتاب العهد القديم الذي أعدّ للأطفال والمزيَّن بصور رسمها غوستاف دوريه، كنت أرى الرب فيها طائراً فوق غيمة. كان رجلاً عجوزاً له عينان وأنف ولحية طويلة. وكنت أقول في نفسي إنه ما دام له فم فيُفترض به إذاً أن يأكل، وإذا كان يأكل فهذا يعني أن لديه أمعاء. ولكن هذه الفكرة كانت ترعبني في الحال. ومع أني كنت من عائلة ملحدة، فإنني كنت أشعر بأن هذه الفكرة المتعلقة بأمعاء الله فكرة تجديفية.

ومن دون أي إعداد لاهوتي، كان الطفل الذي كنته آنذاك يفهم بشكل عفوي أن هناك تناقضاً بين الدونيات والله. وكنت أفهم بالتالي هشاشة الفرضية الأساسية لعلم الإناسة المسيحي والتي تقول بأن الإنسان خُلق على صورة الله ومثاله.

كان الغنوصيون القدامى يعون هذه المسألة بالوضوح ذاته الذي كنت أراها فيه لمّا كنت في الخامسة من عمري. ولكي تُحسم هذه المسألة اللعينة، كان ڤالنتين، وهو أستاذ كبير للغنوصية في القرن الثاني، يؤكد أن المسيح «كان يأكل ويشرب ولكنه لم يكن يتغوط».

البراز إذاً هو مسألة لاهوتية أكثر صعوبة من مسألة الشر. فالله قد أعطى الحرية للإنسان وبذلك يمكننا أن نسلّم بأن الله ليس مسؤولاً عن جرائم البشر.

4

في القرن الرابع، كان القديس جيروم يرفض جذرياً أن يكون آدم وحواء قد تمكنا من ممارسة الحب عندما كانا في الجنة. خلافاً لذلك، كان جان سكوت إريجين وهو عالم لاهوتي شهير من القرن التاسع يسلِّم بهذه الفكرة. ولكن حسب رأيه، كان بإمكان آدم أن يجعل عضوه ينتصب بالطريقة نفسها تقريباً التي يرفع فيها ذراعه أو ساقه، إذاً ساعة يشاء وكيفما يشاء. ولا

يتبادرنَّ إلى أذهاننا أن هذه الفكرة تخفي وراءها الحلم الأبدي للرجل المسكون بهاجس العجز الجنسي. إنَّ لفكرة سكوت إريجين معنى آخر. إذا كان عضو الذكر يقوى على الانتصاب بمجرد إيعاز من الدماغ، ينتج عن ذلك أن بإمكانه الاستغناء عن الإثارة. ذلك أن العضو لا ينتصب نتيجةً لاهتياج المرء بل لأنه يأمره بذلك. كان هذا اللاهوتي الكبير يعتقد أن الشيء الذي لا يتفق والجنّة ليس الجماع ولا اللذة التي تعقبه. إنما الشيء الذي لا يتفق والجنة هو الإثارة. فلنحفظْ هذا جيداً: كانت اللذة موجودة في الجنة لا الإثارة.

نستطيع أن نجد من خلال نظرية سكوت مفتاحاً لتبرير لاهوتي (وبكلمة أخرى مفتاحاً لربانيّة) للبراز. طيلة الفترة التي سمح للإنسان فيها أن يسكن الجنّة، إما أنه (تماماً كالمسيح حسب نظرية ڤالنتين) لم يكن يتغوط، وإما أن البراز لم يكن يعتبر شيئاً كريهاً، وهذه الفرضية أكثر قابلية للتصديق. حين طرد الله الإنسان من الجنة، أوحى له بطبيعته النجسة وبالقرف. وأخذ الإنسان يستر ما كان يُشعره بالعار، وما أن أزاح الحجاب حتى بهره ضوء عظيم. إذاً بعد أن اكتشف الإنسان الدنس، اكتشف في الوقت ذاته الإثارة. فمن دون البراز (بالمعنى الحرفي والمجازي للكلمة) لما كان الحب الجنسي كما نعرفه: تصحبه دقات في القلب وعمى في الحواس.

كنت قد أشرت في القسم الثالث من الرواية إلى سابينا عندما كانت تقف نصف عارية مرتدية قبعتها الرجالية وإلى جانبها توماس وهو في كامل ثيابه. بَيْدَ أن هناك شيئاً لم أتطرق إليه. عندما كانا يراقبان بعضهما في المرآة وحين أحست بتفاهة الموقف تثيرها، تصوّرت أن توماس سيُجلسها كما كانت، أي معتمرة القبعة الرجالية، فوق المرحاض، وأنها ستفرغ أمعاءها في حضرته. أخذ قلبها يضرب مثل الطبل واختلطت عليها أفكارها فقلبت توماس على السجادة. في اللحظة التي تلت، كانت تزعق من فرط اللذة.

5

إن الجدال بين هؤلاء الذين يؤكدون بأن الكون قد خلقه الله، وبين

هؤلاء الذين يعتقدون بأنه وُجِد لوحده يتناول أمـراً يتجاوز إدراكنـا وتجربتنـا. هنالك فرق كبير بين هؤلاء الذين يشكون بالكينونـة على النحو الـذي أعطيت به للإنسان (قلّما يهم كيف وبـواسطة مَنْ) وبين هؤلاء الـذين يتبنونهـا من غير تحفظ.

في أسـاس المعتقدات الأوروبيـة كلها سـواء كانت دينيـة أم سياسيـة، هناك دائماً الفصل الأول من سفر التكـوين والذي يتفـرع منه أن العـالم خلق كما كان يفترض به أن يكـون، وأن الكائن طيب، وأن التنـاسل أمـر محمود. فلنسمِّ هذا الاعتقاد الجوهري (الوفاق التام مع الكائن).

إذا كانت كلمة بـراز يُستعاض حـالياً عنهـا في الكتب بنُقط، فهذا ليس لأسبـاب أخلاقيـة. يجب ألا نذهب إلى حـد الادّعاء بـأن البراز شيء منـافٍ للأخلاق! فالخلاف مع البراز خلاف ميتافيزيقي. هناك أمر من أمرين: إما أن البـراز شيء مقبـول (إذاً لا تـقفـلوا على أنـفسكم بـالـمفـتـاح وأنتـم في المراحيض!)، وإما أن الطريقة التي خُلْقنا بها تثير جدلاً.

ينتج عن ذلك أن الوفاق التام مع الكائن يتخذ مثاله الأعلى عالماً يُنتفى منـه البراز، ويتصـرف كل واحـد فيه وكـأن البراز غيـر موجـود. هـذا المثـال الجمالي يدعى «الكيتش».

«كيتش» هي كلمـة ألمـانيـة ظهـرت في أواسط القـرن التـاسـع عشـر العاطفي، ثم انتشرت بعـد ذلك في جميـع اللغات. ولكن استعمـالها بكثـرة أزال دلالتها الميتافيزيقية الأصليـة وهي: كلمة كيتش في الأسـاس نفي مطلق للبراز. وبالمعنى الحرفي كما بالمعنى المجازي «الكيتش» تطرح جانباً كل ما هو غير مقبول في الوجود الإنساني.

6

الثـورة الداخليـة الأولى لسابينـا على الشيوعيـة لم تكن ترتـدي طـابعـاً أخلاقياً بل طابعاً جماليـاً. فالشيء الـذي كان ينفـرها خـاصة لم يكن بشـاعة العـالم الشيوعي أي (القصـور التي تحولت إلى زرائب) وإنمـا قناع الجمـال

الـذي يتستر بـه، وبكلمة أخـرى «الكيتش» الشيوعي. ونمـوذج هـذا الكيتش يتمثل في العيد الذي يسمّى الأول من أيار.

كـانت قد شـاهدت مـواكب الأول من أيار في تلك الحقبـة حيث كـان الناس لا يزالون متحمسين أو يواظبون على أن يظهروا كذلـك. كانت النسـاء يرتدين قمصاناً حمـراء أو بيضاء أو زرقـاء. ولكن يعرضن من على الشـرفات والنوافذ الزخارف من كل نوع: نجـوم بخمس شعب وقلوب وأحرف. كـانت تتقدم فصائـل الموكب فـرق أوركسترا صغيـرة لتوقّـع المشي المنتظم. وحين كان الموكب يقترب من المنصة كـانت الوجـوه الأكثر تقـطيباً تشـرق بابتسـامة وكأنها تريد أن تثبت أنها راضية كما ينبغي، وبطريقة أصح، أنهـا موافقـة كما ينبغي. وهذا الوفاق لا يتعلق بوفاق سياسي بسيط مع الشيوعية بل بـوفاق مـع الكائن في حد ذاته. كان عيد الأول من أيار يرتوي من المنهل العميق للوفاق التـام مع الكـائن. ولـم يكن شعـار المـوكب المضمـر والـلامكتـوب «فلتحيَ الشيوعية» بل كان «فلتحيَ الحياة»! قوة السياسة الشيوعية ودهاؤها يكمنان في أنهما استأثرا بهذا الشعار. وهذا الحشو التافه بالـذات («فلتحيَ الحياة») هـو ما كان يدفع للالتحاق بالموكب الشيوعي حتى هؤلاء الأشخاص الـذين كانت تتركهم الأفكار الشيوعية غير مبالين تماماً.

7

بعد انقضاء عشـر سنوات، (كـانت تعيش في أميركـا آنذاك) كـان أحد أصدقائها وهو سناتور أميركي يجول بهـا في سيارة ضخمـة. كان أربعـة صبية يجلسون متلاصقين على المقعد الخلفي. أوقف السناتور سيارته فنزل الأولاد واندفعوا عبر مرجة كبيرة باتجاه ملعب يوجد فيه ميدان للتزلج. كـان السناتـور قد بقي أمام المقود يراقب بعين حـالمة القـامات الصغيـرة الأربع التي تنـدفع راكضـة. ثم التفت إلى سابينـا وقال وهـو يـرسم دائـرة بيـده تشمـل الملعب والمرجة والأولاد: «هذا ما أدعوه السعادة».

لم تكن هـذه الكلمـات تعبيـراً عن فـرحـه بـالأطفـال الـذين يجـرون وبـالعشب الـذي يـطلع فحسب، بـل كـانت لفتـة تفهُّم لامـرأة آتيـة من بلد

شيوعي، من بلدٍ كان السناتور مقتنعاً بأن العشب لا ينبت هناك ولا الأطفال يجرون.

ولكن سابينا تخيّلت للتوّ هذا السيناتور واقفاً فوق منصة في إحدى ساحات براغ وعلى وجهه الابتسامة ذاتها التي يتوجه بها القادة الشيوعيون من أعلى منصاتهم إلى المواطنين المبتسمين بدورهم السائرين في مواكب، عند أسفل أقدامهم.

8

كيف يستطيع هذا السناتور أن يعرف أن في الأطفال يكمن معنى السعادة؟ هل كان يقرأ ذلك في أرواحهم؟ لكن ماذا لو انقضّ ثلاثة منهم، ما أن يبتعدوا عن ناظريه، على الرابع وأخذوا يضربونه ضرباً شديداً متواتراً؟

لم يكن السناتور يملك سوى حجة واحدة في صالح تأكيده: عاطفته. حين يتكلم القلب لا يعود لائقاً أن يصدر العقل اعتراضات. ففي مملكة «الكيتش» تسود ديكتاتورية القلب.

من الجلي أنه يجب أن يشارك أكبر عدد ممكن من الناس، الأحاسيس التي يثيرها «الكيتش»، من هنا لا حاجة تدعو «الكيتش» لأن يخالف ما هو مألوف. بل هو يستعين بصور أساسية متجذرة عميقاً في ذاكرة الناس: الفتاة العاقة، والوالد المهجور، والصبية الراكضون على مرجة، والوطن الذي جرت خيانته، وذكرى الحب الأول.

«الكيتش» يُسيل دون انقطاع دمعتيْ تاثر. الدمعة الأولى تقول: ما أجمل أن يُهرول صبية فوق مرجة.

والدمعة الثانية تقول: ما أجمل أن تتأثر الإنسانية جمعاء لدى رؤية صبية يركضون على مرجة!

وحدها الدمعة الثانية تجعل «الكيتش كيتشاً».

ذلك أن أخوة الناس جميعهم لا يمكن أن تُبنى إلاّ على أساس «الكيتش».

9

لا أحد يعرف ذلك بصورة أفضل مما يعرفه السياسيون. فما أن يروا آلة تصوير على مقربة منهم حتى يهبُّوا راكضين إثر أول طفل يصادفونه فيحملونه في أذرعتهم ويقبلونه في خده. «الكيتش» هو المثال الأعلى لكل السياسيين ولكل الحركات السياسية.

في مجتمع تتعايش فيه تيارات شتّى وحيث يمكن لتأثير هذه التيارات أن يُمحى أو يحدّ بشكل متناوب، يبقى في المستطاع الإفلات تقريباً من محاكم «الكيتش». ويمكن للفرد عندئذ أن يحافظ على تميزه، وللفنان أن يخلق أعمالاً فنيّة مدهشة. ولكن في البلدان التي يستأثر فيها حزب سياسي بالسلطة كلها، نجد أنفسنا حالاً في مملكة «الكَيتش» الديكتاتورية.

إذا كنت أقول ديكتاتورية فإني أقصد بذلك أن كل ما يطعن بـ «الكيتش» ملغىً من الحياة: كل إظهار للفردية، (لأن أي نشاز هو بصقة في وجه الأخوّة الباسمة) وكلّ شك (لأن من يبدأ بالشك في التفاصيل الصغيرة يتوصل في نهاية المطاف لأن يشك في الحياة بحد ذاتها). كذلك السخرية (لأن كل شيء في مملكة «الكيتش» يؤخذ على محمل الجد)، وأيضاً الأم التي هجرت عائلتها، أو الرجل الذي يفضّل الرجال على النساء مهدداً بذلك الشعار المقدس «تناسلوا واملأوا الأرض».

انطلاقاً من وجهة النظر هذه، فإن ما يسمى بـ «الغولاغ» يمكن اعتباره ثغرة عفنة يرمي فيها «الكيتش» التوتاليتاري بأوساخه.

10

كانت السنوات العشر الأولى التي أعقبت الحرب العالمية الثانية هي الفترة الأكثر هولاً للرعب الستاليني. ففي تلك الحقبة بالذات اعتُقل والد تيريزا لسبب تافه وطردت الفتاة التي كانت تيريزا والتي كان لها من العمر عشر سنوات من البيت. في ذلك الوقت، كانت سابينا في العشرين من عمرها تتابع دراستها في معهد الفنون الجميلة. كان أستاذ الماركسية يشرح

لها ولزملائها في الدراسة تلك المسلّمة البديهية للفن الاشتراكي التي تقول بأن المجتمع السوڤياتي قد وصل به الرقي إلى درجة أن الصراع الجوهري لم يعد صراعاً بين الخير والشر، بل بين الجيد والأفضل. لم يكن البراز (أي ما هو غير مقبول في الأساس) موجوداً إلا في الجهة الأخرى من العالم (في أميركا مثلاً) وانطلاقاً من هنا، أي من الخارج، يمكن له أن يدخل تحت شكل جسم غريب (الجواسيس مثلاً) إلى عالم «الأخيار والنخبة».

في تلك الحقبة، الأفظع بين الحقبات كلها، كانت الأفلام السوڤياتية التي تغص بها صالات السينما في البلدان الشيوعية متشبعة ببراءة غريبة. فالصراع الأكثر خطورة الذي يمكن له أن يحصل بين روسيَّيْن هو سوء التفاهم العاطفي: كأن يتوهم البطل مثلاً بأن البطلة لم تعد تحبه أو أن تفكر هي الشيء نفسه حياله. وفي النهاية يرتمي كل منهما في ذراع الآخر وعَبَرات السعادة تقطر من أعينهما.

التفسير المتفق عليه اليوم لهذه الأفلام هو على النحو التالي: كانت هذه الأفلام تصف المثال الشيوعي فيما الواقع الشيوعي كان أكثر قتامة بكثير.

كان هذا الشرح يثير حنق سابينا: ففكرة أن عالم «الكيتش» السوڤياتي يمكن أن يصير حقيقة؛ وإمكانية أن تجبر على العيش فيه أمر يجعل شعر بدنها مقشعراً. كانت تفضّل دون أدنى تردد العيش في النظام الشيوعي الواقعي على الرغم من كل الاضطهادات والصفوف أمام المذابح. ففي العالم الشيوعي الواقعي، العيش ممكن. أما في عالم المثال الشيوعي المتحقق، في هذا العالم المؤلف من البلهاء المبتسمين الذين لا يمكن للمرء أن يتوجه إليهم بأية كلمة، فإنها قد تموت ذعراً في فترة لا تتعدى الثمانية أيام.

يبدو لي أن الشعور الذي كان «الكيتش» السوڤياتي يوقظه في نفس سابينا يشبه الذعر الذي عانته تيريزا أثناء حلمها التي تسير فيه وسط النساء العاريات حول البركة، وحيث كانت مرغمة على إنشاد أغانٍ فرحة. كانت هناك جثث عائمة على وجه الماء. ولم تكن تيريزا تستطيع أن تتوجه لأية امرأة بكلمة أو أن تطرح عليها سؤالاً واحداً. كانت تسمع جواباً واحداً فقط

وهو المقطع التالي من الأغنية. ولم يكن بإمكانها أن ترمق أية واحدة منهن بنظرة متحفظة وإلّا كن سيشيْن بها مشيرات إلى الرجل الواقف في السلة فوق البركة؛ بأن يطلق عليها النار.

إن حلم تيريزا يفضح المهمة الحقيقية لـ «الكيتش» وهي أن «الكيتش» قناع يخفي وراءه الموت.

11

في مملكة «الكيتش» التوتاليتارية تعطى الإجابات مسبقاً محرِّمة بذلك أي سؤال جديد. ينتج عن ذلك أن الإنسان الذي يتساءل هو العدو الحقيقي لـ «الكيتش». السؤال هو مثل مسكين يمزق القماشة المرسومة للديكور فيصبح في المستطاع رؤية ما يختبىء خلفها. هكذا شرحت سابينا لتيريزا معنى لوحاتها: من الأمام الكذب الصارخ، ومن الخلف الحقيقة التي لا يُدرك كنهها.

إلا أن هؤلاء الذين يناضلون ضد الأنظمة المَسمّاة توتاليتارية قلَّما يمكنهم النضال من خلال أسئلة وشكوك. فهُم أيضاً بحاجة إلى قناعتهم وإلى حقيقتهم البسيطة التي يفترض أن يفهمها أكبر عدد ممكن من الناس وأن تحدث إفرازاً دمْعياً جماعياً.

ذات يوم، نظّم حزب سياسي معرضاً للوحات سابينا في ألمانيا. أمسكت سابينا بالكتيّب الذي يُعرّف بها: أمام صورتها رسمت أسلاك شائكة وفي الداخل كانت هناك نبذة عن حياتها تشبه مسيرة القديسين والشهداء: تعذّبت، وناضلت ضد الظلم، وأرغمت على ترك بلادها المعذّب، وها هي الآن تتابع النضال. وكانت الجملة الأخيرة من النص تقول: «من خلال لوحاتها تقاتل من أجل الحرية».

اعترضَتْ ولكنّ أحداً لم يكن يفهمها.

كيف، أليس صحيحاً أن الشيوعية تضطهد الفن الحديث؟

أجابت بغضب: «عدوي ليس الشيوعية، بل هو الكيتش!».

ومنذ ذلك الحين أحاطت سيرة حياتها بالغموض. وفيما بعد حين وجدت نفسها في أميركا، توصّلت حتّى إلى إخفاء هويتها التشيكية. كان ذلك جهداً يائساً من قِبلها لتهرب من «الكيتش» الذي أراد الناس أن يصنعوه من حياتها.

12

كانت تقف أمام الحمالة التي أُسنِدت إليها لوحة غير مكتملة بعد، كان هناك رجل عجوز جالس وراءها على كنبة يراقب كل خط تخطه بريشتها.

ثم نظر إلى ساعته وقال: «أظن أنه قد حان وقت الذهاب للعشاء».

وضعت مجموعة ألوانها جانباً وذهبت لتستحم قليلاً في غرفة الحمام. نهض الرجل عن كنبته وانحنى ليتناول عصاه المسندة إلى الطاولة، كان باب المحترف يؤدي مباشرة إلى المرجة. كان المساء قد حلَّ.

في الجانب الآخر، وعلى مسافة عشرين متراً، كان هناك بيت خشبي أبيض، نوافذ طبقته الأرضية مضاءة. كانت مشاعر سابينا تهتز لرؤية هاتين النافذتين تسطعان في المغيب.

كانت قد أكّدت طيلة حياتها عداءها لـ «الكيتش». ولكن ألم تكن تحمله هي أيضاً في أعماق نفسها؟ «كيتشها» تمثّل في رؤية بيت هادىء عذب متناغم تتولاه أم مُحبّة وأب متشبع حكمةً. نشأت هذه الصورة في داخلها بعد موت أهلها. وبما أن مسار حياتها كان مختلفاً تماماً عن هذا الحلم الجميل، فإن إحساسها إذاً بسحره كان يزداد. كانت تُحس أكثر من مرة بأن عينيها تدمعان حين تشاهد على التلفزيون فيلماً عاطفياً تعانق ابنة عاقة فيه والداً مهجوراً، أو حين تشاهد عند المغيب نوافذ منزل تسكنه عائلة سعيدة.

كانت قد تعرفت إلى الرجل العجوز في نيويورك. كان غنياً ومُحباً للرسم. كان يعيش لوحده في ڤيللا في الريف مع زوجته التي كانت في العمر نفسه. كانت هناك ضمن ملكيته قبالة الڤيللا زريبة قديمة فحوّلها إلى

محترف ودعا إليها سابينا. ومنذ ذلك الوقت وهو يمضي أياماً كاملة يتابع حركات ريشتها.

الآن، كان ثلاثتهم يتناولون العشاء. المرأة العجوز تنادي سابينا بـ «ابنتي الصغيرة»!، ولكن خلافاً للمظاهر، العكس هو الصحيح: فسابينا هنا كأمّ يتشبّث ولداها بتنورتها، معجبين بها ومستعدين لإطاعتها في حال شاءت أن تصدر الأوامر.

هل تكون قد وجدت أخيراً وهي على مشارف الشيخوخة الأبوين اللذين انسلخت منهما وهي لا تزال شابة؟ هل وجدت أخيراً الأطفال الذين لم يتسنَّ لها أن تنجبهم؟

تعرف جيداً أن هذا وهم. فإقامتها عند هذين العجوزين الرائعين ليست إلا محطة مؤقتة. الرجل العجوز مصاب بمرض خطير، وزوجته حين تجد نفسها من دونه ستذهب للإقامة عند ابنها في كندا. وعندها ستستأنف سابينا من جديد طريق الخيانات، وتقرع في أعماق نفسها، في خفة الكائن التي لا تطاق، أغنية عاطفية مضحكة تتحدث عن نافذتين مضيئتين تعيش خلفهما عائلة سعيدة.

هذه الأغنية تهز كيانها، ولكنها لا تأخذ انفعالها على محمل الجد. تعرف جيداً أن هذه الأغنية هي مجرد كذبة جميلة. وفي اللحظة التي يُعرّف فيها «الكيتش» عن نفسه بصفته كذبة، يصير موقعه إذاً في جانب «اللاكيتش». وإذ يفقد مقدرته السلطوية يصبح مؤثراً ككل ضعف بشري. ذلك أن لا أحد منا إنسان متفوق ولا أحد منا يستطيع أن يفلت نهائياً من قبضة «الكيتش». أيّا يكن الاحتقار الذي يولّده فينا «الكيتش»، فهو مع ذلك يؤلف جزءاً من الوضع البشري.

13

مصدر «الكيتش» هو الوفاق التام مع الكائن.

ولكن ما هو أساس الكائن؟ هل هو الله؟ أم الأنسانية؟ أم النضال؟ أم

الحب؟ أم الرجل؟ أم المرأة؟

فيما يخص هذا الموضوع هناك نظريات عدة تقابلها أنواع عدة من «الكيتش» فهناك «الكيتش» الكاثوليكي والبروتستانتي واليهودي والشيوعي والفاشي والديمقراطي والنسوي والأوروبي والأميركي والقومي والأممي.

منذ عهد الثورة الفرنسية وأوروبا مقسومة إلى نصفين، النصف الأول يدعى اليسار، والنصف الثاني يسمّى باليمين، يستحيل عملياً تحديد هذا الحزب أو ذاك استناداً إلى مبادىء نظرية معينة. ليس هناك ما يدعو للعجب، فالأحزاب السياسية لا تستند أساساً إلى مواقف عقلانية ولكنها ترتكز إلى تشخيصات أو صور أو كلمات أو إلى نماذج أولية تؤلف في مجموعها هذا «الكيتش» السياسي أو ذاك.

فكرة المسيرة الكبرى التي يتعشقها فرانز حتى الثمالة، هي «الكيتش» السياسي الذي يجمع ناس اليسار في كل الأزمنة ومن كل الاتجاهات. فالمسيرة الكبرى هي هذا المشي الرائع المتقدم إلى الأمام، هي هذا المشي باتجاه الأخوة والمساواة والعدالة والسعادة وإلى ما هو أبعد أيضاً، بالرغم من الحواجز كلها لأنه يُفترض أن تكون هناك حواجز لكي تكون المسيرة مسيرة كبرى.

دكتاتورية البروليتاريا أم الديموقراطية؟ رفض المجتمع الاستهلاكي أم تزايد الانتاج؟ المقصلة أم إبطال عقوبة الإعدام؟ كل هذه الأمور ليست ذات أهمية. إن ما يجعل اليساريّ يسارياً ليس هذه النظرية أو تلك بل مقدرته على إدخال أية نظرية كانت إلى «الكيتش» الذي يسمّى بالمسيرة الكبرى.

14

لا أعني بقولي هذا إن فرانز هو نموذج «الكيتش». فكرة المسيرة الكبرى تلعب في حياته الدور نفسه الذي تلعبه في حياة سابينا الأغنية العاطفية التي تتحدث عن نافذتين مضاءتين. لأي حزبٍ يصوّت فرانز؟ أخشى بالفعل ألا يكون قد صوّت في حياته إطلاقاً وأن يفضل الذهاب يوم

الانتخابات في رحلة إلى الجبل. هذا لا يعني أن المسيرة الكبرى قد كفّت عن التأثير عليه. ذلك أنه جميلٌ أن تحلم بأن نكون في عداد جماعة تمشي قُدماً عبر العصور، وفرانز لم ينسَ مطلقاً هذا الحلم الجميل.

ذات يوم اتصل به أصحاب من باريس. كانوا ينظمون مسيرة تأييداً لكمبوديا ودعوه للانضمام إليهم.

في ذلك الوقت، كانت كمبوديا تجر وراءها الحرب الأهلية والقصف الأميركي والفظائع التي ارتكبها الشيوعيون المحليون فجعلوا عدد سكان هذا البلد الصغير يتقلّص إلى الخُمس، وأخيراً احتلال الفيتنام المجاورة لها والتي كانت مجرد أداة في يد روسيا في كمبوديا، كان هناك الجوع وكان الناس يموتون دون أية عناية طبية. طالبَتْ المنظمات العالمية للأطباء مراراً بأن يسمح لها بالدخول إلى البلاد، ولكن الفيتناميين كانوا يعارضون. فقرر عندئذ مثقفون غربيون كبار تنظيم مسيرة عند الحدود الكبودية علّهم يفرضون، من خلال هذا العرض العظيم الذي يجري أمام أنظار العالم بأسره قبول الأطباء في البلد المحتل.

كان الصديق الذي اتصل بفرانز واحداً من أُولئك الذين كان يمشي إلى جانبهم في المسيرات عبر شوارع باريس. تحمَّس أول الأمر لاقتراحه لكنه عاد وألقى بنظره إلى الطالبة. كانت جالسة قبالته على الكنبة وعيناها تبدوان أكبر مما هما في الحقيقة خلف نظارتها التي كانت «على الموضة». فأحسَّ فرانز أن عينيها كانتا تتوسلان إليه كي لا يذهب، فقدّم اعتذاره لصديقه.

لكنه ما إن أقفل السّماعة حتى ندم. كان يستجيب لرغبات حبيبته الأرضية مهملاً حبه السماوي. ألم تكن كمبوديا نسخة مختلفة عن وطن سابينا؟ أي بلداً مجاوراً احتله الجيش الشيوعي! بلداً واقعاً في قبضة روسيا! فكّر فجأة أن صديقه شبه المنسي قد اتصل به بناء على إيعازٍ سري من سابينا.

فالمخلوقات السماوية تعرف كل شيء وترى كل شيء، وسابينا ستراه فيما لوم اشترك في هذه المسيرة وستسر لذلك وستفهم أنه بقي على وفائه لها.

فسأل صديقته صاحبة النظارة التي كـانت تتحسر على كـل يوم تمضيـه من دونـه، لكن دون أن تكون أيضـاً قـادرة على أن تـرفض لـه طلبـاً: «هـل ستغضبين مني لو أني ذهبت إلى المسيرة مع ذلك؟».

بعد أيام معدودة وجد نفسه في طائرة كبيرة في مطار باريس. كان هناك نحو عشرين طبيباً بين المسافرين يواكبهم نحـو خمسين مثقفاً (أسـاتذة وأدبـاء ونوّاباً ومغنين وممثلين وعمدة)، ويرافقهم أربعمائة صحفي ومصور.

15

حـطّت الطائـرة في بانكـوك. توجـه الأربعمائـة وسبعـون طبيبـاً ومثقفـاً وصحـافياً إلى الصـالة الكبيـرة حيث كان هنـاك في انـتظارهم أطبـاء آخـرون وممثلون ومغنـون وفقهاء لغـويـون، يـرافقهم مئـات من الصحـافيين المزوّدين بمفكراتهم وبآلات التسجيل وآلات التصوير. في عمق الصالـة منصة تعلوهـا طاولة عريضة كان يتحلق حولها عشرون أميركياً باشروا بإدارة الاجتماع.

كان المثقفون الفرنسيون ومن بينهم فرانز يشعرون بأنهم مذلولون وعلى هامش الاجتماع. كانوا هم من اقترحوا فكرة القيام بمسيرة تأييـداً لكمبوديـا. ومع ذلك، فها هُم الأميركيـون يمسكون، وبـطبيعة مثيـرة للإعجـاب، بزمـام الأمـور. وزيادة في المصيبـة، كانـوا يتكلمـون الإنكليـزيـة دون أن يكلّفـوا أنفسهم عنـاء التساؤل هـل بإمكـان فرنسي أو دانمـركي أن يفهما حـرفـاً ممـا يقولونه. بطبيعة الحال، كان الدانمركيون قد نسوا منذ زمن طويـل أنهم كانـوا يشكلون أمّـة قـديمـاً. وهكـذا فـإن الأوروبيين الـوحيـدين الـذين فكـروا في المعارضة هم الفرنسيون. وبمـا أنهم أناس مبدئيـون، فـإنهم كانـوا يرفضـون الاعتـراض باللغـة الإنكليزيـة متوجهين بلغتهم الأم إلى الأميـركيين الجالسين فوق المنصة. لم يكن الأميركيون يفهمون حرفاً مما يتفوه به الفرنسيون فكانوا يردون على كلماتهم بابتسامات لطيفة ومستصوبة. وفي نهاية المطاف لم يعـد أمام الفرنسيين من حيلة أخرى سوى صياغة اعتراضاتهم بـالإنكليزيـة. «لماذا

لا يجري التكلم إلا باللغة الإنكليزية في هذا الاجتماع؟ ألا يوجد أيضاً فرنسيون هنا!».

دهش الأميركيون دهشة كبيرة من هذا الاعتراض الغريب العجيب ولكنهم لم يتوقفوا عن الابتسام ثم وافقوا على أن تُترجم جميع الخُطب. واستغرق البحث عن مترجم، لكي يكون في المستطاع متابعة الاجتماع، وقتاً طويلاً. ثم، وبما أن الأمر كان يقتضي بأن يجري الاستماع إلى كل جملة في الإنكليزية ثم في الفرنسية فإن الاجتماع دام وقتاً مضاعفاً إن لم يكن أكثر من مضاعف لأن الفرنسيين بأجمعهم كانوا يتقنون الإنكليزية مما يضطرهم لمقاطعة المترجم وتصحيح أخطائه والتجادل معه في شأن كل كلمة.

وجاء ظهور نجمة أميركية على المنصة تتويجاً للاجتماع. من أجلها أخذ مصورون يتدفقون في الصالة مؤكدين على كل حرف تتفوه به الممثلة بقعقعة من آلات التصوير. كانت الممثلة تتحدث عن الأطفال الذين يتعذبون وعن الوحشية الشيوعية ودكتاتوريتها وعن حق الإنسان في العيش بأمان، والتهديدات التي تضغط على القيم التقليدية للمجتمع الراقي، والحرية الفردية، والرئيس كارتر الذي تُدمي فؤاده الأحداث في كمبوديا. قالت هذه الكلمات الأخيرة وهي تبكي.

عند هذه اللحظة نهض طبيب فرنسي شاب ذو شاربين حمراوين وأخذ يزعق: «نحن هنا من أجل إنقاذ أناس يحتضرون! لسنا هنا من أجل إحياء مجد الرئيس كارتر! يجب ألا تنحط هذه التظاهرة إلى مستوى مهرجان للدعاية الأميركية! لم نأتِ إلى هنا لكي نعارض الشيوعية بل من أجل العناية بمرضى!».

انضمَّ فرنسيون آخرون تأييداً للطبيب المشورب. كان المترجم خائفاً ولم يجرؤ على ترجمة ما كانوا يقولونه. وكما منذ قليل، كان الأميركيون العشرون الجالسون على المنصة يرمقونهم بابتسامات مفعمة بالود. وكثيرون من بينهم كانوا يوافقون على ما يقولونه بإشارات من رؤوسهم. ثم خطرت لأحدهم فكرة أن يرفع قبضته فهو يعرف أن الأوروبيين يقومون بهذه الحركة تلقائياً في لحظات الابتهاج الجماعي.

16

كيف يحدث أن يوافق مثقفون يساريون (لأن الطبيب المشوروب كان واحداً منهم) على السير في تظاهرة تعادي مصالح بلد شيوعي، في الوقت الذي ألّفت فيه الشيوعية جزءاً لا ينفصم من اليسار حتى هذا التاريخ؟

حين تصير جرائم البلد المسمّى بالاتحاد السوڤياتي فاضحة للعيان، يجد اليساريُّ نفسه أمام خيارين: إما أن يبصق على حياته السابقة ويقلع عن المشي في المسيرات وإما (وهذا أمر محرج تقريباً) أن يجعل الاتحاد السوڤياتي أحد العوائق التي تحول دون المسيرة الكبرى؛ وأن يتابع طريقه في السير مع الموكب.

قلت في السابق إن ما يجعل اليسار يساراً هو «كيتش» المسيرة الكبرى. هوية «الكيتش» لا تحدد من خلال استراتيجية سياسية بل من خلال صور واستعارات ولغة معينة. في الإمكان إذاً خرق العادة ومعاداة مصالح بلد شيوعي، ولكن ليس من الممكن تبديل الشعارات بشعارات أخرى. نستطيع أن نرفع قبضاتنا في وجه الجيش الڤيتنامي، ولكن لا يمكن لنا أن نصرخ في وجهه قائلين «فلتسقط الشيوعية»، لأن الشعار «فلتسقط الشيوعية» شعار أعداء المسيرة الكبرى. ومن لا يريد أن يفقد ماء الوجه عليه أن يبقى وفياً لطهارة «كيتشه» الخاص.

لا أقول هذا لأشرح سوء التفاهم الكامن بين الطبيب الفرنسي والنجمة الأميركية التي حسبت أنها بسبب من أنانيتها، ضحية الحساد ومبغضي النساء. كان الطبيب الفرنسي في الواقع يبرهن عن حساسية جمالية كبيرة: فالكلمات «الرئيس كارتر»، «قيمنا التقليدية»، «الوحشية الشيوعية»، تشكّل جزءاً من لغة «الكيتش» الأميركي ولا علاقة لها «بكيتش» المسيرة الكبرى.

17

في صباح اليوم التالي صعدوا جميعاً في الباصات ليعبروا تايلندا باتجاه الحدود الكمبودية. في المساء، وصلوا إلى قرية صغيرة حيث خُصصت لهم

بضعة بيوت صغيرة موتّدة. كان النهر بفيضاناته المرعبة يرغم الناس على السكن في الطبقات العليا. أما عند أسفل الأوتاد فكانت تحتشد الخنازير. كان فرانز ينام في غرفة يشاركه فيها أربعة أساتذة جامعيين. وكان يتوانى إلى سمعه أثناء نومه نخير الخنازير في الأسفل وشخير أستاذ رياضيات شهير إلى جانبه.

عند الصباح، ركب الجميع في الباص. على بُعد كيلومترين من الحدود كان المرور ممنوعاً. كانت هناك فقط طريق ضيقة تؤدي إلى المركز العسكري الرابض على الحدود. توقفت الباصات. حين نزل الفرنسيون اكتشفوا أن الأميركيين قد تقدموهم مرة أخرى وتصدروا طليعة الموكب. كانت هذه اللحظة هي الأكثر حرجاً، لأنها اقتضت أن يتدخل المترجم من جديد فحمي وطيس الجدال. ولكن في النهاية توصل الجميع إلى تسوية تقضي بأن يتصدر أميركي وفرنسي ومترجمة كمبودية طليعة الموكب، ويتبعهم الأطباء وجميع الآخرين. فوجدت الممثلة الأميركية نفسها في المؤخرة.

كانت الطريق ضيقة ومحفوفة بحقول الألغام. كانوا يقعون في كل دقيقتين على ممر متعرج مؤلف من كتلتيْ باطون تعلوهما أسلاك شائكة، وبين الكتلتين ممر صغير، مما اضطرهم للمشي الواحد خلف الآخر.

كان يتقدم فرانز على مسافة خمسة أمتار شاعر ألماني شهير ومغنٍّ شعبي كان قد كتب تسعمائة وثلاثين أغنية من أجل السلام وضد الحرب. كان يحمل في نهاية عصا طويلة علماً أبيض يتلاءم للغاية ولحيته الكثيفة السوداء ويميّزه عن الآخرين.

كان المصوّرون يروحون ويجيئون عدواً حول هذا الموكب الطويل. كانوا يلتقطون الصور فيركضون إلى الأمام ثم يتوقفون فيتراجعون ويقرفصون ثم يعودون للجري من جديد باتجاه الأمام. من وقت لآخر كانوا يهتفون باسم رجل أو امرأة شهيرَيْن فيلتفت المدعو بطريقة آلية في اتجاههم ويبدأون في هذه اللحظة بالذات بالتقاط الصور.

18

بدا أن هناك حادثاً وشيك الوقوع فخفّف الناس الخطى والتفتوا إلى الوراء.

رفضت النجمة الأميركية التي جُعل مكانها في مؤخرة الموكب، أن تتحمّل وقتاً أطول هذا الذلّ فقررت أن تهاجم. أخذت تركض وكان ركضها كما يفعل الراكض في سباق الخمسة آلاف متر حين يرى أنه لا يزال في مؤخرة الفريق، فيجمع قواه مندفعاً إلى الأمام ومتجاوزاً جميع المتبارين.

كان الرجال يبتسمون بانزعاج ويفسحون المجال للراكضة المنتصرة الشهيرة، ولكن هناك نساء بدأن بالصراخ قائلات: «في الصف! هذه ليست مسيرة لنجوم السينما!».

لم تدعِ الممثلة مكاناً للخجل بل تابعت تقدمها راكضة يتبعها خمسة مصورين وكاميرامان اثنان.

أمسكت امرأة فرنسية وهي أستاذة في الألسنية الممثلة من معصمها وقالت لها (بلغة إنكليزية شنيعة): «هذه المسيرة أقيمت للأطباء كي ينقذوا الكمبوديين المرضى من الموت. نحن لا نقيم هنا استعراضاً للنجوم!».

كان معصم الممثلة محكماً داخل يد أستاذة الألسنية وكأنه داخل كماشة. لم تكن لديها القوة اللازمة للتملص منها.

قالت (بلغة إنكليزية ممتازة): «هذا ليس من شأنك! لقد شاركت في مئات المواكب! في كل مكان، يجب على الناس أن يروا نجوماً! هذه رسالتنا! هذا واجبنا الأخلاقي.

ـ «طُزّ!»، قالت أستاذة الألسنية (وفي فرنسية ممتازة).

فهمت النجمة الأميركية قولها وذرفت دموعها بغزارة.

«ابقي كما أنت»، هتف لها كاميرامان.

حدّقت الممثلة طويلاً في العدسة ودموعها تنساب على وجنتيها.

19

أفلتت أستـاذة الألسنية أخيـراً معصم النجمة الأميـركيـة. هتف المغنّي الألماني ذو اللحية السوداء والذي كان يحمل العلم الأبيض باسم الممثلة.

لم تكن الممثلة قـد سمعت به من قبـل ولكنها كـانت في لحظة الـذُّل هـذه حسّاسـة أكثر من العـادة لكل مبـادرات التعاطف. فمـا كان منهـا إلاَّ أن انطلقت في اتجاهه. نقل الشاعر ـ المغنّي سارية علمه إلى يده اليسـرى لكي يتمكن من إحاطة كتفيْ الممثلة بذراعه اليمنى.

أخـذ المصورون والكـاميرامـان ينطنـطون حول الممثلة والمغنّي. ثمـة مصور أميركي شهيـر أراد أن يُظهـرَ وجهيهما والعلم ضمن إطـار عدستـه. لم تكن هذه اللقطة سهلة نظراً لارتفاع السارية. أخذ يركض متـراجعاً في حقـل للرز، فـوضع قـدمه على لغم وحصـل انفجار. تنـاثر جسـده المهشم أشـلاءً وأمطر بِوَابل من الدم جموع المثقفين العالميين.

ارتعب المغني والممثلة وبقيا مسمّرين في مكانهما. رفع كلاهمـا نظره صـوب العلم. كان ملطخـاً بالـدم. في البدايـة كـان هـذا المنـظر يـزيـد من هلعهما. ولكن فيما بعد رَفعا بخجل عدة مرات أعينهما وأخـذا في الابتسام. كان يعتريهما شعور غـريب بالاعتـزاز، شعور لا عهـد لهما بـه من قبل وهمـا يفكران أن العلم الذي كانا يحملانه قد طهّره الدم، واستأنفا المسير.

20

كـانت الحدود مؤلفـة من جدول صغيـر لا تمكن رؤيته لأنـه على طول الحدود كان يمتد حائط ارتفاعه متر وخمسون سنتمتراً تعلوه أكياس رمـل مُعدّة للقناصين التايلنديين. لم يكن الحائط ينقطع سوى في مكان واحد عنـد جسر مقبب يتجاوز النهر. لم يكن مسمـوحاً لأحـد أن يتقدم. كـانت هناك فصـائل احتلال ڤيتنامية تتمركـز على الجانب الآخـر من النهر ولكن من غيـر أن يكون في الإمكان رؤيتها. كانت مراكزها مموّهة تمـاماً. ولكن لا شـك أن ڤيتناميين

محتجبين سوف يطلقون النار إن حاول أحدهم اجتياز الجسر.

اقترب بعض عناصر التظاهرة من الحائط ووقفوا على رؤوس أصابعهم. اتكأ فرانز إلى متراس بين كيسيْ رمل وأخذ يراقب. لم يتمكن من رؤية شيء لأن مصوّراً دفعه إلى الخلف معتبراً أن له الحق في أن يأخذ مكانه.

التفت إلى الوراء. على أغصان شجرة منفردة شبيهة بسرب من طيور الزاغ الضخمة، كان يجلس سبعة مصورين وأعينهم محدقة بالجهة الأخرى من النهر.

في هذا الوقت أدنى المترجم، الذي كان يمشي في طليعة التظاهرة، شفتيه من قمع ضخم وأخذ يزعق في لغة الخمير باتجاه النهر: ثمة أطباء هنا يطلبون بأن يُسمح لهم بالدخول إلى الأرض الكمبودية من أجل توزيع مساعداتهم الطبية. ونشاطهم هذا لا دخل له بالسياسة، دافعهم الوحيد الاهتمام بالحياة الإنسانية.

كان الجواب الذي وافاهم من الجهة المقابلة صمتاً لا يُصدّق، صمتاً كلياً إلى حدّ أن الجميع بدأ ينهشهم القلق. وحدها قعقعة الكاميرات كانت تتردد وسط هذا الصمت العظيم مثل طنين حشرة غريبة.

أحسّ فرانز فجأة أن المسيرة الكبرى قد شارفت على نهايتها. كانت الحدود تضيق على أوروبا لتصير المساحة التي تجري فيها المسيرة الكبرى مجرد منصة صغيرة وسط الكوكب. كانت الجموع التي تحتشد في الماضي عند أسفل المنصة قد أشاحت بوجهها منذ زمن طويل. وكانت المسيرة الكبرى تتابع تقدمها وحيدة ودون مشاهدين. نعم، كان فرانز يفكر أن المسيرة الكبرى تتابع طريقها بالرغم من لا مبالاة العالم ولكنها تصير متوترة ومضطربة. فأوروبا قد سارت بالأمس ضد الاحتلال الأميركي لڤيتنام، واليوم تسير ضد الاحتلال الڤيتنامي لكمبوديا. بالأمس تأييداً لإسرائيل واليوم من أجل الفلسطينيين، بالأمس من أجل كوبا وغداً ضد كوبا، ودائماً ضد أميركا، وكلّ مرة ضد المجازر، وكل مرة دعماً لمجازر أخرى. ولكي تتمكن أوروبا من اللحاق بإيقاع الأحداث من غير أن يفوتها أي منها، تزداد خطاها تسارعاً

بحيث أن المسيرة الكبرى صارت موكباً لأناس معجّلين يسيرون قفزاً، وبحيث أن الحلبة تتقلص يوماً بعد يوم إلى أن تصبح مجرد نقطة صغيرة.

21

هتف المترجم ثانية بندائه عبر مكبّر الصوت. ولكن، كما في المرة الأولى، كان الجواب الوحيد صمتاً هائلاً فظيعاً لا مبالياً.

كان فرانز يراقب. كان هذا الصمت الآتي من الجهة الأخرى يلطم وجوههم جميعاً وكأنه صفعة. حتى أنَّ المغني الذي يحمل العلم والممثلة الأميركية بَدَوا منزعجين ومترددين.

فهم فرانز فجأة كم أنهم كانوا مضحكين، هو والآخرين. ومع ذلك فإن إدراكه لهذه الحقيقة لم يكن يبعده عنهم ولا يثير فيه أي شعور بالسخرية منهم. على العكس، كان يشعر نحوهم بمحبة لا متناهية، كتلك المحبة التي نشعر بها تجاه المحكومين بالإعدام. المسيرة الكبرى تشارف على نهايتها، هذا صحيح. ولكن هل هذا سبب كافٍ لكي يخونها فرانز؟ ألم تكن حياته هو أيضاً تقترب من نهايتها؟ هل عليه إذاً أن يستهتر بتظاهرة هؤلاء الذين واكبوا حتى الحدود أطباءً شجعاناً؟ هل في مستطاع هؤلاء الناس أن يقدموا بشيء آخر غير العرض؟ وهل في حيلتهم شيء أفضل من هذا؟

كان فرانز على حق. أُفكّرُ في الصحافي الذي كان ينظم في براغ حملة تواقيع لالتماس العفو للمساجين السياسيين. كان يعرف جيداً أن هذه الحملة لن تساعد المساجين. فالهدف الحقيقي منها لم يكن تحرير المساجين وإنما التأكيد على أنه لا يزال هناك أناس لا يهابون شيئاً. كان العمل الذي يقوم به من باب العرض، ولكن لم تكن في يده حيلة أخرى. إذ لم يكن مخيّراً بين الفعل والعرض. كان في يده خيار واحد: إما القيام بعرض أو عدم القيام بشيء. ثمة ظروف يكون الإنسان فيها «محكوماً عليه» بأن يقوم بعرض. نضاله ضد السلطة الصامتة (سواء كانت السلطة الصامتة للضفة الأخرى من النهر أم الشرطة التي تحوّلت إلى آلات تسجيل صامتة

مخفية داخل الجدران) يشبه نضال فرقة مسرحية تستعد لمهاجمة جيش.

رأى فرانز صديقه في جامعة السوربون يرفع قبضته مهدداً صمت الضفة الأخرى.

22

للمرة الثالثة هتف المترجم بندائه عبر مكبّر الصوت.

ومن جديد أجابه الصمت مُحيلاً بغتة قلق فرانز إلى غضب مسعور. كان على بُعد بضع خطوات من الجسد الذي يفصل تايلندا عن كمبوديا، واجتاحته رغبة جامحة في الجري عليه وقذف شتائم فظيعة نحو السماء، وفي الموت وسط الضجة الهائلة لطلقات البنادق.

هذه الرغبة المباغتة لفرانز تذكرنا بشيء ما، نعم، تذكرنا بابن ستالين عندما انطلق راكضاً للتعلق بالأسلاك الشائكة لأنه لم يعد في استطاعته أن يتحمل رؤية قطبيْ الوجود البشري يقتربان إلى درجة التلامس، إلى درجة أنه لم يعد هناك من فرق بين النبيل والحقير، بين الملاك والذبابة.

لم يكن فرانز يستطيع التسليم بأن مجد المسيرة الكبرى صار مقتصراً على غرور مضحك لأناس يسيرون بانتظام، وبأن تختفي ضجة التاريخ العظيمة وسط صمت لا ينتهي بحيث أنه لا يعود هنالك فرق بين التاريخ والصمت. كان راغباً في أن يضع حياته في الميزان ليثبت أن كفة المسيرة الكبرى ستكون أكثر رجحاناً من كفة البراز.

ولكن ليس في الإمكان إثبات شيء من هذا القبيل. كان البراز في كفة ميزان، وجسد ابن ستالين كله في كفة الميزان الأخرى، ولكن الميزان لم يتحرك قيد أنملة.

بدل أن يقتل فرانز نفسه، حنى رأسه ولحق بالآخرين السائرين واحدهم خلف الآخر، ليستقلَّ الباص من جديد.

23

نحتاج جميعاً إلى أحد ما يراقبنا. ويمكن تصنيفنا إلى أربع فئات تبعاً لنوع النظرة التي نرغب العيش في ظلّها.

الفئة الأولى تفتش عن نظرات لا تحصى من العيون المجهولة، وبكلمة أخرى تفتش عن عيون الجماهير. هذه هي حال المغنّي الألماني والنجمة الأميركية. وهذه هي أيضاً حال الصحافي ذي الذقن الطويل المعقوف. لقد كان معتاداً على قرّائه، وحين حظّر الروس صدور مجلته الأسبوعية، أحسّ أنه يعيش في جو هواؤه أقل كثافة بمئة مرة. إذاً لا أحد يمكن أن يقوم عنده مقام العيون المجهولة. كان لديه شعور حينذاك بأنه يختنق. ثم أدرك ذات يوم أن الشرطة تلاحق كل خطوة من خطواته وأنها كانت تتنصت على كل مخابراته الهاتفية، وأنه كان يُصوَّر بطريقة سرية حتى عندما يكون في الشارع. عند ذلك أخذت عيون مجهولة تصحبه إلى كل مكان فتمكّن أخيراً من استعادة أنفاسه! وشعر بالغبطة! كان يخاطب آلات التسجيل المخفية داخل الجدران بلهجة مفخّمة. وكان يجد في البوليس جمهوره المفقود.

الفئة الثانية تتضمن هؤلاء الذين ليس في إمكانهم أن يعيشوا دون نظرات كثيرة مألوفة، هؤلاء الذين لا يتعبون من إقامة الحفلات ومآدب العشاء. إنهم أكثر سعادة من الناس المنتمين إلى الفئة الأولى الذين يحسبون أن الأضواء، حين يفقدون جمهورهم، قد أطفئت في قاعة حياتهم. وهذا ما يحدث لهم جميعاً بين يوم وآخر. أما ناس الفئة الثانية فيظل في إمكانهم التوصل إلى العثور على نظرات ما. وماري كلود وابنتها تنتميان إلى هذه الفئة.

ومن ثم تأتي الفئة الثالثة، فئة هؤلاء الذين هم بحاجة للعيش في ظلّ عيون أحبائهم. ظروفهم الحياتية خطرة قدر ما هي خطرة الظروف الحياتية لناس الفئة الأولى. ما إن تغمض عينا الحبيب حتى تغرق القاعة في ظلام دامس. بالإمكان تصنيف تيريزا وتوماس ضمن هذه الفئة.

وأخيراً هناك الفئة الرابعة وهي الأقل ندرة، وتتضمن أولئك الذين يعيشون في كنف أنظار موهومة لكائنات غائبة. هم الحالمون، فرانز مثلاً. إذا كان قد ذهب إلى الحدود الكمبودية وهذا فقط بسبب سابينا. كان يشعر وهو يترجرج في الباص على الطريق إلى كمبوديا، بأنها تحدّق إليه بنظراتها الثابتة.

ابن توماس ينتمي إلى هذه الفئة أيضاً. سوف أدعوه سيمون (وهو سيُسرّ لإعطائه اسماً توراتياً مثل اسم أبيه). كانت النظرة التي يتوق إليها هي نظرة توماس. كان قد طرد من الجامعة لاشتباهه بأنه كان من ضمن أصحاب حملة التواقيع. كانت الفتاة التي يعاشرها ابنة شقيق كاهن ريفي. تزوجها وأصبح سائق شاحنة زراعية في تعاونية. أصبح كاثوليكياً ممارساً وأباً لعائلة. علم أن توماس كان يسكن هو أيضاً في الريف. وهذا أدخل السعادة إلى قلبه. لقد جعل القدر حياتهما متعادلتين. هذا ما دفعه لأن يكتب رسالة. لم يكن يطلب رداً بل كان يريد شيئاً واحداً: أن يُلقي توماس نظرته على حياته.

24

فرانز وسيمون هما الحالمان في هذه الرواية. بخلاف فرانز، سيمون لم يكن يحب والدته. بل كان يفتش منذ الطفولة عن أبيه. كان مستعداً للإيمان بأن إهانة ألحقت بأبيه ففسّرَت إجحافه بحقه.. لم يحقد عليه قط ورفض أن يكون حليف أمه التي كانت تمضي وقتها في الذم بتوماس.

عاش معها حتى الثامنة عشرة ثم ذهب بعد حصوله على شهادة البكالوريا لتحصيل علومه في براغ. في ذلك الحين كان توماس منظف زجاج. انتظره سيمون مرات عدة لكي يحضّه للقاء مفاجىء في الشارع، ولكن أباه لم يكن يتوقف مطلقاً.

إنْ كان قد تعلّق بالصحافي القديم ذي الذقن الطويل والمعقوف فهذا لأنه كان يذكّره بمصير والده. لم يكن الصحافي يعرف اسم توماس فالمقال عن أوديب كان منسياً، فنبّهه سيمون إلى وجوده وطلب منه أن يرافقه لرؤية توماس ويعرضا عليه التوقيع على عريضة. ولم يكن امتثال الصحافي إلا من

باب إدخال السرور إلى قلب الشاب الذي كان يحبه حباً جماً.

عندما كان سيمون يفكر في ذلك اللقاء كان يشعر بالخجل من وَهَله. من المؤكد أنه لم يُعجب أباه. أما هو فأعجب بأبيه. كان يتذكر كل كلمة تفوّه بها مستصوباً مواقفه أكثر فأكثر. هناك جملة على الأخص علقت بذاكرته: «إدانة هؤلاء الذين لا يعرفون ماذا يفعلون، عمل بربري». وعندما وضع عمّ صديقته كتاب التوراة بين يديه، تأثر بكلمات يسوع التي تقول: «إغفر لهم لأنهم لا يدرون ماذا يفعلون». كان يعرف أن أباه ملحد ولكن التشابه بين الجملتين كان بالنسبة له وكأنه رمز خفي يعني أن أباه يستحسن الطريق التي اختارها.

كان يعيش في القرية منذ ما يزيد على سنتين عندما تسلّم رسالة دعاه فيها توماس لزيارته. كان اللقاء ودياً وأحسَّ سيمون بأنه على سجيته فما عاد يتأتىء إطلاقاً. لا شك في أنه لم يلاحظ أنهما ليسا متفاهمين إلى الحد الذي تصوّر. بعد نحو أربعة أشهر تلقّى برقية جاء فيها أن توماس وزوجته ماتا مهشميْن في حادث شاحنة.

في ذلك الوقت سمعهم يتحدثون عن امرأة كانت في السابق عشيقة أبيه وتعيش حالياً في فرنسا. فحصل على عنوانها. وبما أنه كان في حاجة ماسة إلى عين وهمية تتابع مراقبة حياته، أخذ يكتب لها إذاً من وقت لآخر رسائل مطوّلة.

25

حتى آخر حياتها ظلّت سابينا تتلقى الرسائل من ذلك المراسل الريفي التعيس. كثير من هذه الرسائل لم يُفتح، لأن اهتمامها بالبلد الذي هو مسقط رأسها، أخذ يتناقص مع الأيام.

مات الرجل العجوز وذهبت سابينا للإقامة في كاليفورنيا. أكثر فأكثر باتجاه الغرب، وأبعد فأبعد من بوهيميا.

كانت لوحاتها تباع بشكل جيد وكانت تحب أميركا ولكن فقط حباً

سطحياً. فتحت السطح ثمة عالم غريب عنها. إذ لم يكن لديها تحت الأرض جدّ أو عمّ. كانت تخاف من أن يُغلق عليها داخل نعش وأن تُدلّى في أرض أميركا.

لذلك كتبت وصية اشترطت فيها أن تُحرق جثتها بعد موتها، وأن يُنثر رمادها في الهواء. تيريزا وتوماس ماتا تحت شعار الثقل. أما هي فأرادت أن تموت تحت شعار الخفة. سوف تصير أخف من الهواء. وحسب رأي بارمينيد، فإن موتها هو تحوّل من السلبي إلى الإيجابي.

26

توقف الباص أمام فندق في بانكوك. لم يعد أحد راغباً في تنظيم اجتماع. فتفرق الجمع إلى جماعات صغيرة وانطلقوا عبر المدينة، بعضهم ذهب لزيارة المعابد وبعضهم الآخر لزيارة المبغى. اقترح الصديق في جامعة السوربون على فرانز أن يمضيا السهرة معاً، ولكنه آثر البقاء وحيداً.

كان المساء قد حلّ عندما خرج. كان يفكر في سابينا باستمرار ويشعر أنها تحدق إليه بنظرتها الثابتة، التي كان يشعر أن الشك يأخذ في الاعتمال في نفسه تحت تأثيرها لأنه لا يعرف ماذا يجول حقاً في فكر سابينا.. هذه المرة أيضاً رمته تلك النظرة في الحيرة. تُرى، ألم تكن تهزأ منه؟ ألم تكن تجد العبادة التي يخصها بها أمراً سخيفاً؟ ألم تكن تريد إفهامه أنه آن الأوان ليتصرف تصرف إنسان ناضج وأن يكرس نفسه كلياً لصديقته التي أرسلته بنفسها إلى هناك!

حاول أن يتخيل الوجه الذي يرتدي نظارة كبيرة. وبدأ يتفهم بوضوح مدى السعادة التي كان يشعر بها بصحبة طالبته فبدا له سفره إلى كمبوديا أمراً مضحكاً ودون معنى. في الواقع، ما الذي أتى به إلى هنا؟ الآن، بدأ يعرف السبب. قام بهذه الرحلة ليعرف أخيراً أن حياته الحقيقية، أن حياته الواقعية الوحيدة لا تتمثل في التظاهرات ولا في سابينا وإنما في طالبته صاحبة النظارة! قام بهذه الرحلة ليقنع نفسه أن الحقيقة شيء أكثر من الحلم، شيء أفضل بكثير من الحلم!

ثم فجأة، انبثقت من الظلام هيئة وخاطبته ببضع كلمات في لغة لم يفهمها. نظر إلى الهيئة بدهشة ممزوجة بالتعاطف. كان المجهول ينحني ويبتسم ولا يكف عن الرطن بلهجة ملحة. ماذا كان يقول له؟ اعتقد لأول وهلة أنه كان يتوسل إليه للّحاق به. أمسكه الرجل من يده وجذبه. فقال فرانز في نفسه إنه يحتاج لمساعدة ربما. أيكون فرانز لم يأتِ إلى هنا عبثاً؟ أيكون مجيئه إلى هنا من أجل إسعاف أحدٍ ما؟

وفجأة انبثق شخصان آخران إلى جانب الرجل الذي كان يرطن بلغة غير مفهومة. ثم أمر أحدهما فرانز بأن يعطيهم مالاً.

عندها اختفت الفتاة الشابة صاحبة النظارة من مجال تفكيره. أخذت سابينا من جديد تراقبه، سابينا اللاحقيقية بقدرها العظيم، سابينا التي كان يشعر في حضرتها أنه صبي صغير. ها هي عيناها تراقبانه بنظرات تعبر عن الغضب وعدم الرضى. لماذ، هل ترك نفسه تنخدع مرة أُخرى؟ هل كان يدع طيبته الحمقاء تُستغَل مرة أُخرى؟

وبضربة واحدة أفلت من قبضة الرجل الذي كان يتشبث بكُمّه. كان يعرف أن سابينا قد أُعجبت دائماً بقوّته. فأمسك الذراع التي شهرها الرجل الآخر نحوه، أمسكها بقوة وقام بلقطة جودو موفقة تماماً فجعله يدور من فوق رأسه.

الآن، كان فخوراً بنفسه، عينا سابينا لم تكونا تفارقانه. لن تراه بعد اليوم مهاناً! لن تراه متراجعاً بعد الآن! ولن يعود فرانز الضعيف والعاطفي بعد اليوم!

كان يحس بحقد ممزوج بالسعادة حيال هؤلاء الرجال الذين يودون استغلال سذاجته. كان يقف محنياً قليلاً دون أن يشيح بنظره عنهم. ولكن فجأة انهال شيء ثقيل على رأسه فتهاوى على الأرض. كان يشعر وهو نصف واعٍ أنه يتم نقله إلى مكان ما، ثم بدأ يسقط في الفراغ. أحس بضربة عنيفة أخرى، وفقد وعيه كلياً.

استيقظ بعد وقت طويل في إحدى مستشفيات جنيف. كانت ماري -

كلود تنحني فوق سريره. فأراد أن يقول لها إنه لا يرغب في رؤيتها هنا. كان يريدهم أن يُعلموا الطالبة ذات النظارة الكبيرة بوجوده في المستشفى. فهو كان يفكر فيها هي دون سواها. كان يريد أن يزعق في وجهها قائلاً إنه لا يحتمل وجود أحدٍ قرب سريره. لكنه اكتشف مذعوراً بأنه غير قادر على الكلام. كان ينظر إلى ماري ـ كلود بحق لا متناهٍ، وأراد أن يستدير ناحية الحائط كي لا يراها. ولكنه لم يكن في استطاعته تحريك جسده. فحاول أن يشيح على الأقل بوجهه. ولكنه حتى لم يستطع القيام بأدنى حركة، أغمض عندئذ عينيه كي لا يراها.

27

ها قد انتسب فرانز الميت أخيراً إلى زوجته الشرعية كما لم ينتسب إليها من قبل. ها إن ماري ـ كلود تقرر كل شيء وتقوم بتنظيم مراسم الجنازة وترسل أوراق النعي وتبعث في طلب الأكاليل، وتخيط لنفسها ثوباً أسود الذي هو في الحقيقة ثوب زفاف. نعم، إن دفْنَ الزوج أخيراً هو عرس الزوجة الحقيقية، وهو تتويج لحياتها ومكافأة تكفّر عن كل عذاباتها.

على أية حال، الكاهن يفهم ذلك جيداً ويعظ فوق القبر عن الحب الزوجي السرمدي الذي توجب عليه أن يتجاوز محناً كثيرة ولكنه بقي للفقيد، وحتى آخر أيامه، ملجأ أميناً يستطيع الرجوع إليه في اللحظة الحرجة، حتى أن زميل فرانز الذي طلبت منه ماري ـ كلود أن يقول كلمة صغيرة فوق النعش حيًّا فيها خصوصاً زوجة الفقيد الشجاعة.

في مكان ما في الخلف، كانت هناك الفتاة الشابة صاحبة النظارة الكبيرة، متقوقعة تستند إلى صديقة. كانت مختنقة من فرط البكاء وكانت قد ابتلعت أقراصاً كبيرة فأصيبت بتشجنات قبل نهاية الجنازة. كانت تتلوى من الألم وتمسك بطنها، فما كان من صديقتها إلا أن ساعدتها فخرجت من الجنازة.

28

مـا أن تلقّى برقيـة رئيس التعاونيـة، ركب على دراجته وانـطلق. تكفّل القيام بمراسم الدفن. وحفر على شاهدة القبر تحت اسم أبيه الكتابة التـالية: «أراد مملكة الله على الأرض».

كـان يعرف جيـداً أن والده لم يكن ليستعمـل هذه الكلمـات مـطلقـاً. ولكنه كان متأكداً من أن الكتابة تعبر بدقـة كما كـان يريـده أبوه. فمملكـة الله تعني العدالة وتوماس كان متعطشاً إلى عالم تسوده العدالة. ألا يحق لسيمون إذاً أن يعبـر عن حياة أبيـه بلغته هو؟ ألا يتوارث جميـع الأبناء هـذا الحق منذ عصور سحيقة؟

بعـد ضلال طـويل، العـودة، يمكننا أن نقـرأ على شاهـدة قبر فـرانـز. يمكن أن تؤول هذه الكتابـة على أنها إشـارة لرمـز ديني: الضلال في الحيـاة الأرضيـة والعودة بين ذراعي الله. ولكن المـطلعين على الأسـرار يعـرفـون أن لهـذه الجملة أيضاً معنى تجـديفيـاً تمـامـاً. من جهـة أخـرى، مـاري ـ كلود تتحدث بهذا الخصوص كل يوم:

فرانز، ذاك العزيز، فرانز ذاك الشجاع، لم يستطع أن يتحمل وطأة سن الخمسين فـوقع بين بـراثن فتاة مسكينـة! لم تكن حتى جميلة. (أما لاحـظتم نظارتها الكبيرة التي بالكاد تُرى خلفهـا؟) ولكن رجلاً في الخمسين (ونعـرف ذلك جميعاً) يبيع روحه لقـاء قطعـة لحم فتية. ووحـدها زوجتـه تستطيـع أن تدرك عمق ألمه. كان فرانـز يعيش عذابـاً روحياً حقيقيـاً! ففرانـز في أعماقـه رجـل شريف وطيب. وإلا فكيف نفسّـر هذا السفـر السخيف اليائس إلى بلد بعيد في آسيا؟ لقد ذهب يبحث عن موته. نعم، ماري ـ كلود متأكدة من هذا الأمر: من أن فرانز اختار موته بعـد طول تبصـر. وخلال أيـامه الأخيـرة وفيما كان يشارف على الاحتضـار ولم يعد حينئـذ بحاجـة للكذب، لم يعـد يومهـا راغباً إلا في رؤيتها هي. لم يكن قادراً على الكلام ولكنـه كان يـوجه شكـره لها على الأقل عبر نظراته. كانت عيناه تطلبـان المغفرة منهـا، وها قـد غفرت له.

29

ماذا بقي من محتضري كمبوديا؟

صورة كبيرة للنجمة الأميركية تحمل بين ذراعيها طفلاً أصفر.

ماذا بقي من توماس؟

كتابةٌ: أراد مملكة الله على الأرض.

ماذا بقي من بيتهوفن؟

رجل مقطب الوجه، مشعث الشعر كمجنون وينطق بصوت مكتئب «Esmuss sein» «ليس من ذلك بدّ».

ماذا بقي من فرانز؟

كتابةٌ: بعد طول ضلال، العودة.

وهكذا دواليك، وهكذا دواليك. قبل أن نُنسَى نتحول إلى «كيتش». «الكيتش» هو محطة اتصال بين الكائن والنسيان.

ابتسامة كارينين

1

كانت النافذة تطل على تلّة توشيها قامات ملتوية من أشجار التفاح. في أعلى التلة، كانت الغابة تغطي الأفق وكانت استدارة التلال تمتد إلى البعيد. . عند المساء، كان قمر أبيض يبزغ في السماء الشاحبة وكان هذا هو الوقت الذي تظهر فيه تيريزا على العتبة. كان القمر المعلّق في السماء التي لم تُقتم بعد مثل لمبةٍ نُسيت أن تُطفأ في الصباح، وبقيت مضاءة طيلة النهار في غرفة الموتى.

كانت أشجار التفاح الملتوية تنبت على التلة ولا أحد يستطيع أن يترك المكان الذي نمت فيه جذوره. كذلك فإن تيريزا وتوماس لم يعودا قادرَيْن إطلاقاً على مغادرة هذه القرية. كانا قد باعا سيارتهما وجهازَيْ التلفزيون والراديو ليتمكنا من شراء بيت صغير مع حديقة، مِنْ فلاحٍ ذاهب للإقامة في المدينة.

الذهاب للعيش في الريف كان إمكانية الفرار الوحيدة التي تبقت لهما. لأن الريف الذي كان يفتقد إلى السواعد باستمرار ما كانت تنقصه المساكن. ثم أن لا أحد يهتم بالماضي السياسي لهؤلاء الذين يقبلون بالذهاب للعمل في الحقول أو في الغابات. ولا أحد كان يحسدهم.

كانت تيريزا سعيدة لأنها تركت المدينة وصارت بعيدة عن الحانة وزبائنها السكارى، وصارت بعيدة عن النساء المجهولات اللواتي يتركن روائح فروجهن في شعر توماس. ها إن الشرطة قد أقلعت عن الاهتمام

بهما. وبما أن قصة المهندس كانت تتماثل في ذاكرتها مع مشهد «مون دو بيير» فإنها بالكاد كانت تلاحظ الفرق بين الحلم والحقيقة. (على أية حال، هل المهندس هو حقاً في خدمة الشرطة السرية؟ ربما نعم وربما لا. ثم إن هناك الكثير من الرجال الذين يعيرون شققهم لبعضهم من أجل مواعيدهم الغرامية، أو هؤلاء الذين لا يحبون مضاجعة المرأة نفسها أكثر من مرة واحدة).

كانت تيريزا سعيدة إذاً معتقدةً أنها وصلت إلى هدفها: كانا معاً هي وتوماس وحدهما، وحدهما؟ عليَّ أن أكون أكثر دقة: إن ما أدعوه الوحدة يعني أن يقطعا كل علاقة بأصدقائهما القدامى وبمعارفهما، أن يقتطعا حياتهما السابقة كما يُقطَع شريط بالمقص. ولكنهما كانا يشعران بالسعادة في صحبة المزارعين حيث يعملان معهم، وحيث كانا يقومان بزيارتهم من وقت لآخر أو يدعوانهم لزيارتهما.

يوم تعرّفت تيريزا إلى رئيس التعاونية في مدينة المياه المعدنية التي تغيرت أسماء شوارعها لتصبح روسية، اكتشفت فجأة في داخلها صورة الريف التي خلّفتها ذكريات قراءاتها أو أجدادها: عالم متناغم حيث تتحد فيه جميع العناصر لتؤلف عائلة كبيرة تتقاسم الاهتمامات ذاتها والعادات ذاتها: في أيام الآحاد الذهاب لسماع القداس في الكنيسة، والنزل حيث يتلاقى الرجال دون النساء، وصالة هذا النزل عينه التي تقام فيها حفلة موسيقية كل سبت وحيث يأتي أهالي القرية جميعاً للرقص.

ولكن القرية في ظل الشيوعية لم تعد تشبه هذه الصورة القديمة. كانت الكنيسة موجودة في مجمع مجاور، ولا أحد يذهب إليها أما النزل فقد تحوّل إلى مكاتب ولم يعد الرجال يعرفون أين يستطيعون التلاقي ولم يعد في الإمكان الاحتفال بأعياد دينية، والأعياد الرسمية لم تعد تثير اهتمام أحد. كانت أقرب سينما إلى المدينة تقع على مسافة عشرين كيلومتراً. وكان الناس بعد انتهائهم من العمل حيث كانوا يتنادون بسعادة مغتنمين فترة الاستراحة للثرثرة فيما بينهم، يعودون للانزواء داخل جدران بيوتهم الصغيرة بأثاثها العصري ولكن المختار بذوق رديء يعصف فيها مثل تيار هوائي. كانوا

يقبعون هناك، أعينهم مسمّرة إلى جهاز التلفزيون. لم يكونوا يذهبون للزيارة بعضهم لبعض. وبالكاد كانوا يذهبون أحياناً للدردشة مع الجار قبل تناول العشاء. كان الجميع يحلم بالذهاب إلى المدينة. إذ إن القرية لم تكن تمنح أي شيء من شأنه أن يثير قليلاً من الاهتمام بالحياة.

وبسبب أن لا أحد عاد يريد الإقامة في القرية فإن الدولة فقدت سلطتها عليها. المزارع الذي لم يعد مالكاً لأرضه صار يعمل في الحقول أجيراً ولم يعد متعلقاً لا بالطبيعة ولا بعمله. لم يعد لديه هناك ما يخشى فقدانه. وبفضل هذه اللّامبالاة حافظت القرية على فسحة لا يستهان بها من الاستقلال والحرية. لم يكن رئيس التعاونية يُعيَّن من الخارج (كما هو حال جميع المسؤولين في المدن) بل كان منتخباً من قبل المزارعين، وواحداً منهم.

وبما أن الجميع كان راغباً في الرحيل فإن وضع تيريزا وتوماس يصير إذ ذاك استثنائياً: لقد أتيا بكامل إرادتهما. كان الآخرون يغتنمون الفرصة من أجل قضاء النهار في البلدان المجاورة. أما تيريزا وتوماس فلا يطلبان سوى البقاء حيث كانا: ولم يلبثا أن تعرّفا إلى القرويين أفضل مما يعرف القرويون أنفسهم.

أصبح رئيس التعاونية صديقهما المخلص. كانت لديه زوجة وأربعة أولاد وخنزير رُبيَ كأنه كلب. كان الخنزير يدعى مفيستو وكان مفخرة القرية ومحط إعجابها. كان يلبي النداء ما أن يسمعه، وكان نظيفاً للغاية، زهريّ اللون يجري بسرعة وبخطى صغيرة على كعابه الصغيرة، كما تجري امرأة ذات ربلات ضخمة على كعبيها العاليين.

كانت كارينين متحيرة حين رأت مفيستو للمرة الأولى وأمضت وقتاً طويلاً تدور حوله ثم أخذت تستنشقه. ولكنها ما لبثت أن ارتبطت بصداقة وثيقة معه مفضّلة إياه على كلاب القرية التي كانت تكرهها وكانت مربوطة إلى بيوتها تنبح ببلاهة طيلة الوقت دون سبب. كانت كارينين تقدر الندرة حق قدرها. وكانت متعلقة بهذه الصداقة مع الخنزير.

كان رئيس التعاونية سعيداً لتمكنه من مساعدة جرّاحه القديم وتعيساً في

الوقت نفسه لأنه لا يستطيع أن يفعل له أكثر من ذلك. كان توماس سائق شاحنة يقود المزارعين إلى حقولهم. يقوم بنقل المعدات الزراعية.

كانت التعاونية مؤلفة من أربعة مبانٍ كبيرة لتربية الماشية، وإلى ذلك زريبة صغيرة تحوي أربعين بقرة عُهِد بها إلى تيريزا لتصطحبها إلى الحقل مرتين في النهار. كانت الحقول المجاورة والتي يمكن الوصول إليها بسهولة مخصصة لحصاد الكلأ. كان على تيريزا اصطحاب قطيعها إذاً إلى التلال المجاورة. كانت البقرات ترعى العشب من المراعي البعيدة، وكانت تيريزا تلحق بها خلال السنة، في طول المنطقة الفسيحة التي تحيط بالقرية. وكما في المدينة الصغيرة، كانت تمسك دائماً كتاباً في يدها تفتحه حين تصل إلى الحقول وتبدأ بالقراءة.

كانت كارينين تصحبها دائماً إلى هناك. كانت قد تعلّمت النباح خلف البقرات الصغيرات حين يكنَّ بطرات وينوين الابتعاد عن الأخريات. كانت كارينين تشعر بمتعة بديهية، من بين الثلاثة كانت هي الأكثر سعادة إطلاقاً، إذ لم تكن وظيفتها «كمستشارة الساعة» محترمة إلى هذا الحد حتى اليوم، دون أن يكون فيها مكان للارتجال. فالزمن الذي كانت تعيش فيه تيريزا وتوماس، كان يتقرب من انتظام زمن كارينين.

ذات يوم بعدما تناولا الإفطار، (كانا يملكان ساعة فراغ في هذا الوقت كل يوم) قاما بنزهة برفقة كارينين إلى منحدر التلة خلف البيت.

قالت تيريزا: «لا تعجبني الطريقة التي تمشي فيها».

كانت كارينين تعرج من رجلها اليسرى. انحنى توماس متلمساً رجلها، فاكتشف توماً صغيراً في فخذها.

في صباح اليوم التالي أجلسها قربه على مقعد الشاحنة وتوقّف في القرية المجاورة حيث يقطن بيطريّ. ذهب لزيارته خلال أسبوع وعاد معلناً أن كارينين مصابة بالسرطان.

بعد ثلاثة أيام، أجرى لها الطبيب البيطري عملية جراحية عندما اصطحب كارينين إلى البيت، لم تكن قد أفاقت من المخدر بعد. كانت

نائمة على السجادة، عيناها مفتوحتان وتنوح. كان شعرها محلوقاً عند فخذها وجرحها مخاطاً بست قطب إلحام.

بعد قليل، حاولت أن تنهض، لكن دون جدوى.

خافت تيريزا: وماذا لو لم يعد في استطاعتها السير من جديد؟

ـ «لا تخافي، قال توماس، لا تزال تحت تأثير المخدر».

حاولت أن ترفعها ولكنها بدأت تصفّق بفكّيها. كانت هذه المرة الأولى التي تريد فيها العضّ!

لا تعرف من أنتِ، قال توماس. لم تتعرف إليكِ بعد»،

مدّداها قرب سريرهما فغفت بسرعة. وغَفَوا بدورهما، ثم أيقظتهما فجأة عند الساعة الثالثة صباحاً. كانت تهز ذنبها وتدوس تيريزا وتوماس متمرغة بهما بشراسة ودون توقف.

هذه المرة لم تستطع أن تسيطر على نفسها وقْتَ بدأت تستعيد وعيها كاملاً خلال الليل.. مَنْ يعرف من أية مسافات بعيدة كانت راجعة! مَن يعرف أية أشباح واجهت! الآن وقد اكتشفت أنها في بيتها وتعرفت إلى الكائنَيْن الأحب إلى قلبها، لم تستطع الامتناع عن إشاعة فرحتها التي لا توصف، تلك الفرصة التي شعرت بها عند رجوعها وولادتها الجديدة.

2

جاء في بداية سفر التكوين أن الله خلق الإنسان وجعله يتسلط على الطيور والأسماك والماشية. بطبيعة الحال، الحق في سفك دم أيّلٍ أو بقرة هو الشيء الوحيد الذي اتفقت عليه الإنسانية جمعاء بتآخٍ حتى خلال الحروب الأكثر دموية.

قد يبدو لنا هذا الحق بديهياً لأننا نعتبر أنفسنا في قمة السلم. ولكن يكفي أن يتدخل شخص ثالث في اللعبة، زائر آتٍ مثلاً من كوكب آخر وقد أمره الله: «سوف تكون لك سلطة على كائنات الكواكب الأخرى كافة»، فتصبح عندئذ بداهة التكوين موضع شك في الحال. فلنتصور الإنسان وقد

وثقه أحد سكان المريخ بعربة ثم قلّبه أحد سكان المجرة على سيخ ليشويه، ربما سيتذكر حتماً حينئذ ضلع العجل الذي اعتاد على تقطيعه في صحنه، وسيقدم اعتذاره (ولو متأخراً جداً) للبقرة.

تيريزا تقدم قطيع بقراتها وتدفعهن أمامها. ينبغي عليها دائماً أن تزجر إحداهن لأن البقرات الصغيرات لعوبات، ويبتعدن عن الطريق المرسوم ليذهبن للعب في الحقول. ها قد مرّت سنتان وكارينين ترافق البقرات وتتبعهن كلّ يوم إلى المرعى. كان يسلّيها جداً أن تكون صارمة معهن، كأن تنبح في إثرهن أو أن تزجرهن. (فالله قد أعطاها حق السيادة على البقرات وهي فخورة بذلك). ولكنها اليوم تمشي بصعوبة كبيرة وتقفز على ثلاثة أرجل لأن في رجلها الرابعة جرحاً ينزف. تيريزا تنحني كل دقيقتين لتداعب ظهرها. خمسة عشر يوماً مرت على إجراء العملية، ومن الجلي أن السرطان لا يتوقف عن الانتشار، وأن كارينين تسير من سيء إلى أسوأ.

أثناء المسير، التقين بجارة تزور الإسطبل منتعلة جزمتها المطاطية. توقفت الجارة وسألت: «ما بها كلبتك؟ كأنها تعرج!». أجابت تيريزا: «إنها مصابة بالسرطان ومحكوم عليها بالموت». فأحسّت عندها بأن حلقها منقبض وبأنها تجد صعوبة في الكلام. شاهدت الجارة دموع تيريزا فغضبت: «ماذا دهاكِ، مهما يكن، لا يجدر بك أن تبكي من أجل كلبة!». لم تقل ذلك عن سوء نية، فهي طيبة القلب ولكنها قالت ذلك لتؤاسي تيريزا وتيريزا تعرف. فهي تسكن في القرية منذ وقت طويل وتعرف جيداً أن المزارعين إذا كانوا يحبون أرانبهم كما تحب هي كارينين فإنهم لا يعودون قادرين على قتل أي منها، ولن يلبثوا حتى أن يقضوا وحيواناتهم في الوقت نفسه. وبالرغم من هذا الأمر فقد بدت لها ملاحظة الجارة عدائية. «أعرف»، أجابت دون اعتراض، ولكنها استدارت على عجلة متابعة طريقها. أحست أنها وحيدة بحبها لكلبتها. كانت تفكر وهي تبتسم بأسىً أنَّ عليها أن تخفي هذا الحب بعناية قصوى كمن يُخفي خيانة ما فالحب الذي نحمله لكلبة مثير للاستنكار. لو علمتِ الجارة بأنها تخون توماس لربّتت ربما على ظهرها مشجعة ولابتسمت لها بشكل متواطىء!.

ها هي تتابع طريقها برفقة بقراتها اللواتي يتصادمن، قائلة في نفسها إن هذه البهائم عذبة جداً، هادئة، دون مكر وأحياناً فرحة فرحاً طفولياً: تخالها سيدات سمينات في الخمسين من عمرهن يتظاهرن بأنهن في سن الرابعة عشرة. لا يوجد شيء أكثر إثارة للعطف من منظر بقرات يلعبن. تيريزا تنظر إليهن بمحبة وتفكر (وهذه الفكرة تعاودها دون توقف من سنتين) إن البشرية تعيش متطفلة على البقرة كما تعيش الدودة الوحيدة متطفّلة على الإنسان: البشرية تتشبث بضروعها تشبثَ العلق. الإنسان هو طفيلي البقرة. ومما لا شك فيه أن هذا هو التعريف الذي يمكن أن يعطيه لا إنسان للإنسان في علم الحيوان.

يمكن أن نرى في هذا التعريف مجرد مزحة ونبتسم لها بتسامح. ولكن إذا كانت تيريزا تأخذها على محمل الجد فإنها تدب والحالة هذه بنفسها في منزلق خطر: هذه الأفكار خطيرة وتبعدها عن الإنسانية. ففي سفر التكوين، عهد الله إلى الإنسان بالسيادة على الحيوانات. وبإمكاننا أن نفسر ذلك قائلين إن الله قد أعار هذه السلطة له. الإنسان ليس مالك الكوكب بل وكيله وعليه ذات يوم أن يقدم كشفاً لحسابه. ديكارت ذهب أبعد من ذلك في هذا المنحى: جعل الإنسان «سيد الطبيعة ومالكها». وهو منطقي جداً بالتأكيد فيما يتعلق بنفيه لوجود الروح عند الحيوانات. فحسب ما يقول ديكارت، الإنسان هو المالك والسيد فيما الحيوان ليس إلا مسيّراً وآلة حية، أو ما يمسيه بال «ماشينا ـ أنيماتا». عندما يئن الحيوان فالأمر لا يتعلق بشكوى بل بصرير تطلقه آلة تسير بشكل سيء. فحين تئز عجلة عربة فهذا لا يعني أن العربة تتألم بل لأنها تحتاج إلى تشحيم. وبالطريقة ذاتها يجب أن يُفسّر نحيب الحيوان. ويجب ألا نشفق على كلب يُشرَّح وهو حيّ في مختبر.

البقرات ترعى في أحد الحقول وتيريزا جالسة على أرومة شجرة وعند قدميها كارينين تضطجع مسندة رأسها إلى ركبتيها. تتذكر تيريزا خبراً صغيراً من سطرين قرأته في جريدة جاء فيه أن جميع الكلاب قُتلت في إحدى المدن الروسية. هذا الخبر الصغير المتكتم وغير المهم ظاهرياً جعلها تشعر للمرة الأولى بفظاعة هذا البلد الكبير المجاور.

كـان هذا استبـاقاً لكـل مـا حصـل فيمـا بعـد، ففي أول سنتين أعقبتـا الاجتياح الروسي، لم يكن في الإمكان بعد التحـدث فعلياً عن الـرعب. بما أن الأمـة بأجمعهـا تقريبـاً كانت تشجب نـظام الاحتلال، اقتضى بـالروس أن ينتقـوا من بين التشيكيين رجـالاً يضعـونهم في سـدة السلطة. ولكن كيف نجدهم خصوصاً وأن الإيمان بالشيوعية وحب روسيا باتا أمرين مفروغ منهما؟ ذهبـوا للبحث عنهم بين هؤلاء الذين يغـذون في داخلهم الرغبـة الحقودة في تسديد حساباتهم مع الحياة. . كان الأمر يتطلب بأن يُشـد أزر هذه العـدائية وتغـذيتها وجعلهـا في حالـة تأهب، وتـدريبهـا في أول الأمـر ضـدّ أي خـطر محتمل. وهذا الخطر يكمن في الحيوانات.

أخذت الصحف تنشر آنذاك سلسلة مقالات وتنـظّم حملات في شكـل رسائل للقراء. على سبيل المثال، المطالبة بإبـادة الحَمام في المـدن، فتمّتْ إبادة الحمام كلياً. ولكن الحملة كانت متـوجهة على الأخصّ ضـد الكلاب. كـان الناس لا يـزالون يعيشـون الصدمـة الناتجـة عن كارثـة الاحتـلال، أمـا الصحف والراديو والتلفزيون فكانت تتحدث فقط عن الكلاب ملوثة الأرصفـة والحدائق العامة، والمهددة لصحة الأطفال، والتي لا تنفع لشيء والتي يجب إطعـامها، إلى ذلـك كان يجـري خلق جو من الهـوس الفعلي وكانت تيـريزا تخـاف من أن يُسيء السفلة إلى كارينين. بعـد مرور سنـة على ذلـك انصب الحقد المتراكم (المجرب في البدء على الحيـوانات) على هـدفه الفعلي أي الإنسـان. وبـدأت التسـاريـح وحمـلات التـوقيف والمحـاكمـات. وهكـذا استطاعت الحيوانات أخيراً أن تستعيد أنفاسها.

داعبت تيريزا رأس كارينين المستند بهدوء إلى ركبتيها. كـانت متمسكة تقريباً بهذه الفكرة: لا فَضْلَ لمن يتصرف جيداً مع أمثاله. تيريزا مضـطرة لأن تكـون مستقيمة مـع القرويين وإلا لمـا كان بـإمكانهـا أن تعيش في جوارهم. وحتى مع توماس هي مجبرة على أن تتصرف كامرأة محبة لأنهـا بحاجـة إليه. ليس في الإمكان قط أن نحدد بدقة إلى أي مدى تكون علاقاتنا بالآخرين هي حصيلة مشـاعرنـا، حبّنا أو لا حبّنـا، رقتنا أو كـراهيتنا؛ وإلى أي مـدى تكون علاقاتنا مشروطة مسبقاً بامتحان القوى فيما بين الأفراد.

الطيبة الحقيقية للإنسان لا يمكن أن تظهر في كلّ نقائها وحريتها إلاّ حيال هؤلاء الذين لا يمثلون أية قوة. فالامتحان الأخلاقي للإنسانية (الامتحان الأكثر جذرية والذي يقع في مستوى أكثر عمقاً بحيث أنه يخفى عن أبصارنا) هو في تلك العلاقات التي تقيمها مع من هم تحت رحمتها، أي الحيوانات. وهنا بالذات يكمن الإخفاق الجوهري للإنسان، الإخفاق الذي تنتج عنه كل الإخفاقات الأخرى.

اقتربت بقرة من تيريزا، ثم توقفت وأمعنت النظر فيها طويلاً بعينيها الكبيرتين البنيتين. تيريزا تعرفها وتدعوها مارغريت. كان في ودّها أن تعطي اسماً لكل بقراتها ولكنها لا تستطيع لأنهن كثيرات. من زمان، منذ ثلاثين سنة، كان أكيداً أن بقرات القرية كلها كانت تملك أسماء. (وإذا كان الاسم هو دلالة على الروح، فأستطيع القول إذاً إنهن كن يملكن روحاً، حتى ولو كان هذا الأمر لا يعجب ديكارت). ولكن القرية أصبحت فيما بعد مصنعاً تعاونياً كبيراً، وصارت البقرات تمضين حياتهن في العيش بين مترين مربعين في الزريبة. لم يعد لديها أسماء ولم تعد سوى «آلات حية». وهكذا جعل العالم ديكارت على حق.

أمام عينيَّ ماثلة أبداً تيريزا الجالسة على أرومة شجرة وهي تداعب رأس كارينين وتفكر في إخفاق الإنسانية. وفي الوقت ذاته تنبثق صورة أخرى أمام عينيّ: صورة نيتشة وهو يرى أمامه وهو خارج من فندق في توران، حوذيّاً ينهال على حصانه بالسوط. فيقترب نيتشه من الحصان ويحيط برقبته أمام ناظري الحوذي، ويشهق في البكاء.

حدث هذا في عام ١٨٨٩ عندما كان نيتشه قد تنحى كلياً عن الناس وبكلمة أخرى في تلك الفترة بالذات انتشر خبر مرضه العقلي. ولكن هذا الأمر بالتحديد هو ما يعطي، حسب رأيي، هذا التصرف دلالته العميقة. جاء نيتشه يطلب لديكارت المغفرة من الحصان. وجنونه (أي انفصاله عن البشرية) يبدأ في اللحظة التي بكى فيها من أجل الحصان.

وهذا «النيتشه» بالذات هو الذي أحبه، كما أحب تماماً تيريزا التي

تداعب كلبتها المريضة حتى الموت فوق ركبتيها. أراهما جنباً إلى جنب يبتعدان عن الطريق حيث تتابع الإنسانية «سيدة الطبيعة ومالكتها» تقدمها إلى الأمام.

3

أنجبت كارينين فطيرتين هلاليّتين ونحلةً ناظرةً بدهشة إلى ذريتها الغريبة. كانت الفطيرتان تركنان ساكنتين أما النحلة المذهولة فكانت تترنّح. وبعد قليل طارت واختفت.

عندما استفاقت تيريزا، أخبرت توماس هذا الحلم الذي رأته. ووجد كلاهما تعزية فيه: كان هذا الحلم يُحيل مرض كارينين إلى حَبَل، ومشهد الولادة كان منفذاً مضحكاً ومؤثراً معاً: فطيرتان ونحلة.

شعَّ في داخلها من جديد أمل غامض، فقامت وارتدت ملابسها. كان نهارها يبتدىء في القرية أيضاً بالجولات الشرائية. كانت تذهب إلى السمّان لتشتري حليباً وخبزاً وفطائر. ولكن حين نادت كارينين في ذلك اليوم لتصحبها، بالكاد رفعت الكلبة رأسها. وكانت هذه هي المرّة الأولى التي ترفض فيها المشاركة بالاحتفال الذي تصر عليه دائماً بعناد.

ذهبت إذاً من دونها. «أين كارينين؟» سألت البائعة وقد جهزت فطيرة لها. هذه المرّة، تيريزا حملت بنفسها الفطيرة في قفّتها. ما أن صارت على العتبة حتى أخرجتها لتريها لكارينين. كانت تريد أن تأتي بنفسها لتأخذها ولكن الكلبة بقيت نائمة دون حراك.

كان توماس يدرك مدى حزن تيريزا، فأخذ الفطيرة بنفسه من فمه وزحف قبالة كارينين، ثم اقترب منها ببطء.

كانت كارينين تنظر إليه وشعاع من الاهتمام بدأ يلتمع في عينيها، ولكنها لم تنهض. قرَّب توماس وجهه على مسافة قريبة جداً من خطمها. ودون أن تحرّك جسدها، أخذت الكلبة في خطمها القطعة التي تبرز من فم توماس. ثم أفلت توماس الفطيرة ليتركها كاملة لكارينين.

تراجع توماس وهو لا يزال زاحفاً، ثم تكوّم وأخذ ينبح. كان يريد أن يتظاهر بأنه يقاتل من أجل الحصول على الفطيرة. أجابت الكلبة صاحبها وهي تدمدم. وحصل أخيراً ما كانا ينتظرانه! عادت لكارينين الرغبة في اللعب! لا يزال لدى كارينين حب الحياة!

هذه الدمدمة كانت ابتسامة كارينين. كان في نيتهما أن يجعلا هذه الابتسامة تدوم أطول وقت ممكن. من جديد اقترب توماس زاحفاً نحو الكلبة وأمسك طرف الفطيرة التي تبرز من خطمها. كان وجهاهما قريبين جداً الواحد من الآخر وأحس توماس بلهاث الكلبة، وبالوبرات الطويلة النابتة حولِ خطمها تدغدغ وجهه. أرسلت الكلبة دمدمة وهزّت خطمها فجأة. كان لكلٍّ منهما نصف فطيرة يلتقطها بين أسنانه. ارتكبت كارينين خطأها القديم فأفلتت ما تحتفظ به من فطيرتها للاستحواذ على القطعة التي في فمّ سيّدها. كانت قد نسِيتْ كالعادة أن توماس ليس كلباً وأن لديه يدين. لم يفلت توماس الفطيرة التي كانت في فمه وتناول النصف الذي سقط على الأرض بيده.

هتفت تيريزا: «توماس لا تأخذ لها فطيرتها».

أفلت توماس نصفيْ الفطيرة أمام كارينين. فالتهمت النصف الأول بسرعة، ولكنها احتفظت بالنصف الآخر طويلاً في فمها وبإصرار، لكَي تثبت لسيديْها أنها ربحَتِ المعركة.

كانا ينظران إليها مرددين أن كارينين كانت تبتسم، وأنها ما دامت تبتسم، فإن هناك أملاً في الحياة، حتى ولو كان محكوماً عليها بالموت.

في صباح اليوم التالي بدا وكأن حالتها تحسنت. تناولا إفطارهما. في مثل هذا الوقت كان يتسنى لهما أن يصطحبا الكلبة في نزهة. كانت تعرف هذا وتبدأ بالقفز عادة من حولهما بلجاجة قبل لحظات الشروع في النزهة. ولكن هذه المرة، حين وضعت تيريزا لها الرسن والطوق، نظرت إليهما طويلاً ودون حراك. كانا منتصبين أمامها ويجهدان لأن يتظاهرا بأنهما سعيدان (بفضلها ومن أجلها) لكي يبثّا فيها بعضاً من المزاج الطيّب. بعد قليل، اقتربت الكلبة منهما وكأنها أشفقت عليهما. اقتربت تعرج على أرجلها الثلاث لكي يضعا لها الطوق.

قال توماس: «تيريزا، أعرف أنك على خصام مع آلتك الفوتوغرافية. ولكن خذيها معك اليوم!».

أذعنت تيريزا وفتحت الخزانة لتفتش عن آلة التصوير المخفية والمنسية في إحدى الزوايا. أضاف توماس: «سوف نكون سعيدين جداً ذات يوم لالتقاطنا هذه الصور. كارينين كانت جزءاً من حياتنا».

ـ «هل قلْتَ كانَتْ؟»، قالت تيريزا وكأن أفعى لسعتها. كانت الآلة أمامها في عمق الخزانة ولكنها لم تقم بحركة. «لن آخذ الآلة معي. لا أريد أن أفكر أن كارينين لن تعود بيننا. تتكلم عنها من الآن وكأنها جزء من الماضي!».

ـ لا تغضبي منّي! قال توماس.

ـ لست غاضبة منك، قالت تيريزا بهدوء، أنا أيضاً مرّاتٍ كثيرة فاجأت نفسي وأنا أفكر فيها وكأنها صارت جزءاً من الماضي. ومراتٍ كثيرة لُمت نفسي على ذلك! من أجل هذا، لن آخذ الكاميرا معي».

كانا يمشيان على الطريق دون أن ينبسا بكلمة، كان الصمت الطريقة الوحيدة كي يتجنبا التفكير بكارينين وكأنها جزء من الماضي. لم يكونا يشيحان ببصرهما عنها وكانا معها باستمرار، متحيّنين الفرصة التي قد تبتسم فيها. ولكنها لم تكن تبتسم بل تمشي فقط ودائماً على أرجلها الثلاث.

ـ «إنها تقوم بذلك فقط من أجلنا، قالت تيريزا. لم تكن راغبة في الخروج من البيت. جاءت فقط لكي تدخل السرور إلى قلبينا».

ما قالَتْه كان محزناً. ولكن، على الرغم من ذلك كانا سعيدين دون أن يدريا. وسعادتهما لم تكن على الرغم من الحزن بل بفضله. كانا يمسكان بأيديهما ويريان أمام أعينهما الصورة ذاتها: كلبة عرجاء تجسِّد عشر سنوات من عمرهما.

رغبا القيام أيضاً بجولة صغيرة. ولكن كارينين خيّبت آمالهما عندما توقفت فجأة لتعود على أعقابها. وَجُبَتِ العودةُ إذاً.

ربما في اليوم ذاته أو بعده، رأت تيريزا عندما دخلت إلى غرفة توماس على حين بغتة أنه كان يقرأ رسالة. حين سمع الباب يصفق، أخفى الرسالة بين الأوراق الأخرى فلاحظَتْ ذلك. وحين خرج من الغرفة رأته يدس رسالة في جيبه. ولكنه كان قد نسي الغلاف. عندما صارت لوحدها في البيت، تفحصته. كان العنوان مكتوباً بخط مجهول ولكنّهُ واضح جداً، وبدا لها وكأنه خط امرأة.

فيما بعد، حين تلاقيا ثانية، سألته متظاهرة بأن شيئاً لم يكن، هل يتلقى رسائل في البريد.

«لا»، قال توماس، فتولى اليأس قلب تيريزا؛ يأس قاتل لأنها فقدت الاعتياد عليه. لا، لم تكن تعتقد أن بإمكان توماس أن يعاشر امرأة هنا في الخفاء، فهذا مستحيل عملياً. كانت على بيِّنة من جميع أوقات فراغه. ولكن ربما هناك امرأة في براغ لا يزال متعلقاً بها حتى ولو لم يكن في مستطاعها أن تترك رائحة فرجها في شعره. لم تكن تعتقد أن توماس يمكن أن يتركها بسبب هذه المرأة، ومع ذلك فقد أحسَّت بأن سعادة السنتين الأخيرتين اللتين عاشتهما في القرية، قد شوّههما الكذب، كما حدث في السابق.

عاودتها فكرة قديمة: سُكناها لم يكن توماس، بل كارينين. من سوف يعبّيء ساعة أيامهما من جديد عندما لن تعود هنا؟

كانت تيريزا تفكر في المستقبل، في مستقبل دون كارينين وكانت تشعر أنها متروكة فيه.

كانت كارينين مضطجعة في إحدى الزوايا وتنوح. ذهبت تيريزا إلى الحديقة. تفحصت الأرض المعشبة بين شجرتي تفاح وقالت في نفسها إنهما سيدفنان كارينين هنا، غرزت كعبها في التراب لترسم في العشب شكلاً مستطيلاً. ستكون هذه مساحة قبرها.

«ماذا تفعلين؟» سألها توماس الذي باغتها بالشكل الذي باغتته فيه منذ ساعات معدودات عندما كان يقرأ الرسالة.

لم تجب. كان يرى يديها ترتجفان: كانت هذه هي المرة الأولى منذ وقت طويل. أمسك يديها، فتملصت منه.

«هل هذا قبر كارينين؟».

لم تُجب.

كان صمتها يغضب توماس فانفجر غاضباً: «لقد لُمتنِي لأني فكرت فيها في زمن الماضي. وأنتِ ماذا تفعلين؟ تريدين دفنها من الآن!».

أدارت ظهرها ورجعت إلى البيت.

ذهب توماس إلى غرفته وصفق الباب وراءه.

فتحت تيريزا الباب من جديد وهي تقول: «لا تفكر إلاّ في نفسك. يمكنك على الأقل أن تفكر فيها في هذه المحنة. كانت تنام وأيقظتها. ستبدأ بالنحيب من جديد».

كانت تعلم أنها غير عادلة (فالكلبة لم تكن نائمة) وأنها تتصرف مثلما تتصرف المرأة الساذجة الأكثر ابتذالاً حين ترغب في الإيذاء وتتقنه.

دخل توماس على رؤوس أصابعه إلى الغرفة التي كانت كارينين تنام فيها. لكنها لم تشأ أن تتركه وحيداً معها. انحنى كلاهما فوق الكلبة، كلٌ من جهته. هذه الحركة المشتركة لم تكن لفتة تسامح بل على العكس، كان كلٌ منهما وحيداً. تيريزا مع كلبتها وتوماس مع كلبته.

يخالجني خوف عظيم من أن يبقيا هكذا معها حتى آخر لحظة منفصلَيْن وكلٌ لوحده

4

لما عبارة «الحب البريء» هي على هذه الأهمية بالنسبة لتيريزا؟

نحن الذين تربينا في أجواء أساطير العهد القديم، يمكننا أن نقول إن «الحب البريء» هو الصورة التي بقيت فينا بمثابة ذكرى من الجنّة: لم تكن الحياة في الجنة تشبه الرحلة ذات الخط المستقيم التي تقودنا في المجهول، ولم

تكن مغامرة. بل كانت تتحرك في سير دائري وسط أشياء معـروفة، ولم تكن رتابتها ضجراً بل سعادة.

ما دام الإنسان يعيش في الـريف في قلب الطبيعـة محاطـاً بالحيـوانات الأليفة يعانق الفصول وتكرارهـا، فإنـه سيظل يُحتفظ، وإن كـان الأمر مجـرد صدىً، بشيء من ذلك الحب البريء الفردوسي. حين التقت تيريزا رئيس التعاونية في مدينة المياه المعدنية، انبجست أمام عينيهـا صورة الـريف (الريف الـذي لم تعش فيه من قبل والذي لم تكن تعرفه) وشعرت بالغبطة. كان الأمر وكأنها نظرت إلى الوراء، في اتجاه الجنة.

في الجنـة، حين كان آدم ينحني فـوق النبـع، لم يكن يعـرف بعـد أن الصـورة التي يراهـا كانت تمثله. ولم يكن قـادراً على أن يفهم معنى وقفـات تيريزا المطوّلة أمام المرآة عندما كانت صغيرة أو جهدها لأن تـرى روحها عبـر جسدها. كان آدم مثل كارينين. فعندما كانت تيريزا تقود كارينين أمـام المرآة لتتسلّى، كانت كارينين لا تتعرف إلى صورتها بل تنظر إلى نفسها ساهمة وبلا مبالاة كلية.

المقارنة بين كارينين وآدم تجعلني أفكر بأن الإنسان في الجنـة لم يكن قد صار إنساناً بعد. وبطريقة أصح، لم يكن الإنسان قد قُذف بعد إلى مـدار الإنسان. أما نحن الذين قذفنـا منذ زمن بعيـد محلّقين في نزاع الـوقت الذي يسيـر في خط مستقيم، فلا تـزال في داخلنا بقيـة من خيط رفيـع يشـدنـا إلى الجنـة البعيدة المغبشـة، حيث كان آدم ينحني فـوق النبع من غيـر أن يفكر، على العكس تماماً من نرسيس، بأن هذه البقعة الصفراء الشاحبة التي تتراءى له، هي صورته. الحنين إلى الجنة إذاً هو رغبة الإنسان في ألّا يكون إنساناً.

عندما كانت صغيرة وتعثر على فوط أمها الصحية الملطخة بدم العـادة، كـانت تشعر بـالقرف والكـراهية نحـو أمهـا التي لم تكلف نفسهـا حشمـة أن تخفيها عن الأنظار. ولكن كـارينين كانت كلبـة ويأتيهـا الطمث أيضـاً مرةً في كل ستة أشهر ويدوم خمسة عشر يوماً. ولكي لا تـوسّخ الشقـة، كانت تيـريزا تضع بين رجليها قطعة ضخمة من القطن وتلبسها أحد سراويلها العتيقـة وتثبته

حول جسدها بواسطة شريطٍ طويل. كان يسرها أن ترى هذا الزي المضحك خلال خمسة عشر يوماً.

كيف يمكن أن نفسر بأن طمث كلبة يثير فيها حناناً فرحاً فيما عادتها الشهرية كانت تنفرها؟ يبدو لي الجواب سهلاً: الكلبة لم تطرد من الجنة. كارينين تجهل كل شيء عن ثنائية الروح والجسد وتجهل ما هو القرف. لذلك كانت تيريزا تشعر أنها جيدة وهادئة جداً قربها (ومن أجل هذا، من الخطورة بمكان أن نحوّل الحيوان إلى آلة حية وأن نجعل من البقرة آلة لإنتاج الحليب: فبهذه الطريقة يقطع الإنسان الخيط الذي كان يصله بالجنّة، ولا شيء يستطيع عندها إيقافه أو تعزيته خلال طيرانه عبر فراغ الزمن).

من خلال الفوضى المشوشة لهذه الأفكار، تبرعمَتْ فكرة دنسة في روح تيريزا دون أن تستطيع التخلص منها: الحب الذي يربطها بكارينين أفضل من الحب الموجود بينها وبين توماس، أفضل منه لكن ليس أكبر. تيريزا لا تنوي اتهام أحد، لا هي ولا توماس، ولا تريد أن تؤكد أن بإمكانهما أن يتحابّا أكثر. وإنما يبدو لها أن الحب (في أفضل حالاته على الأقل) مخلوق أصلاً ليكون من طبيعة أدنى لما يمكن أن يكونه الحب بين الإنسان والكلب. وهنا بالذات تكمن غرابة التاريخ الإنساني الذي لم يخطط له الخالق على الأرجح.

إن هذا الحب لمترفع: تيريزا لا تريد شيئاً من كارينين ولا تطلب منها أن تبادلها الحب. هي لم يخطر ببالها قط أن تطرح على نفسها الأسئلة التي تعذّب عادة العشاق البشر: هل يحبني؟ هل أحب أحداً من قبل أكثر مني؟ هل حبه لي أكبر من حبي له؟ كل تلك الأسئلة التي تساور الحب والتي تعيشه وتتفحصه وتمتحنه وتدمّره ربّما وهو لما يزل جنيناً. إذا كنا غير قادرين على الحب فهذا ربما لأننا نرغب في أن نكون محبوبين، أي لأننا نريد شيئاً من الآخر (الحب) بدل أن نجيئه دون شرط وألا نرغب في شيء آخر سوى حضوره.

وهناك شيء آخر: تيريزا قبلت كارينين كما هي. لم تسعَ في تغييرها لتصير نسخة عنها. بل أذعنت مسبقاً لعالمها ككلبة ولم تشأ مصادرته. فهي

لا تشعر بالحسد من ميولها السرية. وإذا كانت قد سهرت على تربيتها فهذا ليس من أجل أن نغيرها، (كما يريد رجل أن يغير زوجته أو كما تغير امرأة زوجها) ولكن فقط لكي تعلّمها اللغة البدائية التي تسمح لها بأن يتفاهما وبأن يعيشا سوية.

وهناك أيضاً شيء آخر: حبها لكلبتها إرادي ولم يجبرها أحد عليه. (مرة أخرى، تفكر تيريزا بأمها وتشعر بأسى كبير نحوها. لو كانت أمها إحدى نساء القرية غير المعروفات لكان بإمكانها أن تجد فظاظتها المرحة أمراً محبباً! آه! لكن فقط لو كانت أمها غريبة عن المدينة! منذ الطفولة وتيريزا تخجل دائماً من أن تحتل أمها تقاسيم وجهها وأن تصادر لها ذاتها. والأسوأ من ذلك أن الوصية الموغلة في القدم والتي تقول: «أحببْ أباك وأمك» كانت تجبرها على القبول بهذا الاحتلال وعلى أن تصف بالحب هذا الاعتداء! هذه ليست غلطة أمها إن كانت تيريزا قد قطعت علاقتها بها. لم تقطع علاقتها بأمها لأن أمها كانت كما كانت، بل لأنها كانت أمها).

ولكن تجدر الإشارة خصوصاً إلى هذا الأمر: لا يمكن لأي إنسان أن يقدم للآخر قربان الحب البريء. وحده الحيوان يستطيع ذلك لأنه لم يطرد من الجنة. الحب بين الإنسان والكلب حب بريء، حب دون صراع ودون مشاهد ممزّقة ودون تطور. حول تيريزا وتوماس كانت كارينين تخط دائرة حياتها المبنية على التكرار وكانت تنتظر منهما الشيء نفسه.

لو كانت كارينين إنساناً بدل أن تكون كلبة لكان أكيداً أن تقول لتيريزا منذ زمن بعيد: «اسمعي، لم يعد يعجبني أن أحمل كل يوم فطيرة في فمي. ألا يمكنكِ أن تقدمي لي شيئاً آخر جديداً؟». ولكانت إدانة الإنسان كلها متمثلة في هذه الجملة. الوقت الإنساني لا يسير في شكل دائري بل يتقدم في خط مستقيم. من هنا، لا يمكن للإنسان أن يكون سعيداً لأن السعادة رغبة في التكرار.

نعم، السعادة رغبة في التكرار، تفكر تيريزا.

عندما كان رئيس التعاونية يذهب لتنزيه مفيستو، بعد انتهائه من

العمل، ويلتقي بتيريزا، لم يكن ينسى قط أن يقول: «سيدتي لو أنني فقط التقيته من قبل! كنا ذهبنا لمغازلة البنات معاً. فليست هناك أية امرأة تستطيع أن تقاوم خنزيرين!» عند هذه الكلمات، كان الخنزير يطلق نخيراً، فهو رُبّي من أجل هذا. وكانت تيريزا تضحك مع أنها كانت تعرف مسبقاً ما سيقوله له الرئيس. فالتكرار لم يكن يغيّر شيئاً من سحر هذه المزحة. بل على العكس، حتى الفكاهة في سياق الحب البريء تخضع لشريعة التكرار العذبة.

5

بالمقارنة مع الإنسان، لا يتمتع الكلب بأية امتيازات، إلا أنه يملك امتيازاً يمكن تثمينه: القتل رحمةً به لا يحرّمه القانون، والحيوان يملك الحق في ميتة رؤوفة. كانت كارينين تمشي على ثلاث أرجل وتمضي أوقاتاً متزايدة وهي تنوح مضطجعة في الزاوية. كان توماس وتيريزا متفاهمين تماماً، إذ ليس لهما الحق في أن يتركاها تشقى دون جدوى. ولكن اتفاقهما على هذا المبدأ لم يكن يجنبهما قلق الشك: كيف تمكن معرفة متى يصير العذاب غير مجدٍ؟ وكيف نحدد اللحظة التي لا تعود الحياة فيها جديرة بأن تعاش؟

لو أن توماس لم يكن طبيباً! كان بإمكانه عندها أن يختبىء وراء شخص ثالث. وكان بإمكانه عندها أن يذهب لزيارة الطبيب البيطري وأن يطلب منه حقن الكلبة بالإبرة.

إنه لأمر شاق أن يقوم المرء بنفسه بمهام الموت. كان توماس قد أعلن مراراً وبحزم أنه لن يغرز الحقنة بنفسه وأنه سوف يستدعي الطبيب البيطري. ولكنه فهم في النهاية أن بإمكانه أن يمنحها امتيازاً ليس في متناول أي كائن بشري: سيوافيها الموت في هيئة من يحبونها.

كانت كارينين قد أمضت الليلة تتأوه. عند الصباح، فحصها توماس ثم قال لتيريزا: «لم يعد بالإمكان الانتظار».

كان عليهما أن يذهبا إلى عملهما بعد قليل. ذهبت تيريزا لإحضار كارينين من الغرفة. حتى هذا الوقت، بقيت ممددة بلا مبالاة، (وحتى قبل

قليل، حين كانت تيريزا تتفحصها، لم تُبدِ أي اهتمام) ولكن عندما سمعت الباب يُفتح، رفعت رأسها ونظرت إلى تيريزا.

لم تقوَ تيريزا على تحمّل هذه النظرة، وكادت أن تخيفها. لم تكن قط تنظر إلى توماس بهذه الطريقة بل إليها وحدها، ولكن ليس بالحدّة نفسها كما الآن. لم تكن نظرتها يشوبها اليأس أو الحزن، لا. كانت نظرة ثقة مرعبة وغير محتملة. كانت هذه النظرة سؤالاً لجوجاً وكأن كارينين قد انتظرت طيلة حياتها جواب تيريزا. كانت تحاول أن تفهمها الآن (وبإلحاح أكثر من ذي قبل) أنها لا تزال مستعدة لتلقّي الحقيقة منها (لأن كل ما كان يصدر عن تيريزا يمثّل الحقيقة بالنسبة لها: كأن تقول لها مثلاً «أجلسي»! أو «نامي». كل هذه الأوامر هي بمثابة حقائق تتماثل معها وتعطي لحياتها معنى).

كانت هذه النظرة ذات الثقة المرعبة خاطفة. عادت بعد قليل وأسندت رأسها فوق أرجلها. كانت تيريزا تعرف أن لا أحد أبداً سينظر إليها بالطريقة هذه.

لم يقدّما لها قط السكاكر من قبل، ولكن منذ بضعة أيام، اشترت لها ألواحاً من الشوكولا. نزعت عنها الورقة الفضية وقطعتها قطعاً صغيرة ثم وضعتها أمام الكلبة. ووضعت أيضاً قطعة مليئة بالماء كي لا تحتاج كارينين إلى شيء طول الساعات القليلة التي تبقى فيها وحدها في البيت. ولكن يبدو أن النظرة التي ألقتها عليها قد أتعبتها. فلم ترفع رأسها ثانية بالرغم من أنها كانت محاطة بقطع من الشوكولا.

اضطجعَتْ على الأرض قربها وحملتها بين ذراعيها فتشمَّمَتها ببطء كبير، ولعقتها بلسانها مرة أو مرتين بتعب كبير. استسلمت لهذه المداعبة بعينين مغمضتين وكأنها تريد أن تحفرها في ذاكرتها إلى الأبد. أدارت رأسها لكي تلحس لها خدها الآخر أيضاً.

ثم وجب عليها أن تنهض للاهتمام بالبقرات. لن ترجع إلا بعد الغداء. وتوماس لم يعد بعد. كانت كارينين لا تزال نائمة وهي محاطة بقطع الشوكولا، ولم ترفع رأسها عندما سمعت تيريزا تقترب. كانت ساقها المريضة

متورمة، وانتشر الورم في أماكن أخرى. ظهرت نقطة حمراء شاحبة (لا تشبه الدم إطلاقاً) بين الشعرات.

وكما في الصباح، تمددت على الأرض قربها وأحاطتها بذراعيها مغمضة عينيها. ثم سمعت قرعاً على الباب. «دكتور! دكتور!، ها قد أتاك الخنزير ورئيسه!». كانت غير قادرة على الكلام مع أحد. لم تقم بحركة وأبقَتْ عينيها مغمضتين. ثم سمعت مرة أخرى: «دكتور، الخنازير أتت لتراك». ثم ساد الصمت من جديد.

رجع توماس بعد نصف ساعة. ذهب إلى المطبخ من غير أن ينبس بكلمة لتحضير الحقنة. عندما رجْع إلى الغرفة، كانت تيريزا واقفة وكارينين تبذل جهداً للنهوض. عندما رأت توماس، حرّكَتْ ذنبها بخفة.

«انظر! قالت تيريزا، لا تزال تبتسم».

قالت ذلك بلهجة يشوبها التوسل وكأنها أرادت من خلال هذه الكلمات أن تلمّح بإرجاء بسيط للإعدام، ولكنها لم تلح.

مدّت ببطء شرشفاً على السرير. كان الشرشف أبيض مزيناً برسوم تمثل أزهاراً صغيرة بنفسجية اللون. على أية حال، كانت قد جهزت مسبقاً كل شيء وفكرت بكل الأمور وكأنها تصوّرت موت كارينين منذ أيام عديدة. (آه! أي هول! نحلم مسبقاً بموتِ مَنْ نحبهم).

لم تكن لديها القوة لتقفز على السرير فحملاها بين أذرعتهما ورفعاها معاً. وضعها توماس على جنبها وفحص لها رجلها. كان يبحث عن مكان حيث يكون العِرق بارزاً ومرئياً بوضوح. قصّ لها الشعرات بمقص في هذا المكان.

كانت كارينين راكعة أمام السرير وتحمل في يديها رأس كارينين ملاصقاً لوجهها.

طلب منها توماس أن تمسك الرِجل الخلفية بحزم، وتماماً فوق العرق الذي كان رفيعاً ويصعب أن تُغرز الإبرة فيه. أمسكت برجل كارينين من دون

أن تبعد وجهها عن رأسها. ثم أخذت تتحدث إليها دون توقف بصوت ناعم، وكانت الكلبة لا تفكر إلا فيها. لم تكن خائفة، لحست لها وجهها مرتين، فيما تيريزا همست لها: «لا تخافي، لا تخافي، هناك لن تشعري بالألم، هناك ستحلمين بسناجب وبأرانب برية. وستكون هناك بقرات ومفيستو أيضاً، لا تخافي...».

غرز توماس الإبرة في العرق وأنزل المكبس. فاهتزت رجل كارينين اهتزازاً خفيفاً، وتسارع تنفسها ثم توقف نهائياً. كانت تيريزا ما تزال راكعة على الأرض أمام سريرها وتلصق وجهها برأسها.

وجب عليهما أن يعودا إلى العمل. وبقيت الكلبة ممددة على السرير فوق الشرشف الأبيض المزين بأزهار بنفسجية.

رجعا عند المساء. ذهب توماس إلى الحديقة واهتدى إلى خطوط المستطيل الأربعة التي رسمتها تيريزا بين شجرتي التفاح منذ أيام قليلة. وأخذ يحفر مراعياً بدقة المقاييس المرسومة، كان يريد أن يتم كل شيء حسب رغبة تيريزا.

بقيت في البيت إلى جانب كارينين. كانت خائفةً من أن يدفنا الكلبة وهي حية، ألصقت أذنها بخطمها فخُيّل إليها أنها تسمع نَفَساً ضعيفاً. ابتعدت فرأت أن صدرها يتحرك قليلاً.

(لا، لم تسمع غير تنفسها هي، تنَفسها الذي ينقل الحركة إلى جسدها بالذات بطريقة غير مرئية، وفي ظنِّها أن صدر الكلبة هو الذي كان يتحرّك!).

عثرت على مرآةٍ في حقيبتها فألصقتها بخطم الكلبة.. كانت المرآة متسخة جداً فحسبَتْ أنها ترى البخار المتصاعد من نَفَسِ الكلبة. فصرخت بتوماس الذي كان راجعاً من الحديقة وحذاؤه مكسو بالوحل: «توماس لا تزال على قيد الحياة!».

انحنى فوق الكلبة وأشار برأسه أن لا.

أمسك كلٌّ من ناحيته بطرف الشرشف حيث كانت كارينين ممدّدة،

تيريزا من جهة الأرجل وتوماس من جهة الرأس. ثم رفعاها وحملاها إلى الحديقة.

شعرت تيريزا بأن الشرشف كان مبتلاً تحت يديها. ففكرت أنَّ الكلبة بمجيئها إلى العالم جلبت معها بركة ماء صغيرة وبرحيلها منه تركت لنا بركة صغيرة. كانت سعيدة بهذه الرطوبة تحت أصابعها وكأنها وداع أخير من الكلبة.

حملاها إلى ما بين شجرتي التفاح وأنزلاها في قعر الحفرة. انحنت لتسوّي الشرشف بشكل يلفّ جسد الكلبة كله. لم تكن تقوى على تحمل فكرة أن التراب الذي سيُلقيانه فوقها سيلامس جسدها العاري.

توجهت بعد ذلك إلى البيت لتعود بالطوق والرسن وحفنة من قطع الشوكولا التي بقيت على الأرض لم تمس منذ الصباح. ثم ألقت بكل هذا في القبر.

إلى جانب الحفرة كومة من التراب المقلوب حديثاً. أمسك توماس بالرفش.

كانت تيريزا تتذكر حلمها الذي أنجبت فيه كارينين فطيرتين ونحلة.. بدا لها فجأة أن هذه الجملة تشبه كتابة على ضريح. أخذت تتخيل نصباً تذكارياً قد أقيم بين شجرتي التفاح مرفوقاً بهذه الكتابة: «هنا ترقد كارينين. أنجبت فطيرتين هلاليّتين ونحلة».

بدأ الظلام يشتد في الحديقة. كان الوقت لا نهاراً ولا ليلاً، وظهر قمر شاحب في السماء مثل لمبة قد نُسِيت مضاءة في غرفة الموتى..

كان حذاؤهما مغطّى بالتراب. أرجعا المرّ(*) والرفش إلى اللحيقة التي توضع فيها الأدوات من أمشاط ومعاول ومناكيش.

(*) آلة للحفر.

6

عندما كان توماس يجلس أمام الطاولة في غرفته حيث كان يطالع كتباً، كانت تيريزا تأتي لموافاته وتنحني فوقه ضاغطة وجهها على رأسه. عندما قامت بهذه الحركة في ذاك اليوم، لاحظت أن توماس لم يكن يقرأ كتاباً. بل كانت هناك رسالة موضوعة أمامه وكان توماس شاخصاً إليها بنظرة طويلة جامدة مع أنها لا تحوي خمسة أسطر مطبوعة.

قالت تيريزا بقلق: «ما هذا؟».

ودون أن يستدير، أخذ توماس الرسالة وأعطاها إياها. جاء فيها أن عليه أن يذهب في هذا النهار إلى مطار المدينة المجاورة.

عندما أدار أخيراً رأسه ناحية تيريزا، قرأت في عينيه الذعر نفسه الذي أحسّت به لتوه.

قالت: «سأرافقك».

هزّ رأسه نفياً: «هذه الدعوة لا تخصني إلا أنا».

رددت: «لا، أُريد أن أصطحبك» ثم صعدا في شاحنة توماس.

بعد وقت قليل وصلا إلى مدرج المطار. كان الضباب يلف المكان. كانت تتوالى أمامهما وبطريقة مبهمة أشباح طائرات. كانا ينتقلان من طائرة إلى أخرى ولكن أبواب هذه الطائرت كلها مقفلة ولم يكن هناك من وسيلة للدخول. وأخيراً وجدا طائرة بابها الأمامي مفتوح والسلّم مُنزل. صعدا الدرجات وظهر مضيف في إطار الباب مشيراً لهما بالمتابعة. كانت الطائرة صغيرة بالكاد تتسع لثلاثين مقعداً وفارغة تماماً. تقدما عبر الممر بين المقاعد وهما لا يزالان ممسكين بعضهما ببعض ودون أن يهتما إطلاقاً لما يجري حولهما. جلسا جنباً إلى جنب على مقعدين وألقت تيريزا رأسها على كتف توماس. تبدد الهلع الأولي ليحل مكانه الحزن.

الهلع صدمة، لحظة عمى كلي. الهلع مجرد من أي مسحة جمال. لا نرى خلاله إلا النور المبهر للحدث المجهول الذي ننتظره. وخلافاً لذلك،

الحـزن يفترض مسبقـاً أننا نعـرفه. كـان تومـاس وتيريـزا يعـرفـان مـاذا كـان ينتظرهما. أخذ بريق الهلع يحتجب لينكشف العالم في إضاءة مغبشة وعذبـة تجعل الأشياء أكثر جمالاً من ذي قبل.

لحظة قرأت تيريزا الرسالة، لم تكن تشعر بحب لتـوماس. كـانت تفكر فقط بأنه يجب ألا تتركه ثـانية واحـدة. كان الهلع يخنق كـل المشاعر الأخرى وكل الانطباعات الأخـرى. الآن وقد التصقت بـه (كانت الـطائرة تحلّق وسط الغيوم) زال الخوف وأحست بالحب. كانت تعرف أن هذا الحب لا قيـاس له ولا حدّ.

حطّت الطائرة أخيراً. نهضا وتوجها نحو البـاب الذي فتحـه المضيف. كانا يقفان متعانقين على الدرجات في أعلى السلم. شاهدا في الأسفل ثلاثـة رجال يضعون كاغوليات[1] فوق وجـوههم ويحملون بنادق في أيـديهم. . كان التـردد غيـر مجـدٍ لأن لا وسيلة للفـرار. نـزلا الـدرج ببطء. وعنـدمـا وضعـا أقدامهما على المدرج، رفع أحد الرجال بندقيتـه وصوبهـا. لم تُحدثْ صـوتاً ولكن تيـريزا أحست بـأن تومـاس الذي كـان يلتصق بها منـذ دقيقة ويحيـطها بذراعيها قد تهاوى ساقطاً على الأرض.

أرادت أن تضمـه إليها ولكنهـا لم تستطع إمسـاكه. سقط على بـاطـون المدرج. انحنت راغبة في أن ترتمي فوقه لتغمره بجسدها، ولكن حـدث في هذه اللحظة شيء غريب: أخذ جسـده يتضاءل أمـام عينيها بسـرعة، بسـرعة عجيبة لدرجة أنها بقيت جامدة ومسمّرة في مكانها. كان جسد توماس يتقلص أكثر فأكثر حتى لم يعد يشبـه تومـاس بشيء. لم يبق من تومـاس سوى شيء صغيـر للغايـة. وهذا الشيء الـطفيف أخذ يتحـرك ثم بدأ يـركض فـارّاً على مدرج الطائرات.

نزع الرجل الذي أطلق الرصاص قناعه وابتسم بطريقة لـطيفة لتيـريزا. ثم التفت وأخذ يلاحق هذا الشيء الصغير الذي كان يـركض متعرجـاً من هنا وهناك وكأنه يتحاشى أحـداً ما ويبحث عبثـاً عن ملجأ. دارت المطاردة بضع

(١) الكاغولية: جُبّة للرأس لا يبرز منها إلّا العينان يلبسها أعضاء الكاغول الإرهابيون.

لحظات، ثم ألقى الرجل بنفسه فجأة على الأرض فانتهت المطاردة.

ثم نهض وجاء إلى تيريزا. كان يحمل لها الشيء في يديه. وكان هذا الشيء يرتجف خوفاً. كان الشيء أرنباً برياً فقَدَّمه إلى تيريزا. عندها اختفى الرعب والحزن. سرّت لأنها أمسكت بهذا الحيوان الصغير بين يديها، حيوان صغير لتمتلكه وتضمه إلى صدرها.. ذرفت الدموع من السعادة. كانت تبكي دون أن تتوقف عن البكاء ولا ترى شيئاً من خلال دموعها. ثم حملت الأرنب البري إلى بيتها وهي تقول في نفسها إنها اقتربت أخيراً من مبتغاها، وإنها كانت حيث ترغب في أن تكون وحيث لم يعد هناك داعٍ للهرب.

اتجهت عبر شوارع براغ وبلغت بيتها بسهولة. بيتها الذي عاشت فيه منذ كانت صغيرة. لم يعد أبوها وأمّها يسكنان فيه. استقبلها عجوزان لم ترهما من قبل ولكنها كانت تعرف أنهما والد جدتها وأم جدها. كان وجه كليهما مجعداً كقشرة شجرة، وكانت تيريزا سعيدة لأنها تسكن معهما. ولكنها الآن، رغبت في أن تكون لوحدها مع حيوانها الصغير. اهتدت دون صعوبة إلى الغرفة التي كانت تسكن فيها منذ سن الخامسة، حين قرّر والدها أنها باتت تستحق أن تكون لها غرفة خاصة بها.

كانت الغرفة مؤثثة بسرير وطاولة صغيرة وكرسي. على الطاولة كان هناك مصباح مضاء ينتظرها منذ ذلك الوقت. وفوق هذا المصباح كانت تستلقي فراشة جناحاها مفتوحان مزيّنان بعينين كبيرتين ملوّنتين. كانت تيريزا تدرك أنها توشك أن تلامس الهدف. فتمددت على السرير وألصقت الأرنب البري إلى وجهها.

7

كان جالساً أمام الطاولة التي كان يركن إليها دائماً لقراءة الكتب.. كان أمامه ظرف مفتوح ورسالة.. قال لتيريزا: أتلقى من وقت لآخر رسالة.. لم أكن أنوي أن أتحدث بشأنها إليك. وهي من ابني. فعلت كل ما في وسعي لأتحاشى أي اتصال لحياتي بحياته. وانظري بأي طريقة انتقم القدر مني.

فهو قد طُرد من الجامعة منذ بضع سنوات ويعمل الآن سائقاً لشاحنة زراعية في إحدى القرى. صحيح أن لا اتصال بين حياتي وحياته. ولكنهما رُسمتا جنباً إلى جنب في الاتجاه نفسه مثل خطين متوازيين.

قالت تيريزا وكأنَّ حملاً قد أزيح عنها: ولماذا لم تشأ أن تخبرني عن هذه الرسائل؟

ــ لا أعرف. كان الأمرُ ينفرني.

ــ وهل يراسلك مراراً؟

ــ من وقت لآخر.

ــ وعمَّ يحدثك؟

ــ عن نفسه.

ــ وهل مهم ما يقوله؟

ــ نعم. أمه كما تعرفين كانت شيوعية مسعورة. قطع علاقته بها منذ وقت طويل. وارتبط بأشخاص كانوا في مثل وضعنا. حاولوا أن يقوموا بنشاط سياسي. بعضهم موجود الآن في السجن. ولكنه خاصمهم أيضاً وابتعد عنهم. يصفهم «بالثوار الأبديين»؟.

ــ هل تصالح وهذا النظام؟

ــ لا إطلاقاً، إنه مؤمن ويعتقد أن الإيمان هو أساس كل شيء وحسب رأيه، كل واحد فينا يجب أن يعيش الحياة اليومية وفقاً للقواعد التي نصَّ عليها الدين، دون أن يقيم أي اعتبار للنظام. يجب أن نتجاهل النظام. وحسب رأيه، إذا كنّا مؤمنين بالله فنحن قادرون بالتالي على أن نُرسي في أي ظرف كان من خلاله مسلكنا ما يسمّيه «مملكة الله على الأرض». ويشرح لي أيضاً أن الكنيسة هي المؤسسة الاختيارية الوحيدة في بلادنا المتفلتة من رقابة الدولة. مما يجعلني أتساءل هل ممارسته للدّين هي لمقاومة النظام بشكل أفضل أم هل هو مؤمن حقاً.

ــ حسناً! إطرح عليه هذا السؤال!.

ـ تابع توماس: كنت دائماً من المعجبين بالمؤمنين. كنت أعتقد أنهم يملكون الموهبة الخاصة للإدراك الخارج عن النطاق الحسي، والذي امتنع عليّ. ولكني أدرك الآن، متمثلاً بابني، أنّ كون المرء مؤمناً أمر سهل للغاية. فعندما وجد ابني نفسه في موقع حرج اهتمَّ به أناس كاثوليكيون فاكتشف فجأة الإيمان. ربما قرر ذلك كعرفان للجميل. فالقرارات الإنسانية سهلة بشكل لا يصدق.

ـ ألم تُجب قط على رسائله؟

ـ لم يكتب عنوانه.

ثم أضاف: «يوجد بالطبع عنوان القرية على ختم البريد. يكفي أن أبعث برسالة إلى التعاونية المحلية».

كانت تيريزا تشعر بالذنب لشكوكها بتوماس. وأرادت أن تصلح خطأها باندفاعة كريمة مباغتة نحو ابنه: «لماذا لا تكتب له إذا؟ لماذ لا تدعوه؟».

قال توماس: إنه يشبهني. عندما يتكلم يقوم تماماً بالتكشيرة ذاتها رافعاً شفته العليا. أنْ أرى فمي بالذات يتكلم من مملكة الله، يبدو لي أمراً غريباً للغاية.

انفجرت تيريزا ضاحكة.

وضحك توماس معها.

قالت تيريزا: «توماس لا تكن صبيانيّ التفكير. . إنها حكاية قديمة أنت وزوجتك الأولى. بماذا تعنيه هو هذه الحكاية؟ ما هو الشيء المشترك بينه وبينها! إذا كان ذوقك سيئاً في شبابك، فهل هذا سبب كافٍ لكي تؤذي أحداً ما؟».

ـ لكي أكون صادقاً معك، هذا اللقاء يجعلني متهيباً. ولأجل هذا خاصة لا رغبة لي في رؤيته. لا أعرف لماذا كنت عنيداً إلى هذا الحد. ذات يوم نأخذ قراراً لا نعرف كيف، فيضع هذا القرار قوة استمراره. ومع كل سنة تمر يصعب علينا تغييره أكثر.

قالت له: «ادعه لزيارتك!».

حين كان راجعاً بعد الظهر من الإسطبل، سمعَتْ أصواتاً صادرة عن الطريق. عندما اقتربت رأت شاحنة توماس. كان توماس منكباً على معالجة أحد الدواليب، وحوله جماعة تراقبه منتظرة أن ينتهي من التصليح.

كانت جامدة، شاخصة: كان توماس يبدو عجوزاً. كان شعره رمادياً والرعونة التي يتصرف بها لم تكن رعونة طبيب أصبح سائق شاحنة وإنما رعونة رجل لم يعد شاباً.

فتذكرت مقابلة حديثة العهد مع رئيس التعاونية، قال خلالها إن شاحنة توماس في حالة سيئة جداً. قال ذلك على سبيل المزاح وليس على سبيل الشكوى، ولكنه مع ذلك بدا قلقاً. . ثم قال وهو يضحك: «توماس يعرف مما يتألف الجسم البشري أكثر مما يعرف مما يتألف المحرّك». ثم أسرّ لها بأنه قام بعدة إجراءات مع الإدارة لكي يتمكن توماس من ممارسة الطب في المقاطعة. فعلم أن الشرطة لن تسمح له بذلك أبداً.

اختفت خلف جذع شجرة كي لا يراها الرجال المحيطون بالشاحنة ولكنها لم تُشِحْ ببصرها عنهم. كان قلبها مثقلاً بالندم: لقد ترك زوريخ بسببها ليرجع إلى براغ. وحتى في براغ لم تكفّ هي عن مناكدته، وحتى أمام كارينين المحتضرة، كانت قد عذبته بشكوكها.

في صميم أعماقها كانت لامته دائماً على عدم محبته لها بما فيه الكفاية. كانت تعتبر حبها له فوق كل ملامة ولكن حبه لها كان تنازلاً بسيطاً.

ها هي ترى الآن كم كانت ظالمة بحقه: لو أنها كانت تحب فعلاً توماس هذا الحب الكبير، لبقيت معه في الخارج! هناك كان توماس سعيداً وكانت حياة جديدة تُفتح أمامه! وهي تركته وذهبت! بالطبع كانت مقتنعة آنذاك بأنها تتصرف بمروءة لكي لا تكون عبئاً عليه. ولكن هذه المروءة، هل كانت شيئاً آخر سوى خدعة؟ فهي كانت تعرف أنه سيعود لموافاتها! استدعته لتجذبه أكثر فأكثر نحو الأسفل كما تجذب الساحرات المزارعين إلى

المخثّات[1] وتتركهم يغرقون هناك. . ثم استغلّت لحظة مغصٍ أصيب بـه في معـدته لكي تبتـز منه وعـداً بالـذهاب سـويـة للعيش في الـريف! كم كـانت محتالة! كانت قد نادته ليلحق بها وها إنها في كل مرة تضعه قيد التجربة لكي تتـأكد من أنـه يحبها. نـادته إلى أن وجد نفسه هنـا: غـزاه الشيب، متعب، أصابعه المتصلبة لم تعد باستطاعتها قط أن تمسك بمبضع الجراح.

ها قد وصلا إلى نهاية المطاف، إلى أين بإمكانهمـا الذهـاب بعد؟ لن يُسمح لهما أبداً بالذهاب إلى الخارج. وليس في إمكانهما أيضاً الـرجوع إلى براغ لأن لا أحد سيمنحهما عملاً. وماذا يفيد الذهاب إلى قرية أخرى!

يا إلهي، هل كان الأمر يقتضي فعلاً المجيء حتى هنا لكي يتيقّن من أنّـه يحبّها!

نجـح تومـاس أخيراً في معـالجة دولاب الشـاحنة. فقفـز الصبيـة على جوانب الشاحنة ودوّى المحرّك.

رجعت إلى البيت واستحمّت. كـانت تتمدد في الميـاه الساخنـة وتفكر بأنها استغلّت طوال حياتهـا ضعفها لتـواجه تـوماس. كلنـا نميل لأن نـرى في القوة مذنباً وفي الضعف ضحية بريئة. ولكن تيريزا فهمت الآن: كان العكس هـو الصحيح في مثـل وضعها. حتى أحـلامها كـانت، وكأنهـا عارفـة بنقـطة الضعف الوحيدة عند هذا الرجل القوي، تعرض له مشاهد عن عذاب تيـريزا لتُجبره على التراجع! كان ضعف تيريزا ضعفاً عدائيـاً يجبره في كـل مرة على الرضوخ. إلى أن جـاء الوقت الـذي كفّ فيه عن أن يكـون قويـاً وتحوّل إلى أرنب بين يديها. كانت تفكر طيلة الوقت بهذا الحلم.

خـرجت من المغطس وذهبت لتـرتدي فستـان سهرة. كـانت تـريـد أن تكون في أبهى حلة لتعجبه وتُدخل المسرة إلى قلبه.

كانت تبكّل زرّها الأخير عندما ظهر توماس فجأة في البيـت يتبعه رئيس

---

(١) الخث: تـراب عضوي قـابل للاشتعال يتكوّن من الانحـلال البطيء لبعض النبـاتـات الطحلبية.

التعاونية ومزارعٌ شاب شحوب الوجه بشكل واضح.

قال توماس: «قليلاً من العرق، بسرعة! قليلاً من مشروب قوي!».

ركضت تيريزا لكي تفتش عن قنينة من مشروب الخوخ. سكبت من هذا المشروب في قدح، فأفرغه الرجل الشاب دفعة واحدة.

في أثناء ذلك، كان يشرح له ما حدث: خلع الرجل الشاب كتفه أثناء العمل فصرخ زاعقاً من الألم. لم يكن أحد يعرف ماذا يفعل. ثم نودي على توماس الذي أرجع بضربة واحدة ذراعه إلى مكانها.

ابتلع الرجل الشاب قدحاً آخر، ثم قال لتوماس:

ـ «زوجتك رائعة جداً، اليوم!».

قال الرئيس: «أيها الغبي، سيدة تيريزا هي دائماً جميلة».

قال الشاب: «أعرف أنها جميلة دائماً. ولكنها اليوم وضعت ثوباً جميلاً فصارت أجمل من كل الأيام. لم نركِ من قبل في هذا الثوب. هل أنت ذاهبة في زيارة؟».

ـ لا، ارتديته من أجل توماس.

قال الرئيس: «أنت محظوظ يا دكتور. زوجتي ليست تلك السيدة البورجوازية التي تلبس أزهى الثياب لكي تسرّني».

قال الشاب: «إذاً، من أجل هذا تخرج مع خنزير بدل أن تخرج مع زوجتك». وضحك طويلاً.

قال توماس: كيف حال مفيستو. لم أره منذ، على الأقل... (بدا وكأنه يفكر) ساعة.

قال الرئيس: أخذ يضجر مني.

قال الرجل الشاب لتيريزا: عندما أراك في هذا الثوب الجميل أشعر برغبة في الرقص معك. هل ستتركني أرقص معها يا دكتور؟

فقالت تيريزا: جميعنا سنذهب إلى الرقص.

قال الفتى لتوماس: هل تأتي معنا؟

سأل توماس: لكن أين؟

أشار الفتى إلى بلدة في الجوار يوجد فيها فندق وحانة وحلبة للرقص.

ثم قال الرجل الشاب للرئيس بلهجة قاطعة: «تأتي معنا». وبما أنه كان يشرب كأسه الثالثة من مشروب الخوخ، أضاف: «إذا كان مفيستو كئيباً، فلنصطحبه معنا! وهكذا سنذهب برفقة خنزيرَيْن! وكل الجميلات سيقعن أرضاً لدى رؤيتهن خنزيرين قادمين باتجاههن!». ثم انطلق بضحكة طويلة.

قال الرئيس: «إذا كان مفيستو لا يزعجكم، سآتي برفقته». ثم صعد الجميع في الشاحنة.

جلس توماس أمام المقود، وجلست قربه تيريزا. أما الرجلان الآخران فأخذا مكانيهما في الخلف، مع قنينة عرق نصف فارغة. كانا قد غادرا القرية عندما تذكر الرئيس فجأة أنه نسي مفيستو في البيت. فصاح بتوماس ليقفل راجعاً.

فقال الرجل الشاب: «لا داعي لهذا العناء، خنزير واحد يكفي». فهدأ الرئيس.

كان النهار يشرف على الانتهاء. وكانت الطريق تبدو متعرجة.

وصلوا إلى المدينة وتوقفوا أمام الفندق. لم يكن توماس وتيريزا قد قصداه من قبل. كان هناك درج يؤدي إلى تحت الأرض حيث توجد حانة وحلبة رقص وبضع طاولات. كان هناك رجل ستّيني يعزف على بيانو ترافقه سيدة في مثل عمره في العزف على الكمان. كانا يعزفان أنغاماً تعود إلى أربعين سنة.. وكان هناك أربعة أو خمسة أزواج يرقصون على الحلبة.

جال الرجل الشاب الصالة كلها بعينيه ثم قال: «ليست هناك أية واحدة من أجلي هنا!». ودعا حالاً تيريزا إلى الرقص.

جلس الرئيس وتوماس أمام طاولة فارغة، وأمر بزجاجة نبيذ.

اعترض توماس: لا يمكنني أن أشرب. فأنا أقود!

قال الرئيس: وماذا بعد؟ سنمضي الليلة هنا. سأحجز غرفتين.

عندما رجعت تيريزا مع الشاب من الحلبة، دعاها الرئيس للرقص. ثم رقصت أخيراً مع توماس.

قالت له وهما يرقصان: «توماس أنا السبب في كل سوء لحق بك. بسببي أنا جئت إلى هنا. أنا التي أنزلتك إلى هذا المستوى المنحطّ، بحيث لا يوجد هناك ما هو أحطّ منه».

فاعترض توماس قائلًا: لا بدّ أنك تهذين. ثم ماذا تعنين بقولك «ما هو أحطّ منه؟».

ـ لو أننا بقينا في زوريخ لكنتَ الآن تجري العمليات لمرضاك.

ـ ولكنتِ أنتِ تلتقطين الصور.

فقالت تيريزا: لا يمكننا المقارنة. بالنسبة لك عملك يهمك أكثر من أي شيء في العالم. أما أنا فيمكنني أن أقوم بأي شيء ولا أبالي. أنا لم أخسر شيئاً. أنت من خسر كل شيء.

قال توماس: تيريزا، ألم تلاحظي أنني سعيد هنا؟

ـ كانت رسالتك أن تقوم بإجراء العمليات.

ـ رسالة؟ تيريزا، إن ما تقولينه شيء تافه. لا رسالة لي. ولا أحد يملك رسالة. إنها لتعزية لا تقدّر بأن تشعر بأننا أحرار وأن لا رسالة لدينا.

استناداً إلى لهجته، بدا مستحيلاً أن نشك في صدقه. استعادَتْ مشهد بعد الظهر: كان يعالج الشاحنة فاكتشفت أنه صار عجوزاً. ها قد وصلت إذاً إلى مبتغاها: كانت قد رغبت دائماً في أن يصير عجوزاً. وفكرت مرة أخرى بالأرنب الذي ألصقته إلى وجهها في غرفتها التي كانت تعيش فيها عندما كانت صغيرة.

لكن ماذا يعني هذا؟ ماذا يعني أن نتحول إلى أرنب؟ هذا يعني أن

ننسى قوتنا. هذا يعني أنه لم تعد لدينا القوة، لا نحن ولا الآخر.

كانا يروحان ويجيئان قائمين بحركات راقصة على أنغام البيانو والكمان. كانت تيريزا تلقي رأسها فوق كتفه. وكما في الطائرة التي حملتهما عبر الضباب، كانت تشعر الآن بالسعادة الغريبة نفسها، وبالحزن الغريب نفسه. وهذا الحزن، كان يعني: لقد أصبحنا عند المحطة الأخيرة، وهذه السعادة تعني: إلا أننا ما زلنا سوية. كان الحزن هو القالب والسعادة هي المحتوى، والسعادة تملأ مساحة الحزن.

رجعا إلى طاولتهم. ثم رقصت أيضاً مرتين مع الرئيس ومرة مع الشاب الذي كان ثملاً إلى درجة أنه تهاوى على الحلبة.

ثم صعد الأربعة ودخلوا إلى غرفهم.

أدار توماس المفتاح وأضاء الثريا. رأت سريرين ملتصقين بعضهما ببعض وقربهما طاولة سرير وفوقها مصباح. طارت فراشة ليليّة كبيرة مذعورة من الضوء عن الأباجور، وأخذت تحوم في الغرفة. من الأسفل كان يتناهى إلى سمعهما الصدى الخافت لعزف البيانو والكمان.

الفهـرس

ميلان كونديرا

كائن لا تُحتمل خفّته

العَوْد الأبديّ **فكرة** يكتنفها الغموض، وبها أربَكَ نيتشه الكثيرين من الفلاسفة: أنْ نتصوّر أنّ كلّ شيء سيتكرّر ذات يوم كما عشناه في السابق، وأنّ هذا التكرار بالذات سيتكرّر بلا نهاية! ماذا تعني هذه الخُرافة المجنونة؟

تؤكّد خرافة العَوْد الأبديّ، سلباً، أنّ الحياة التي تختفي نهائياً، والتي لا ترجع، إنما هي أشبه بظلٍ ودون وزنٍ وميّتةُ سلفاً. ومهما تكن هذه الحياة فظيعةً أو جميلةً أو رائعةً، فإنّ هذه الفظاعة وهذا الجمال وهذه الروعة لا تعني شيئاً، هي غير ذات أهميّة مثل حرب وقعت في القرن الرابع عشر بين مملكتين أفريقيّتين فما غيرت شيئاً في وجه التاريخ، مع أنّ ثلاثمائة ألف زنجي لاقوا فيها حتفهم وفي عذابات تفوق الوصف. فهل كان سيتغيرّ شيء لو أن هذه الحرب بين المملكتين الأفريقيتين في القرن الرابع عشر قد تكرّرت مراتٍ لا حَصْرَ لها في سِياق العَوْد الأبديّ؟

لِنقُلْ إنّ فكرة العَوْد الأبدي تحدّد أفقاً لا تبدو فيه الأشياء كما نعرفها: تظهر لنا من دون الظروف التخفيفيّة لعرَضيّتها، هذه الظروف التخفيفيّة تمنعنا في الحقيقة من إصدار حكم مُعينٍ. هل بالإمكان إدانة ما هو زائل؟ إنّ غيوم المغيب البرتقالية تضفي على كل شيء ألَقَ الحنين، حتى على المِقْصلة.

... في عالم العَوْد الأبدي، كل حركة تحمل ثقل مسؤولية لا تطاق. وهذا ما جعل نيتشه يقول: إن فكرة العود الأبدي هي الحمل الأكثر ثقلاً.

إذا كان العَوْد الأبدي هو الحمل الأثقل، يمكن لحيواتنا عندئذٍ أن تظهر على هذه القماشة الخلفية بكل خفتها الرائعة.

لكن هل الثقل حقاً **فظيع**؟وجميلة هي الخفة؟

إن أكثر الأحمال ثقلاً يسحقنا، يلوينا تحت وطأته ويشدنا نحو الأرض. ولكن لو ألقينا مثلاً نظرة على شعر الحب خلال العصور كلّها لرأينا أن المرأة ترغب في أن تتلقى حمل جسد الذكَر. إذاً، فالحمل الأكثر ثقلاً هو في الوقت ذاته صورة للاكتمال الحيوي في ذروته. فكلما كان الحمل ثقيلاً، كانت حياتنا أقرب إلى الأرض، وكانت واقعية أكثر وحقيقية أكثر.

وبالمقابل، فإن الكائن الإنساني عند الغياب التام للحمل يصير أكثر خفة من الهواء محلقاً بعيداً عن الأرض وعن الكائن **الأرضي**، يصير شبه واقعي وتصبح حركاته حرّة قدر ما هي تافهة.

إذاً ماذا علينا أن نختار، الخفة أم الثقل؟

لوحة الغلاف: فرناند ليجير

المركز الثقافي العربي

ص ب ١١٣/٥١٥٨ بيروت

ص.ب 4006 - الدار البيضاء - المغرب